

# مغامرات بين العرب

رحلات في الأردن وفلسطين بين 1891-1899 م  
ورحلة إلى جوف السرحان عام 1900-1901 م

للراحلة البريطاني

آرتشيبولد فوردر

ترجمة: مارية عثمان

تحرير وتعليق: د. أحمد ايبيش

# مغامرات بين العرب



روّاد المشرق العربي

# مغامرات بين العرب

رحلات في الأردن وفلسطين بين 1891-1899 م

ورحلة إلى جوف السّرحان عام 1900-1901 م

للرّحالة البريطاني

آرتشرشيبولد فوردر

ترجمة

مارية عثمان

مراجعة وتحرير

د. أحمد إيبش

## سلسلة

### روّاد المشرق العربي

تقديم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، باكورة نتاجها من هذه السّلسلة الثقافية التّراثية تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم و هو ينتمي لهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلمية بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوط في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ومؤسساتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثية عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربية في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دمنا بقصد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بدّ أن نوكّد على أنّ ثمة تياراً موازياً له،

يضارعه ويستقي منه ويتّممـه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقه وما يقدّمه من فوائد لمثقفي العربية ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوّقف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انفلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزيونوفون الأثيني)، ورحلة هيرودوتوس)، والروماني (كرحلة إيليوس غالوس). ثم في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبية، فمكثت فيه على الشّريط الساحلي لبلاد الشام مدة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمـة الثقافية والحضارـية من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعـف إلى حدّ كبير عدد الرّحالـين الأوروبيـين، الذين قصدوا المشرق إما للتجـارة أو المغـامـرة أو الاستـطـلـاع، أو لمجرـد الخروـج بمؤـلفـات إيداعـية فـريـدة. أمـا جـزـيرـة العـربـ، مـعدـنـ العـروـبـةـ وأـرـوـمـةـ قـبـائلـهاـ، وـمـهـبـطـ الـوـحـيـ وـمـوـئـلـ لـغـةـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ، فـلاـ غـرـوـ أـنـهـ نـالـتـ منـ اـهـتمـامـ رـحـالـيـ الـغـربـ وـجـهـوـدـهـ الـمـضـنـيـ وـمـغـامـرـاتـهـ الشـائـقـةـ الشـيـءـ الـكـثـيرـ، عـبـرـ خـمـسـةـ قـرـونـ (منـ الـقـرنـ الـسـادـسـ عـشـرـ إـلـىـ الـقـرنـ الـعـشـرـينـ).. فـجـابـواـ بـوـادـيهـ وـفـيـافـيهـ وـمـجاـهـلـهـ، نـاهـيـكـ عنـ مـدـنـهـاـ وـبـلـدـاتـهـاـ وـقـرـاهـاـ وـمـصـارـبـ بـدوـهـاـ.

هـذـاـ الإـرـثـ الإـنـسـانـيـ الشـمـيـنـ وـالـمـمـتـعـ وـالـمـفـيـدـ، الـذـيـ يـضـمـ الـمـئـاتـ منـ نـصـوصـ الرـحـلـاتـ النـادـرـةـ، تـقـومـ «ـهـيـةـ أـبـوـظـبـيـ لـلـثـقـافـةـ وـالـتـرـاثـ»ـ الـيـوـمـ بـنـشـرـ باـكـورـةـ أـجـزـاءـ بـالـعـرـبـيـةـ، فـيـ مـشـرـوعـ طـمـوحـ يـهـدـفـ إـلـىـ نـشـرـ أـكـبـرـ عـدـدـ مـنـهـ، وـتـقـديـمـهـ لـلـقـارـئـ الـعـرـبـيـ بـأـرـقـىـ مـسـتـوـيـ عـلـمـيـ مـنـ التـحـقـيقـ وـالـبـحـثـ، وـأـجـمـلـ حـلـةـ فـنـيـةـ مـنـ جـوـدـةـ الـطـبـاعـةـ وـتـقـديـمـ الـوـثـائقـ وـالـخـرـائـطـ وـالـصـورـ النـادـرـةـ.

هـيـةـ أـبـوـظـبـيـ لـلـثـقـافـةـ وـالـتـرـاثـ

## هذا الكتاب

في واقع الأمر، لا توفر معلومات وافية حول حياة رحالتنا لهذا الكتاب «آرتشيبولد فوردر»، اللهم إلا من خلال ما خطّته يداه في كتابه هذا. والذى نعرفه عنه أنه رجل إنكليزى ولد في عام 1863 م، وينتمي إلى فئة المبشرين المسيحيين الذين أوفدتهم الكنيسة الإنجيلية البروتستانتية للتبرير في شرقى الأردن وأرض فلسطين. وغنى عن القول إن الهيئات التبشيرية البروتستانتية في كل من إنكلترا واسكتلندا وأميركا أبدت في القرن التاسع عشر اهتماماً منقطع النظير بأرض فلسطين، وأسّست لريادتها وبحثها مؤسسات كبيرة ذات ميزانيات جسمية، كان أهمّها Palestine Exploration Fund التي يُشار إليها اختصاراً بالحرروف (PEF)، وجمعية نشر نصوص رحلات الحج إلى فلسطين Palestine Pilgrims' Text Society وُيشار إليها اختصاراً (PPT).

يروي لنا أنه ترعرع في لندن، وفي سن 13 كان يتعاطى مهنة البقالة والعمل في الأفران، وفي عام 1888 تزوج بسن 25 لكنه لا يذكر اسم زوجته. ولقد غادر بصحبته إنكلترا يوم الخميس في الثالث من سبتمبر في عام 1891 متوجهين إلى القدس الشريف، وفي صباح يوم الأربعاء 30 سبتمبر بدأ رحلتهما إلى الكرك عاصمة مؤاب في شرقى نهر الأردن، فاستهلّت مهمّتهما بكارثة تعرضها فيها لقطاع طرق وكادا يفقدان حياتهما.

أقام الزوجان في الكرك، وتولّيا مدرسة للصبيان تابعة للإرسالية، وشرع صاحبنا بتعلم العربية، كما راح يمارس الطباعة في المنطقة، وكان كما ذكر قد تلقى في لندن تدريباً طبياً لعدّة أشهر. وفي صباح يوم السبت السابع من مايو من عام 1892، بعد

وصولهما بثمانية أشهر فقط، وافى زوجته الأجل. ثم بعد وفاتها بثلاث سنوات تزوج فوردر ثانية من امرأة اسكتلندية تعرف بها في القدس، وقد نشر صورتها في مطلع الفصل الحادي عشر، ويذكر أنها كانت تجيد العربية حيث أمضت في القدس سنوات عديدة.

بوجه الإجمال، مكث فورد في الكرك ست سنوات مليئة بالأحداث، ما بين 1891-1897 ثم يروي لنا كيف قرر وهو كاره مغادرة الكرك والانتقال إلى القدس. وهناك أيضاً جرى له العديد من المتاعب، وقام برحلات متعددة في منطقة إدوم وبئر السبع متبعاً بعض الآثار الدينية القديمة. وفي نهاية عام 1899 نازعته نفسه إلى دخول جزيرة العرب، فقام برحلة من القدس إلى معان قاصداً التوغل جنوباً صوب وادي السرحان، لكنه سرعان ما وقع في أيدي القوات التركية وتمت إعادته إلى القدس قسراً.

وأخيراً، كما يروي في الفصل الخامس عشر، تمنى له تنفيذ حلمه فانطلق إلى الجوف من القدس في 13 ديسمبر عام 1900 م بطريق جبل العرب، فوصل بعد رحلة شاقة إلى بلدة كاف ثم قرية إثرة، ومن إثرة توجه إلى الجوف التي كان يحكمها آنذاك أحد رجال أمير جبل شمر عبد العزيز بن متعب آل الرشيد، هو جوهر العنبر، الذي أحسن استقبال فوردر، وباعتبار هذا الأخير جاء في مهمة تبشيرية لنشر الديانة المسيحية في الجزيرة، فقد فشلت مهمته فشلاً ذريعاً، وبذل معه جوهر شتى الوسائل لإقناعه بدخول الإسلام فلم يقبل. وانتهت زيارة فوردر للجوف نهاية مأساوية، بانهيار أحد أبراج حصن مارد، وإصابة جوهر فيه بإصابة بليغة.

صحيح أنّ مهمّة آرتшибولد فوردر التبشيريّة مُنيت بالفشل الذريع، لكن على الرغم من ذلك تبقى لها قيمتها كمهمة استكشافية، وبالنسبة لنااليوم كوثيقة تاريخية تضمّ روایة حيّة ممتعة. والجدير بالذكر أنّ رحلته هذه التي بدأها في ختام العام 1900 م كانت المحاولة الرابعة له، وعلى غرار أغلب الرحاليين الذين سبقوهبدأ رحلته من خلال منطقة الجوف، إلا أنه كان من ضمن القلائل الذين تمسّكوا بنصرانيتهم وجاهروا بها (كشيخ رحالي الإنكليزي تشارلز داوتي)، مما عرّضه لضغوط وتهديدات كادت أن

تودي ب حياته.

ويمكن لنا أن نضيف هذه الرحلة إلى سلسلة الرحلات المشابهة التي قصدت شمالي جزيرة العرب، كرحلة ثالين عام 1843، وبالغريف عام 1862، وغوارمانى عام 1864، وداوتى عام 1875، وبلنلت عام 1879، وهوبر (أوبير) عام 1878-1880، وأوينتنغ عام 1883، ونولده عام 1893، وجوسان وسافينياك عام 1907.

ُنشر الكتاب في بوسطن عام 1905، ولم تتم ترجمته إلى العربية قبل اليوم. ولقد ترك فوردر عدّة مؤلفات أخرى نذكرها أدناه. أمّا تاريخ وفاته وغير مذكور في أيّ من المصادر، لكن آخر مؤلفاته نُشر في عام 1921.

قمنا بتعريف هذا الكتاب عن طبعة صدرت في نيويورك عام 1909 عن دار Gospel، ونرجو أن يكون في عملنا هذا اليوم إضافة مفيدة وممتعة إلى سلسلة رحلات الغربيين في مشرقنا العربي.

والحمد لله على ما وفق وأعan.

بيروت، 7 يونيو 2011

د. أحمد إيبش

\* \* \*

## مؤلفات آرتشر بولد فوردر

*With the Arabs in Tent and Town*, London 1902.

*Ventures Among the Arabs in Desert, Tent and Town*, 1905.

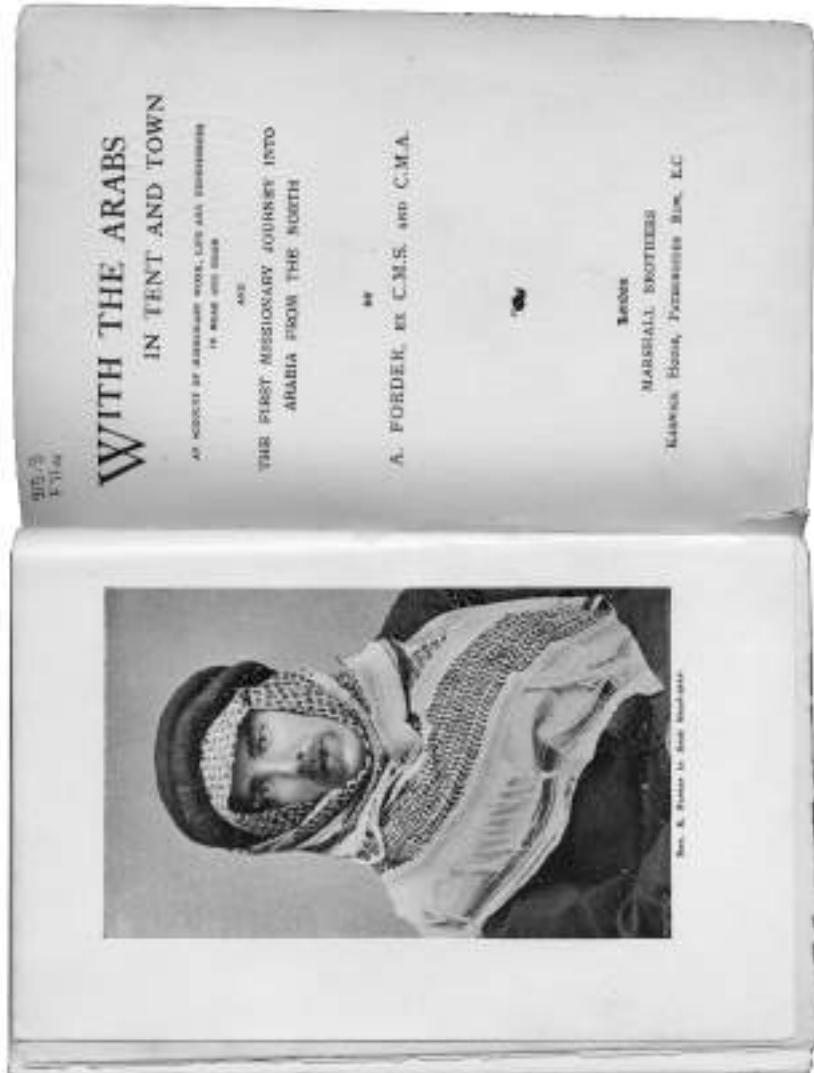
*Daily Life in Palestine, Scenes and Doings*, 1912.

*In and About Palestine with Notebook and Camera*, 1919.

*In Brigands' Hands and Turkish Prisons*, London 1920.

*The Branded Foot, a Story of Life and Experiences*, 1921.

\* \* \*



نموذج عن الطبعة الأولى لأقدم كتاب فوردر

## مغامرات في بلاد العرب

في الصحراء والخيمة والمدينة

ثلاثون عاماً من الحياة الريادية

مع إسماعيلي مؤاب وإدوم وجزيرة العرب

بقلم: آرتتشيبولد فوردر

المعين سابقاً في الكرك ومؤاب

Late of kerak of Moab

أهدي هذا الكتاب  
مع خالص محبتى وتقديرى  
إلى  
أمى وأبى

اللذين كرسا حياتهما بكل المحبة والإيثار لابنهما الذى بدوره كرس حياته للعرب،  
وللسنوات العديدة التى صلى فيها يومياً من أجل النجاح فى عمله.

في صفحات العالم، لازالت هنالك صفحة لم تقرأ بعد؛  
وأرض مازالت بانتظار رايات الرواد من المستكشفين؛  
إنها شبه الجزيرة العربية، موطن الخيل والنخيل،  
والملائين من أبنائها المتلهفين لجرعة البلسم الشافي  
لذلك

فقد أهاب بي الشوق الغامض للانطلاق، وحدد لي طريقي  
نحو رمال الشرق، نحو أرض المعجزات

مهد الإسلام



المستر آرتشيبولد فوردر Archibald Forder

بالزيّ الأوروبي والزيّ العربي

## تمهيد

لم أهدف من وراء هذا الكتاب إلى إرضاء شغف لغامرة حسّية، ولكن لإظهار كيف يمكن لحياةٍ نذرها إنسانٌ بأكملها لخدمة الله أن تستغل وتُكرّس للعمل وفق ظروفٍ شتى، وميؤوس منها في أغلب الأحيان، على أمل أن يُقدم الكثيرون على المجازفة بشيء ما باسم جزيرة العرب العظيمة التي يتحدث عنها الكتاب. يبيّن لنا الكتاب بأن مغامرات رواد المبشرين مليئة بالإثارة والطموح والمتعة، وحرّي بها أن تطرد من ذهاننا ذاك الوهم بأن الحياة برمتها عبارة عن سلسلة من المتع والمسرات وأن المبشر يستمتع بالأوقات التي يمضيها في تلك الأصقاع النائية.

لم يكن قصدي من وراء هذا العمل الوصول إلى مستوى الإبداع أو الكمال الأدبي، أو الوصف الجغرافي والتاريخي المفصل لجزيرة العرب. بل قصتي هي عبارة عن تدوين عفوياً لمغامرات وأحداث كما جرت تماماً، عبارة عن سجل موثق لتجارب ومعتقدات شخصية. وهو موّجه لما أعتقد بأنه جمهور متعاطف مع ما أقوم به؛ وإذا ما منَ اللهُ علىَ مَنْ يَعْنِي النَّظَرُ وَالتأمِّلُ في صفحات الكتاب بتكرّيس نفسه بصورة أكمل وأعمق لمزيد من العمل التبشيري في بلاد الله الواسعة، فلن يكون وقتني وعملي وتفكيري الذي كرسْته في سبيل هذا العمل قد ذهب بلا طائل.

أ. فوردر

بوسطن، ماساتشوستس

\* \* \*

## المقدمة

[نقلًّا عن كتابي «مع العرب في خيامهم ومدنهم»]

فنصلية الولايات المتحدة

إلى من يهمه الأمر:

السيد أو السيدة، --

تُعرَّفُ هذه الرسالة بالسيد آرتشيبولد فوردر المعروف تماماً من قبلـي. إنه مسيحي مثابر، مخلص متovan، جريء غير هياب، عمل ولا يزال بحماسة لا تعرف الكلل ولا الملل.

إنه يستمتع بالاستكشاف والعمل الريادي أكثر من أي شخص آخر رأيته في حياتي.

ذهب بمفرده العام الماضي 1900 إلى جوف صحراء جزيرة العرب، حيث كاد أن يهلك بسبب جسامـة الأخطار والمشاق التي واجهـها وكابـدهـا. إنه بمثابة ليـنـغـسـتون<sup>(1)</sup> (Livingstone) دائم وإذا كان هـنـالـكـ أيـ قـارـةـ ماـزـالـتـ «ـغـيرـ مـعـرـوـفـةـ»، فإنـ المسـتـرـ فـورـدـ سـيـكـونـ الرـجـلـ الذـيـ سـيـفـتحـ أـبـوـابـهاـ المـغلـقـةـ أـمـامـ الـرـيـادـةـ.

---

(1) داـقـيدـ ليـنـغـسـتونـ (1813ـ1873ـ): مـبـشـرـ اـسـكـتـلـنـدـيـ وـمـسـتـكـشـفـ بـأـفـرـيـقـيـاـ وـاسـعـ الشـهـرـةـ.

## المقدمة

بالتنسيق مع بعض الجمعيات العريقة المعترف بها وتحت إشراف بعض الأمناء المتميّزين بالحكمة ورجاحة العقل، أنا على يقين من أن المستر فوردر سيدوي مهمته على النحو الأمثل. إن شخصية هذا الرجل تسمو فوق كل نقد ولوم، وهو موضع احترام وتقدير جميع معارفه.

بكل الاحترام

القس سلاه ميريل

(Hon.) Selah Merrill LLD

U. S. Consul Jerusalem

23 سبتمبر 1901

\* \* \*

## شكر وتقدير

للصوريتين التوأم اللتين أعيد نسخهما كصورة مواجهة لصفحة العنوان؛ كما أنها مدینون لـ جيه سي فارني J.C Varney، من هافرهيل Haverhill، ولاية ماساتشوستس Mass.، وأيضاً للصورة المواجهة لصفحة 85؛ ونوجه الشكر أيضاً لـ فان بي ويتن Van B. Wheaton .Amsterdam N.Y.

\* \* \*

## مغامراتي في بلاد العرب

### الفصل الأول

#### استقبال غير لائق

كان الليل يرخي سدوله بسرعة، وكنا نترقب بلهفة نهاية رحلتنا الطويلة والمرهقة، حيث قضينا أربعة أيام في طريقنا من القدس، وليلة أخرى كان علينا أن نقضيها قبل أن نصل إلى موطننا الجديد وسط الآلاف من الإسماعيليين في الكرك، العاصمة القديمة الواقعة فوق مرفعات وجبال تلك المنطقة النائية.

أمر زعيم قافلتنا الصغيرة بتحميل الجمال والبغال للمرحلة الأخيرة من الرحلة. عمد رجالنا الأويفاء الأتقياء بشيء من الخوف والرهبة إلى موازنة الأحمال على ظهور الدواب، ثم إلى تناول هراواتهم الغليظة وتقلد بنادقهم القديمة ذوات الفداحة الصوّانية flintlock guns مستهلين انطلاقتهم بكلمة «بسم الله»، يحدوهم الأمل ببلوغ المدينة القديمة التي تفصلنا عنها مسافة خمسة وعشرين أو خمسة وثلاثين ميلاً قبيل بزوغ الفجر.

امتنينا دوابنا وكنا نسير في مؤخرة الرّكب. وعند الشفق أمكننا رؤية القافلة أمامنا يحدوها رجالنا بكل همة ونشاط، ولكن من دون أن نسمع لهم صوتاً، نظراً لأننا أصبحنا الآن في أرض مؤاب وسط أناس عُرف عنهم خروجهم على كل القوانين المعروفة، يسكنون بيوت الشعر ويرعون الماشية. كانوا على عداوة مع الجميع، والجميع كان

على عداوة معهم. كان هؤلاء الناس ينظرون بارتياح إلى أي شخص تسول له نفسه أن تطأ قدماه حماهم دون دعوه منهم، وكانوا على أهبة الاستعداد في أية لحظة للغزو والانقضاض، أو حتى القتل، لإشباع رغبة الشيوخ ومرافقهم وإثخام رغبتهم بمعانيم السلب والنهب. وبعد عملية النهب وحتى القتل، كانوا يعودون إلى مضاربهم، فيهدون الخيام ويطوونها ومن ثم يرتحلون إلى أرض جديدة عصية على كل من قد تسول له نفسه بتعقب أثرهم والانتقام لما حدث.

لا غرابة إذاً بأن مرافقينا العرب الطيبين لزموا الهدوء خشية أن يسلطوا علينا بعضاً من الجشعين والمتعطشين للدماء. ولكن على الرغم من التزام الحيطة والحذر، لم يكن ليُسمح لنا بالعبور من دون منِّعَصات أو الوصول إلى مقصدنا الجبلي من دون مضائقات.

كانت الساعة حوالي السابعة مساءً وكان الظلام دامساً عندما حوصلنا فجأة ومن دون سابق إنذار من قبل عصبة كبيرة من الرجال الشرسين المسلمين بالبنادق والخناجر والرماح والطبنجات. أطبقوا علينا بلمح البصر من كل حدب وصوب، في خطوة مُحكمة تُفْدِت بكل دقة. قاموا أولاً بفصيلنا، ثم قام بعضهم بسوق الدواب المحملة التي أصبت بحالة من الهياج والذعر المفاجئ ما حدا بسائسيها إلى تركها والابتعاد عنها. البعض الآخر من هؤلاء الوافدين غير المتظرفين احتجزوا أحد أفراد جماعتنا المتواضعة أسيراً، وبعد دقائق من الهجوم لم يعد أحد منا يعلم عنه شيئاً.

سيسأل البعض من كان هؤلاء القادمون الجدد؟ كانوا مجموعة من الأعراب يتتمون إلى العائلة الحاكمة في مؤاب والمعروفة بآل المَجَالِي الذائي الصيت والمرهوبين الجانب بسبب شراستهم وجسارتهم. وبطريقة ما علموا بقدومنا، وكانوا يتربّصون بنا بانتظار وصولنا، مستعدين ليس فقط لمبااغتنا، وإنما لاستقبالنا في بلدتهم بطريقة فظة غير لاثقة. لم يكن المكان أو الوقت مناسباً للحديث، وهكذا فقد جرى سوق كل واحد من راكباً من قبل ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الوافدين غير المرحب بهم.

تناولى إلى سمعي صوت زوجتي تنادياني، وكان صوتها آتياً من مكان ما عن يميني.

وهكذا، ومن دون الالتفات للأشخاص القائمين على اقتيادي معهم، انسللت متراجلاً عن حصاني؛ وقبل أن يتبعها الما حدث، كنت أركض في الاتجاه الذي أتى منه صوت زوجتي، متعرضاً بالأحجار والشجيرات في الظلمة، إلى أن وقعت على مجموعة صغيرة من الرجال.

كانت زوجتي في الوسط مازالت معتلية بغلها وحولها ستة أو ثمانية رجال، بعضهم على الجياد، وبعض الآخر راجلاً. كانوا يحاولون إفهامها بأنهم يريدون أي شيء ثمين قد تحمله معها.

بالرغم من أنهم كانوا قوماً شرسين وخارجين عن القانون، فإن عاداتهم وأعرافهم الاجتماعية منعهم من التعرض لامرأة، رغم توقعهم للفوز بأية أشياء ثمينة قد تكون بحوزتها. لقد سبق لي أن تعرّضت لمثل هذا الموقف الذي خرج منه اللصوص بخفي حنين. على أية حال، لم أكن أحمل معي أي شيء ذات قيمة، كوني قد وضعت في حسباني مواجهة مثل هذه المواقف.

كنت قد قاومت بشدة الرجل الأول الذي بدأ يفترش جيوبه وخرج داببي. وفي محاولة منه لإخافتني وترويعي كي أستسلم له، استل خنجرًا مقوساً طويلاً ثم أخذ يلوح به في وجهي مهدداً. لكنني تمكنت بحركة بارعة من انتزاعه من يده، الأمر الذي دفعه إلى العزوف عن محاولته التدخل في شؤوني.

باندفعي بين الجياد والرجال الذين يحاصرون زوجتي، تمكنت من خلال إشاراتي وصرخاتي من إفهامهم بأنني كنت متحجاً على أفعالهم. في ذلك الوقت لم أكن أجيد سوى بعض كلمات اللغة العربية. وما هي إلا دقائق معدودة حتى انضم إليهم أولئك الرجال الذين عمدوا إلى أسري والذين تعقبوا أثري بعد أن تمكنت من الإفلات منهم؛ ثم انطلقنا سوية. كنت أسير بحداء بغل زوجتي وأنا أبذل ما يوسعني لتشجيعها والترويح عنها. لقد دعوني عدة مرات للركوب، ولكن من دون جدوى.

لم نكن طوال هذا الوقت نعرف شيئاً عن أصحابنا الذين كان بمقدورهم التحدث

بلغة القوم أو عن الحمولة، أو حتى عن مرافقينا الأوفياء. أسرينا لمدة ساعة تقريباً تحت جنح الظلام، وغالباً ما كنت أتعثر بالحجارة أو بعض الحفر فوق الأرض الجافة المتشققة، لكنني أتشبث بليجام البغل، وعلى الرغم من قدمي المتقرحتين وساقي الداميتيين من وخز الأشواك الحادة أو نبات القرّاص اللاذع، لاحت لناأخيراً على بعد أضواء نيران المضارب، وأدركنا أن بيوت آسربينا باتت قريبة وأن هذه المرحلة من رحلتنا على الأقل شارت على نهايتها. اندفعت الكلاب الحانقة باتجاهنا من كل حدب وصوب معلنة عن قدومنا بصيحاتها الحادة ونباحها الأجيش.

وبعد بضع دقائق أخذنا الجمال وحططنا الحال قبلة واحدة من خيام أحد المضارب الكبيرة، ثم دُعينا للدخول؛ وهذا ما فعلناه، مدركين لحقيقة أننا أسرى هؤلاء البدو الذين قاموا باعتقالنا وأن سجننا المؤقت هو أحد بيوت الشعر.



## الفصل الثاني

### دخول مؤاب

آلَّ بنا الفصلُ السابقُ وَأَنَا وَرْفَاقِي أَسْرَى دَاهِرًا أَدْخَلَ أَهْدَبَيْتُ الشِّعْرَ فَوْقَ سَهْوَلِ مَؤَابِ  
الْمَوْحَشَةِ الْمَقْفَرَةِ. دَعَوْنِي الْآنَ أَرُوِي لَكُمْ كَيْفَ وَصَلَتْ إِلَى هَنَاكَ وَالظَّرُوفُ الَّتِي  
أَسْلَفَتْ ذَكْرَهَا.

غادرت أنا وزوجتي إنكلترا يوم الخميس في الثالث من سبتمبر في عام 1891 تحدونا  
الألماني الطيبة وبركات ودعوات الأهل والأصدقاء. وصلنا إلى يافا، ميناء جنوبى فلسطين  
في الموعد المحدد، حيث استقبلنا هناك من قبل السيد والسيدة ليثاباي Lethaby وحللنا  
ضيوفاً مؤقتين في دارتهما الخاصة. هنا تلقيت أول درس لي في اللغة العربية - درس قصير  
وسهل نسبياً، ولكنه مفيد جداً، فالوكييل الذي تعهد أمور نزولنا من المركب وإجراءات  
الجمارك عَلَّمَنِي المقابل في اللغة العربية لعبارة «ما ذا يكون ذلك؟».

وهكذا شرعت في تعلم العربية مسلحاً بأول كلمتين من تلك اللغة الصعبة، وسرعان ما  
تعلمت أسماء العديد من الأشياء حتى بات بمقدوري التحدث مع الناس. وبما أنّ الطريق  
إلى مؤاب كانت تمرّ عبر القدس، فقد استأجرنا عربات توصلنا إلى المدينة المقدسة، نظراً  
لأن طريق سكة الحديد لم يكن قد افتتح بعد. وبعد رحلة مضنية وصلنا إلى القدس حيث  
أقمنا في بيت مريح. في صباح يوم الأربعاء 30 سبتمبر بدأت رحلتنا إلى مؤاب. كانت  
وجهتنا الكرك Kerak العاصمة القديمة، والتي هي قير Kir في العهد القديم، ولو أنها عرفناها  
آنذاك بكل ما سيحل بنا، لكننا تحسّبنا لمثل هذه الرحلة بقدر أكبر من الجدية. صديقانا السيد

والسيدة ليثاباي Lethaby ركبا في محملين بدائيين مدللين على ظهر أحد الجمال. ووضعنا أنا والسيدة فوردر في وضع مشابه. تحركنا ببطء شديد، وبعد أن أخذ التعب منا كل مأخذ، امتشل صاحب الجمل في النهاية لتوصلتنا واقتراحتنا بالوقوف وأخذ قسط من الراحة. وبعد عشر دقائق بدأنا من جديد. لا تزال ذكرى رحلة ذلك اليوم إلى أريحا ماثلة في خاطري وتلك التأرجحات والترنحات على ظهر الجمل تحت أشعة الشمس الحارقة، كانت أمراً لا يطاق. وما فاقم من معاناتنا وتعاستنا كان ذلك الجمل الحررون في إصراره على السير بحداء الحواف الخطرة لتلك الجروف الشديدة الانحدار التي يشتهر بها طريق أريحا. وكان إذا ما ربتنا على عنقه لنوجهه إلى منتصف الطريق، يحرن ويتوقف عن السير، ثم يجثو على ركبتيه.

لقد فاقم الهدوء غير العادي لذلك الحيوان من متابعينا في اليوم الأول إلى درجة كبيرة. وكنا إذا ما استدار بعنقه الطويل ليذب حشرة مزعجة عن مؤخرته، نخال أنه يهم بقضم أرجلنا المتسلية على أطراف المحمليين اللذين كنا قابعين فيهما.

وأخيراً تراءت لنا أريحا عبر السهول ووصلنا أخيراً إلى القرية. كنا متعبين ومنهكين، وممتين للماوى والمياه الساخنة التي وفرتها لنا المرأة المسؤولة عن ذلك التزل الروسي هناك. حاولنا أن نخلد إلى النوم، ولكن الحرارة الشديدة والهوام والحشرات المنتشرة بكثرة التي شاطرتنا فراشنا، جعلت النوم يجافي أعيننا.

في حوالي الساعة الثانية من صباح اليوم التالي انطلقتنا في طريقنا من جديد نحو وجهتنا التالية. كانت جمالنا في العتمة تقتنى أثر سيدها عبر سهل أريحا المنبسط. وعند الفجر وصلنا ضفاف النهر التاريخي حيث تقدم دلينا بعد أن انتضى عنه ملابسه ورمى بها جانباً ليخوض نهر الأردن عابراً إلى الضفة الأخرى. وبالتابع عبر الجملان كلاهما النهر وتبعهما على الأثر حماران سباحة. حمل مرافقنا الحقائب على رأسه، وبعد قدر كبير من الخوض في مياه النهر، نجح في النهاية بالوصول إلى الضفة الأخرى. كان المنظر رائعًا في الصباح الباكر مع خيوط الفجر الأولى. استرحنا لحوالي نصف ساعة وتناولنا طعام الإفطار المكون من الخبز الجاف ومياه نهر الأردن، التي وإن لم تكون غاية في الروعة، فقد كانت سائفة جداً.



### نهر الأردن

إطلالة على النهر بالقرب من المخاضات (مواضع المياه الضحلة) التي عبر من خلالها بنو إسرائيل. يبعد الموقع حوالي خمسة أميال عن أريحا. وقد التقاطت هذه الصورة من على الجسر الخشبي الممتد فوق النهر في تلك النقطة. عبر المستر فوردر من هنا في رحلته الأولى إلى مؤاب.



### بيت عربي من الداخل

تبين هذه الصورة مكان الموقد في الوسط والعتبر الطينية التي تخزن فيها الحبوب والملح أو الطحين. إلى اليسار يوجد فسحة نوم العائلة، كون باقي المساحة تكون بشكل عام مشغولة بالضيوف. لا يوجد في هذه البيوت نوافذ أو مداخل.

كانت الرحلة عبر سهول الأردن طويلة ومتعبة. كانت الحرارة لاهبة وجبال مؤاب بدت وكأنها سراب لن ندري منه أبداً. ولكتنا وصلناها في النهاية، وبدأت رحلتنا صعوداً. شرعت الجمال ببطء ومشقة بمهماتها الصعبة في الصعود والنزول في أماكن يستحيل على أيّ حيوان آخر أن يجاذب بارتيادها، بمحاذاة الحواف الخطرة للوديان السحرية فوق الجروف الصخرية الملساء والزلقة بفعل أقدام العابرين وتح العواصف والرياح. وأخيراً لاحت لنا على بعد سهول مؤاب Moab الشاسعة الخصبة والتي كانت في ذلك الموسم الجاف والحار من العام متشققة بفعل الحرارة القائمة لفصل الصيف الطويل. مررنا في ظل جبل نبو Mount Nebo، لكننا كنا مرهقين جداً لتنبيه له أو نعيير كثير اهتمام لأول زعماء بنى إسرائيل الذي توفي هناك فوق ذاك الجرف المنعزل من تلك السلسلة الجبلية.

بعد خمس عشرة ساعة من مغادرتنا أريحا وصلنا إلى مادبا Medeba، وهي عبارة عن قرية كبيرة تقع في السهل. كم كنا ممتنين للترحيب الحار من قبل زعيم المنطقة! فقد بسط لنا السجاد وغير ذلك من وسائل الراحة على الأرض، حيث اضطجعنا وأرخنا بسرور أرجلنا المتعبة من عناء المسير. كان المنزل عبارة عن غرفة واحدة كبيرة في كل ركن من أركانها مكان مخصص لنوم العائلة أو تخزين المؤن والبضائع. أقواس عريضة مصنوعة من طبقة سميكة من الطين كانت تدعم السقف تحملها عوارض خشبية.

كما جرت العادة، تم إعداد العشاء وتقدميه على الطريقة العربية. كانت وجبة محترمة جداً مؤلفة من دجاجتين مشويتين في الفرن وأرز مسلوق وخبز مسخن. لقد أكلنا حتى التخمة وما تبقى أعطي لأولئك المتحلقين حولنا يحدقون بنا. أعقب ذلك القهوة، التي قدمت لنا في فناجين صغيرة؛ مقدار ملعقة صغيرة كان بالنسبة لنا يفي بالغرض، حيث أنها كانت قهوة كثيفة ومركزة ولكنها كانت تفتقر إلى الحليب أو السكر. في ذلك الوقت كان البيت قد غص بالعديد من الرجال الذين تحلقوا حول النار الموجودة في نُقْرَةٍ وسط الأرض. وفي غمرة الشرارة الصاخبة ودخان النار والغلابين العديدة أسلينا قيادنا لنوم عميق، أبعدنا لفترة وجيزة عن هذه البيئة الجديدة والغريبة المحيطة بنا. بعيد

استيقظنا لم نلبث أن اكتشفنا أن أعداداً كبيرة من الغزاوة والمعترين كانوا قد هاجمونا لهدف واضح وهو الاستيلاء على كل شيء استطاعواأخذه من الوافدين الجدد. لقد علمنا للأسف بأن مادبا كانت مقر إقامة زعيم وزعيمة المنطقة flea community وأنهم لم يتوانوا أبداً في التحقيق مع أي شخص كان ينزل أرضهم لبعض الوقت. تلك الإغفاءات القليلة أنعشتنا وساعدتنا في تمضية تلك الليلة المثيرة.

كان ينبغي لي التنويه بأن حقائينا الثقيلة غادرت القدس على خمسة بغال قبلنا بساعتين في ذات اليوم الذي بدأنا فيه رحلتنا حيث التقينا بها في مادبا. لم نكن نتوقع بأن ننطلق مجدداً قبل يوم أو يومين، لكنهم قالوا بأنهم سيستأنفون مسيرهم يوم الجمعة حوالي العاشرة صباحاً. كانت جمالنا قد عادت إلى القدس، لذلك فقد بدأنا المرحلة الثانية من رحلتنا على البغال والأحصنة. كان يمكن لمسيرنا خلال اليومين التاليين أن يكون محفوفاً بالمخاطر والتأخير، لو لا أن حالفنا الحظ بعبور المكان دون أن يلحظنا أحد.

دخلنا أرض الأعداء في وقت متاخر من بعد الظهر وواصلنا التحرك حتى أرخى الظلام سدوله.

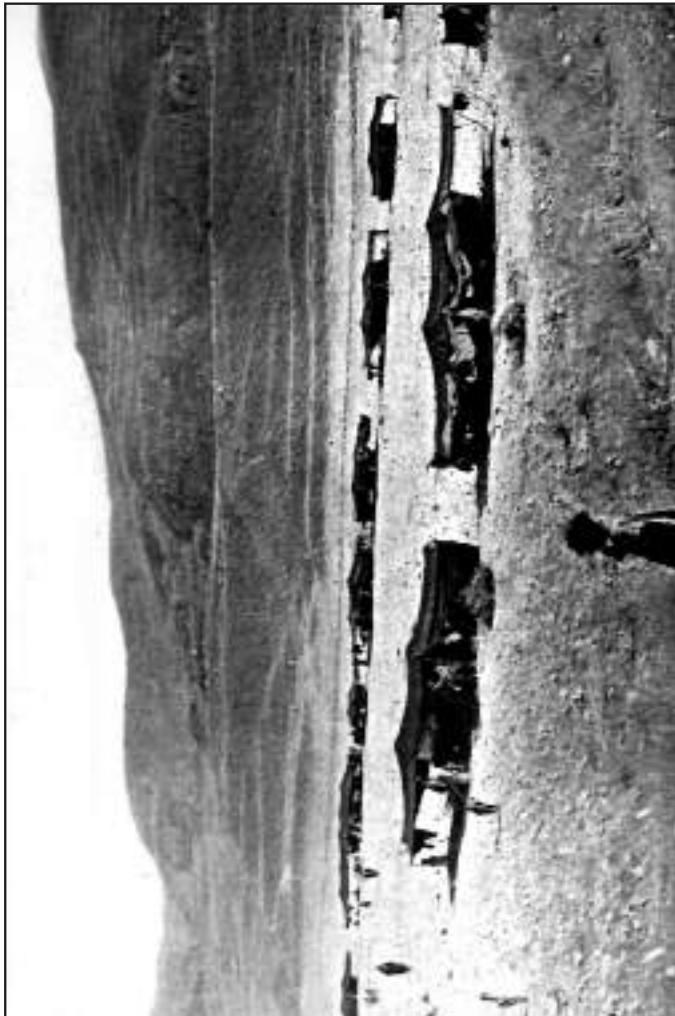
كانت قافلتنا مؤلفة من حوالي أربعين رجلاً، إضافة إلى الدواب، والعديد منهم قرروا السفر معنا، لأن في الكثرة أماناً. من دون أن ينس أحد ببنت شفة عبرنا تلك السهول تحت جنح الظلام. وفجأة ألغينا أنفسنا محاصرين من قبل عشرة أو اثنى عشر رجلاً من قبيلةبني حميدـة<sup>(1)</sup> Hameideh حيث أثنا كنا نسافر عبر أرضهم من دون موافقتهم. بدت ملامحهم على ضوء النجوم ملامح رجال أشرار، مسلحين بالبنادق والطبنجات والسيوف ورماح بطول اثنى عشر قدماً. بعد كثير من الصياح والجدل الذي كان مبهماً بالنسبة لنا، عمدوا إلى فصلنا ثم ساقوا جميع الحيوانات المحمولة بعيداً، بعدها تركونا نجتمع مرة أخرى ونستأنف مسيرنا دون أن نعلم أي شيء عن مصير حقائينا.

(1) تعود بنا الذاكرة هنا إلى رحلة الإيطالي كارلو غوارمانى الذي أقام لدى بني حميدـة مدة إبان رحلته المشابهة لرحلة فوردر من الأردن إلى الجوف فالقصيم عام 1864.

بعد حوالي ساعتين وصلنا أحد مضارب بيوت الشعر حيث أمضينا بقية الليل. وقبيل الصباح كان قد جرى استرداد جميع حيواناتنا المحمّلة على يد ساسة البغال الأولياء. ومع طلوع الفجر تحركنا ثانية يحدونا الأمل ببلوغ الكرك Kerak بأمان قبيل حلول الظلام. وسرعان ما وجدنا أنفسنا نهبط في المجاز الضيق والعميق لوادي الموجب Mojeb. عبرنا نهر أرنون الذي يجري في قاع الوادي ومتعبنا ناظرنا بذاك الغطاء القشيب من أزهار الدفلى البيضاء والقرنفلية على ضفتي النهر. وصلنا إلى طرف ذاك الوادي الرائع من جهة الكرك حوالي الساعة العاشرة صباحاً وقررنا البقاء هناك حتى مغيب الشمس، حيث أنها كانت قد دخلنا الآن أرض زعماء الإغارة في مؤاب Moab المعروفة بالمجالي Mujellies.

كان رجالنا على علم بأننا إذا ما وقعنا في أيدي هؤلاء الناس فلن يرحمونا أبداً. تقيأنا ظلال إحدى الصخور الكبيرة واتخذنا من ذلك المكان ملجاً ومأوى. لقد كان المكان محظوظاً عن الأنظار لدرجة أن أحداً لا يمكنه رؤيتنا ما لم نظهر أنفسنا عن عدم. لم نمكث طويلاً في ملجأنا حتى تناهى إلى سمعنا صوت شجار صاحب بين رجالنا. تسللت السيدة ليثابي خارجاً لاستطلاع الأمر فلمحت الرمح الطويل لأحد الشيوخ أو الزعماء. كان قد أطبق على رجالنا زاعماً بأن بعضها منهم قد جرد أحد رجال قبيلته من بندقيته وسرقهها وأن عليه أن يأخذ شيئاً ما بالمقابل.

وبعد جدال عاصف، مضى بأحد بغالنا بعد أن حمله بأسرتنا وأحد صناديق الملابس والأرغن الصغير خاصتي. لم يكن لدينا أيّ أمل برؤيه تلك الأمتعة ثانية، إلا أنها عدنا أنفسنا محظوظين عندما استعدناها بعد عدة أسابيع. انقضى ما بقي من ذلك اليوم بهدوء ودون منغصات، أما البقية فقد هيأتنا للأحداث المدونة في الفصل الأول. كنا هناك في خيمة بدوية ومن تلك النقطة سأبدأ القصة.



### مغارب عرب الصحراه

هذه الملاجئ البدائية هي «خيم قدار» (Kedar) مكان إقامة عرب الصحراه والتي تدعى «بيوت الشمر» لأنها مصنوعة من شعر الماعز. فالنساء يغزلنها وينسجنهما وهي محكاة بياحكام وبذلك سوف يسخون الماء منها وينفثونها خارجاً على الرمال الناتعة خلال العاصفة. تقسم الحياة إلى قسمين: قسم للنساء، وآخر لاستقبال الضيوف وتأمين راحتهم.

أخذنا أنا وزوجتي إلى واحد من بيوت الشعر تلك حيث بُسط لنا السجاد لنجلس عليه وتحلق الرجال والنساء والأطفال حولنا محدثين بنا بدھشة واستغراب، فاستتجنا بأنهم جميعاً كانوا راضين عن هذا الأسر الذي مكّنهم من رؤيتنا. وسرعان ما خطر ببال أحدهم احتمال أننا جياع، لذلك فقد بادروا إلى الاستفسار منا من خلال الإشارات إن كنا راغبين بالأكل، فهuzzنا رؤوسنا بالموافقة. عندها أعدوا لنا على عجل بعضًا من الخبز الرقيق الذي كان طيب المذاق. قدموا لنا أيضًا القهوة وجلبوا لنا قدرًا كبيرًا من الحليب. لعله كان أمراً جيداً بالنسبة لنا لأننا لم نستطع التحدث إليهم؛ ليته كان بإمكاننا أن نفعل ذلك، إذاً لأمكنتنا تسقط أنباء عن رفاقنا وأمتعتنا.

وفي غضون ساعة من الزمن حضر إلينا واحد من رجالنا وأفهمنا بأننا مطلوبون في مكان آخر. نهضنا وتبعنه حيث قادنا إلى خيمة على الجانب الآخر من مضرب الخيام، وهناك وجدنا رفاقنا داخل الخيمة. كانوا داخل خيمة الزعيم المحاط بأبنائه العُتاة ورجاله الجشعين، حيث طالبنا الزعيم بالمال لأننا مررنا في إقليمه. كان علينا أن ندفع له خمسين دولاراً قبل أن يطلق سراحنا، وإلا فسوف ييقينا وحوائجنا رهن الاحتجاز.

كان المبلغ المطلوب بالنسبة للكثيرين مبلغًا صغيراً ولكنه، بالنسبة لنا ولهم، كان كبيراً؛ لذلك رفضنا أن نلبي طلبات هذا الزعيم المراوغ.

تضرّعنا إلى ربنا أن يلهمنا الحكمة ويهبّئ لنا من أمرنا رَشداً، ثم افترشنا الأرض الجرداء وأسلمنا أنفسنا للنوم. وعندما استيقظنا صباح اليوم التالي رأينا بعضًا من صناديقنا ملقاة في أرجاء مضرب الخيام كيما اتفق. وسرعان ما بدأت النسوة بإنزال الخيام استعداداً للرحيل، حيث تبين لنا بوضوح وجوب التوصل إلى تسوية ما، وإلا فسوف نفقد كل ممتلكاتنا.

قطعن لهم عهداً بأن ندفع المبلغ المطلوب شرط أن يقوموا بمرافقتنا لحين وصولنا إلى الكَرَك بأمان وأن ترد إلينا جميع حقائبنا. فجرى تكليف ثلاثة من أبناء الزعيم لمرافقتنا إلى موطننا الجبلي. وهكذا وجدنا أنفسنا أمام بداية جديدة كانت بانتظارنا،

ولكن بعد حوالي ساعة من الزمن جوبهنا بالمزيد من الأعراب على ظهور الخيل؛ وكانوا جميعاً بحالة من الغضب والانفعال.

سمح للجميع بالمرور، باستثناء أنا وزوجتي. كان هؤلاء المطالبون الجدد من عائلة أخرى مرتبطة بالشيخ الحاكم وقد طالبوا بحصتهم من الغنائم قبل أن يُسمح لنا بالمرور. وبعد الكثير من العراق والمشاحنة قام المكلفوون بحمايتنا بتهدينا حيث لحقنا بالأَخرين.

عند الساعة الثالثة من بعد الظهر وصلنا الكَرَكَ حيث كنا متعفين ومرهقين ومنهوكى القوى نظراً لأننا لم نأكل أو نشرب منذ حوالي خمس عشرة ساعة. وبهذه الحالة قدمت للعرب. بعدها كنت أتحدث من وقت لآخر مع أولئك العُتَّة حول تلك الليلة لأسمع منهم الرد التالي: «ما فات قد فات ومن مات قد مات».

لم تظهر علينا في خلال كل تلك المحن الأولى الجديدة والقاسية أية علام أو دلالات توحى بالخوف أو الرعب، فقد كنا ندرك آنذاك، وعلى غرار المحن العديدة السابقة، بأن «ملائكة رب يكلاً بعين الرعاية أولئك الذين يخشونه وينجيهم من البلوى». لقد كانت مجرد البداية لكثير من الأحداث القادمة، والأسوأ من ذلك، أن هذه الأحداث بدأت تتوالى قبل أن نتمكن من كسب ذلك الود والاحترام والثقة والإعجاب من جانب هؤلاء من أبناء إسماعيل حيالنا والحفاظ عليه من الضياع في يوم من الأيام.

\* \* \*

## الفصل الثالث

### من هو الأسير

ستسهم بعض المعلومات التي يتضمنها الكتاب عن نشأة مؤلفه في تمكين القارئ من متابعة وفهم كل ما تتضمنه هذه الصفحات على نحو أفضل.

لم أفتح عيني على نور هذه الحياة وفي فمي ملعقة من ذهب. لقد كنت واحداً من سبعة أبناء مَنَ اللَّهُ بِهِمْ عَلَىٰ وَالَّذِينَ وَرَعَيْنَ بِكُلِّ مَا فِي الْكَلْمَةِ مِنْ مَعْنَىٰ. لم يكن الترف الدنيوي الزائل مبتغاناً، كما أنا لَمْ نَكُنْ فَقْرَاءٍ أَيْضًاً، لكن المستقبل لم يكن يعدني بأكثر من الملل المتشاقل، ملل الحياة اليومية الرتيبة. كنت يومها فتىً في الثامنة من عمري عندما حرك إعلانٌ أذيع في أنحاء مدینتي الرغبة في مخيلتي الصغيرة للخروج والإصغاء إلى أحد الخطباء الشعبيين وهو يذيع إعلانه. كان الخطيب روبرت موفات Robert Moffat، رائد المهام التبشيرية في إفريقيا. وقد تمكنْتُ، بعد إلحاح، من إقناع والدي بالسماح لي بالذهاب لسماع خطبته. معارضه والدي لذهباني لم تكن ناجمة عن أيّ قناعة منها بأن المناسبة غير ملائمة لمن هو في مثل سني، وإنما لاعتقادهما بأن السرير هو المكان الأنسب بالنسبة لطفل مثلي من قاعةٍ مكتظة بالكبار.

مع حلول المساء كنت أتصدر المقعد الأمامي في القاعة؛ ولا زالت صورة الأضواء والخشود والاهتمام الكبير المنصب على المتحدث وأشياء أخرى من هذا القبيل ماثلة في ذاكرتي حتى الآن. لكن الرائد المخضرم، برأسه الأصلع وشعره الطويل ولحيته الرمادية، شدّني إليه أكثر من أي شيء آخر على الإطلاق. وقد لاقت توسّلاته ومناشداته

لإنقاذ شعب الهوتنتوت المسحوّق في جنوب إفريقيا وطلب المتطوعين صدى إيجابياً عند البعض؛ لكن أكثر ما أثارني كفتى صغير كان حكاية الأسد الذي خرج من الغابة وأمسك بالسيد موفات من كتفه فما كان من خادمه المخلص إلا أن انبرى للإجهاز على الوحش، منقذاً حياة سيده. وقبل انتهاء ذلك اللقاء كنت قد عزّمت على أن أصبح مبشرًا عندما أكبر، ثم أبلغت أمي بقراري الصبياني عند عودتي لمتنزلي في ذلك اليوم. مضى زمانٌ لم يعد يشير فيه هذا الموضوع على الإطلاق. وفي مرحلة لاحقة، تجددت اهتماماتي بالبعثات التبشيرية الخارجية بعد سماعي عن شخص قضى سنوات عديدة من حياته في الصين، وعزّمت مرة أخرى على قضاء حياتي بين الوثنين<sup>(1)</sup>.

أمضيت بضع سنوات أجمع التبرعات للمهام التبشيرية الخارجية بكل حماسة ونجاح. معظم عطلات متتصف الأسبوع التي كانت تصادف أيام الأربعاء والسبت كانت أكرّسها للتنقل من منزل لآخر طلباً للتبرعات من المساهمين ووضعها في الصندوق الذي حصلت عليه من إحدى الجمعيات التبشيرية. لم تمنعني الحالات التي كنت أتعرّض خلالها للإحباط والصدّ من المضي قدماً في مهمتي، حيث سرعان ما أصبحت جامع تبرعاتٍ ناجحاً وذائع الصيت، ولطالما أسهمت أحداث ومواقف كالتي سأّي على ذكرها في جعل هذا العمل أكثر إمتاعاً.

ففي عصر يوم حارٌ كنت خارجاً أقوم بمهمة جمع التبرعات، عندما طرقتُ على أحد الأبواب، فإذا بخادم طيب القلب يستفسر عن الطارق. فأجبت قائلاً: «هلا تكرّمت بوضع أي شيء في صندوق التبرعات التبشيري؟». فأجاب الخادم: «هلا تفضلت بالدخول يا أيها الولد الصغير، سوف أخبر سيدتي». دخلت، ثم رافقوني إلى غرفة فارهة حيث جلست أنتظر مجريات الأمور. أخبر الخادم سيدته عنّي، وبعد وقت قصير حضرت سيدة المنزل وسألتني عدداً من الأسئلة أجبتها عنها جميعاً بطريقة مقنعة نالت استحسانها، ما حدا بها إلى قرع الجرس واستدعاء الخادم ثانية حيث طلبت منه

---

(1) إن كان كما يقول، فما الذي أتى به إلى جزيرة العرب مهد النبيّة ودار الإيمان؟ لا ريب أن مهمته لاقت فشلاً ذريعاً، كحال مهمّة زويمر في البصرة والبحرين ومسقط.

إحضار بعض المرطبات من أجلي. وسرعان ما عاد الخادم مع صينية صغيرة مليئة بأنواع البسكويت الفاخر وكعكة وزجاجة نبيذ. سكب الخادم كأساً من النبيذ وعرضها عليّ، لكنني رفضت قبولها بما أنني أحد أعضاء «عصبة الأمل» Band of Hope. إزاء رفضي، استبدل الخمر بعصير الليمون، مع الكعك والبسكويت، محققاً بذلك العدالة الأخلاقية والشرعية التي تتناسب وعمرى.

وبعد تناول المرطبات، عدت إلى عملي والاستمتاع ببرؤية قطعة معدنية تساوي حوالي ستين سنتاً تضاف إلى مجموع التبرعات في الصندوق.

عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، غادرت بيتي متسلحةً بخبرة عمرها ثلاثة سنوات في مهنة الأفران والبقالة. في نهاية تلك الفترة، وفي أثناء إحدى إقاماتي القصيرة في البيت قدر لي أن أنذر نفسي للرب من خلال صبر وأناه وإنقاذ أستاذي القديم في مدرسة الأحد. لم يكن لأيّ توجه آخر سوى هذا التوجه لأن يقنعني بالذهاب للعيش في مدينة لندن العظيمة؛ المكان الذي يعجّ بالمخاطر والإغراءات لخريجي الجامعات الشباب من أبناء الريف. وما إن وصلت إلى المدينة الكبيرة حتى وُفقت بالحصول على عمل جيد في مركز بقالة للبيع بالجملة والمفرق. ثم سرعان ما أصبحت مديرًا للمركز في وقت قصير، وهو أمر رائع بالنسبة لشابٍ في مثل سني.

بوسعني أن أعزّ ونجاحي في تلك الأيام إلى أمرين اثنين: عدم شعوري بالخجل من معتقداتي الدينية، والتزامي الصارم بعهدي بالابتعاد عن المحرمات. كنت بعد انتهاء ساعات العمل في النهار، أكرس ساعات الليل بالإضافة إلى أيام الأحد للقيام بمهام إنسانية في الأحياء الفقيرة ومدارس الأحد أو جمعيات الشباب الملتزם. عملت أمين سرّ تبشيري لإحدى مدارس الأحد الكبرى في لندن ورفعت من مستوى التبرعات التبشيرية في المدرسة من ثمانين دولاراً إلى أكثر من ثلاثة دولارات في السنة. كذلك قمت بالاتصال بجميع المبشرين من الرواد والمخضرمين من كل بقاع الأرض، وكانت طوال تلك الفترة أزداد حماسة خبرة وتمرساً في العمل في مجال التبشير.

طلبت خلال ذلك الوقت من كاهن كنيستي الذي تربطه صلات قربى مع طائفة

الجامعة التبشيرية التي أنتمي إليها مساعدتي للانخراط في مجال التبشير الخارجي. أصغى إلى بهدوء وأناة ثم خاطبني بوقار ورزانة قائلاً: «أخشى أيها الشاب أن تكون أقلّ المؤهلين حظاً لدخول مجال العمل التبشيري، والعديد من الأشياء ليست في صالحك: فأنت تفتقر للخبرة الأكاديمية، ولا تتحدر من عائلة كهنوتية»، وأشياء أخرى كثيرة، كلها صحيحة، ولكنها ليست ضرورية للتبرير بكلمة الله البسيطة في أي مكان. كان.

تخلّيت عن تلك الدراسة، معتقداً بأنه من غير الممكن أن أغادر بلدي لأبشر بكلمة الله في بلاد أخرى؛ لذلك فقد حزرت أمري على أن أبذل ما بوسعني لتقديم خدماتي داخل وطني.

في عام 1888 تزوجت، وبدأت أعمل لحسابي الخاص، ولكنني كرست أو قاتي الإضافية للعمل في شتى مجالات النشاطات الدينية. كان علي مع ذلك أن أستلهم المعنى الحقيقي لكلمات أحد الحكماء الأولين: «لكل إنسان أساليبه وعاداته»؛ وأيضاً:

«كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَانِ لِيْرِي عَبَادَهُ مِنْ آيَاتِهِ الْكَبِيرِيِّ»..

الله ينظر إلى قلب الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، بينما ينظر الإنسان إلى الشكل والمظهر الخارجي، لذلك علينا ألا نترك للناس والقوط مجالاً للتسلل إلى نفوسنا. كنت أعيش هائماً مطمئناً في وطني وناجحاً في عملي عندما سُنحت لي الفرصة على غير انتظار، وتحقق حلمي المنشود الذي طال انتظاره. بعد ثلاث سنوات تقريباً من مقابلتي للكهنوتي الحكيم تغير مجرب حياتي، بشكل جذري. كنت قد دعت إلى المنزل بعد الانتهاء من أداء واجباتي في مدرسة الأحد وكانت منهمكاً في مطالعة إحدى المجالات التبشيرية، عندما لفت انتباهي مقال عن العمل التبشيري بين العرب في أرض مؤاب Moab القديمة، على الجانب الشرقي من نهر الأردن. كان هذا العمل واحداً من الأعمال المحفوفة بالمخاطر والمشاق والصعوبات الكبيرة، وكان يقوم به رجل وزوجته وامرأة شابة. ما أثار اهتمامي أكثر من غيره خلال القراءة كان الكلمات

الأخيرة التي انطوت على نداء لشاب متزوج نشيط وقوى مستعد لتحمل شظف العيش للذهاب للمساعدة في هذا العمل، ما يمكن العاملين هناك منأخذ قسط من الراحة هم بأمس الحاجة إليها. طويت الصحفة؛ ولكن ما أن وضعتها جانباً حتى تراءى لي بأن صوتاً هاتفاً يخاطبني قائلاً: «تلك مهمة سيقت من أجلك».

لم أستطع التخلص من ذاك الهاجس الذي استحوذ على تفكيري، وفي غضون أيام قليلة أرسلت رسالة لأمين سر تلك البعثة التبشيرية الصغيرة التي تتلقى دعمها من عدد قليل من عباد الله المخلصين، الذي بات معظمهم الآن في ذمة الله.

كان أمين سر تلك البعثة التبشيرية الصغيرة ويدعى الكاهن جورج بيرسي Rev. George Piercy أحد رواد المبشرين في الصين. وجاء الرد على رسالتي من خلال زيارة قام بها رئيس هذه البعثة ووُعد بدراستها دراسة مبشرة بالخير. ولكن كانت هنالك صعوبات تقف حائلاً أمام قبولي، - عملٌ مُجزٌ ومتزلٌ مريح، - وهذا يعني التضحية بهذه الأشياء والذهاب وبدء حياة بين العرب في أرض مؤاب Moab النائية والحافة بالمخاطر.

استبعدت هذه المسألة على مدى أربعة أشهر؛ وبعدها استلمت رسالة تقول: إذا لم تغيّر رأيك بذلك الأمر، فإن اللجنة ستنتظر بأمر إرسالنا في هذه المهمة. لقد قبلنا؛ وفي خلال وقت قصير كنت قد تخليت عن منزلي وعملي عن رضا واقتناع، ويتنا مستعددين للذهاب دون قيود أو معوقات. أحقونا بدورة تدريبية عملية لبضعة أشهر في المستشفيات، والتي أثبتت التجارب العديدة التي مررنا بها خلال السنوات الأربع عشرة الماضية بأنها كانت لا تُقدر بثمن. كانت مغادرتي لندن إلى تلك الأرض النائية والغامضة محنّة قاسية بالنسبة لوالدي؛ فقد دفنا مؤخراً اثنين من إخوتي، ورحيلي كان بمثابة تحطيم للحلقة الثالثة من سلسلة العائلة.

لقد عهدوا بي للعناية الإلهية، ولم يأسفوا فقط لتلك التضحية التي كانت تعني لهم مغادرتي لبلادِي، ربما إلى غير رجعة.

سيفهم القارئ الآن بشكل أفضل ماهية الظروف والأسباب التي حَدَت بي لدخول مجال التبشير. إنها كما يقول الرّب: «لا بالحول ولا بالقوة، بل إنها مسألة روحية» وأستطيع الآن أن أقول بكل صدق بعد تلك السنوات العديدة التي انقضت منذ بداية تلك الحياة الجديدة والظروف الكثيرة والمختلفة التي دهمت حياتي، بأنه كان بلا شك نداء الله إلي، ولم أشعر قطّ بالندم أو بالأسف لتلك الخطوة التي اتخذتها أو التضحية التي قمت بها لتمكين أولئك المستضعفين في الأرض من إدراك أن الله لا يرغب في أن يهلك أيّ عبد من عباده، لكنه يرغب في توبة الجميع».

\* \* \*

## الفصل الرابع

### من هم البدو

تحدثنا بإيجاز في الفصل السابق عن الظروف التي قادت الكاتب إلى أقوام يعيش معظمهم في بيوت من الشعر. سيكون من المناسب هنا تعريف القارئ بأولئك الناس الذين سطر الكاتب ما جرى معه من أحداث من خلال حياته بينهم.

يمثل العربي المعاصر تلك الحقيقة المستمرة عبر التاريخ للإسماعيلي القديم. إلى جانب اليهود، لم يسبق لأمة من الأمم أن حظيت بمثل هذه الاستمرارية اللامنقطعة أو التاريخ المثير كهذه الأمة<sup>(١)</sup>. سيكون من غير الملائم في سياق هذا الكتاب محاولة تقديم تقرير علماني مفصل عن تاريخ العرب، فاللتقرير النصي القديم يفي بالغرض.

ليس هناك أدنى شك بأن إسماعيل هو المُنشئ الأول للسلالة أو العرق العربي العظيم، فهناك أربعة وعود تتعلق بذرية إبراهيم وهاجر Hagar نراها تتحقق أمام أعيننا هذه الأيام.

---

(١) هذا على الورق فقط، نعم.. التّوراة التي بين أيدي الناس اليوم كتاب مليء بالأخبار المثيرة والشاعرية، ولكن كبار خبراء النقد النصي في عصرنا الحاضر أجمعوا على أنّ ما يرد فيها تم تأليفه وجمعه وترتيبه في القرن الخامس قبل الميلاد على يد عزرا الكاتب في برسبيولييس عاصمة بلاط الأخميميين، وكان عزرا موظفاً في مكتبة القصر ويبدو أنه امتاز بموهبة أدبية رفيعة وخیال خصب جداً.



### عرب مؤاب سكان الخيام

الرجال الثلاثة الذين كانوا برفقة المستر فورد عندما نبهتهم الجياد بذلك إلى اقتراب اللصوص. إلى الجهة اليسرى الرجل «الصديق الوفي» الذي رافق الكاتب في العديد من رحلاته في بلاد العرب. هؤلاء الرجال يتبعون لنفس القبيلة وينزلون بشكل عام شرق الكرك في مؤاب.

وهذه الوعود هي كما يلي:

إلى هاجر (الجزء 10 الفصل 16 سفر التكوين)

«سأكثرك ذريتك أضعافاً مضاعفة بحيث يتذرع إحصاؤهم لكثرتهم».

إلى إبراهيم (الجزء 20 الفصل 17 سفر التكوين) (Gen. xvii.20)

«أما بالنسبة لإسماعيل، فها قد جعلته مباركاً وسأجعله ولوداً وأكثرك له من ذريته بلا حدود... وسأجعل منه أمة عظيمة».

إلى إبراهيم (الجزء 13 الفصل 21 سفر التكوين) (Gen.xxi.13)

«من ابن الجارية سأنشئ أمة، لأنه من ذريتك».

إلى هاجر (الجزء 18 الفصل 21 سفر التكوين) (Gen.xxi.18)

«قم وارفع الفتى وخذ بيده، لأنني سأجعل منه أمة عظيمة».

ثمّة ثلاثة عشر مليون شخص يفخرون بانتسابهم لإبراهيم وإسماعيل ويمثلون تحقق هذه الوعود الأربع.

«سوف يحلّ دائمًا حيّثما حلّ جميع إخوانه» (الجزء 12 الفصل 16 سفر التكوين) Gen.xvi.12 يجد تجسيده في ذلك الوجود غير المنقطع لأبناء إسماعيل كامة في أرضهم. لقد جَهدَ الغزاة الواحد تلو الآخر دون جدوى لاحتلال أرض العَرب، ولكنهم فشلوا في تحقيق أهدافهم. فإسماعيل، الذي يمثل العَرب جميعاً، مقيم فوق هذه الأرض قبل جميع الأمم في هذا الزمان، ولا يوجد أيّ جزء من أرضه تحت سيطرة القوى المسيحية في هذا العالم، رغم أن حماية بعض النقاط الموجودة على الشريط الساحلي معهود بها لبعض الزعماء من قبل بريطانيا العظمى أو فرنسا.

لم تُستبدل أسماء الأبناء الاثني عشر لإسماعيل بمجموعها والمدونة في الأجزاء 13 و 14 و 15 من الفصل 25 من سفر التكوين (Genesis xxv.13.14.15) بأسماء أكثر حداة. فالعديد من الأسماء، مع بعض الفروقات الطفيفة في اللفظ أو النقل،

ما زالت سائدة في جزيرة العرب. فالقرى والبلدات وحتى العائلات لا زالت تحمل بعض الأسماء كما هي واردة بالضبط في المرجع أعلاه.

ليس هنالك أدنى شك بأن جزيرة العرب كانت على الدوام الموطن الأصلي للعرب. قبل أن يستحوذ بنو إسرائيل على الأرض الموعودة بزمن بعيد، قام أحفاد إبراهيم من ذرية إسماعيل بامتلاك أرضهم. «لقد استوطنوا الأرض الممتدة من حويلة Havilah إلى شور Shur قبل الوصول إلى مصر» (الجزء 18 من الفصل 25 من سفر التكوين) Gen.xxv.18. وهذا دليل كافٍ على أنهم قطنوا جزيرة العرب. وبعد آلاف السنين تحدث عن أرضهم نبي الله إشعيا Isaiah على أنها «صحراء البحر» (الجزء 1 من الفصل 21) I.xxi.

تقسيم الأمم: وسرعان ما انقسم العرب إلى فئتين: الحضر المستوطنون والبدو الرحّل. تتحدث النسخة المنقحة من سفر التكوين في الجزء 16 من الفصل 25 عن قرى ومنازل لإسماعيل. وبعد ذلك بمئات السنين نقرأ في الجزء 11 من الفصل 42 من سفر إشعيا (Isaiah xlii.11) عن منازل يسكنها أبناء قيدار Kedar ولاحقاً يتحدث إرميا Jeremiah مرة أخرى عن الخيام والستائر وقطuan الماشية والأواني وجمال قيدار Kedar، ويشير أيضاً إلى هؤلاء الناس كأمة: «مساكن ثرية من دون عناية، حيث لا بوابات ولا حانات، فهم يقطنون لوحدهم» (الجزء 31-28 من الفصل 49 من سفر إرميا) Jer.Xlix-31.28، فالبدو هم جزء من الأمة العربية العظيمة المشار إليها أعلاه.

كل بدوي هو عربي، ولكن ليس كل عربي بدويًا. فالبدوي لا يحرث ولا يزرع، بل يربّي قطuan الماعز والأغنام والإبل ويسكن البراري أو الصحراء ويحصل على قوته من قرى وبلدات جزيرة العرب، حيث يعطيهم الماشية مقابل التمور والحبوب والقليل من ضروريات الحياة. يقيم البدوي أو الأعرابي في خيمة سوداء، وهي حرفاً «بيت الشعر»، وسميت بهذا الاسم لكونها مصنوعة كلياً من شعر الماعز المجدول والمغزول والمحاك من قبل النساء في تلك البلاد. فعبارة: «سود كخيام قيدار» Kedar

(S.Sol. i. 5 )) ليست إشارةً من صنع الخيال، وإنما مقوله حقيقة، فلون الخيام أسود لأنها تصنع من شعر الماعز العربي. وقیدار Kedar الذي هو الابن الثاني لإسماعيل، (الجزء 13 من الفصل 25 من سفر التكوين) Gen.xxv.13 كان على الأرجح مؤسس الفتة المرتحلة للسلالة العربية المسماة الآن بالبدو.

أما نبیوت Nebaioth الذي هو الابن الأكبر لإسماعيل، (الجزء 13 من الفصل 25 من سفر التكوين) (gen.xxv.13) فقد استقر في كهوف ومعاور جبال جزيرة العرب، وفيما بعد، على وفق ما يقوله تاريخهم، بنى المساكن، التي آلت في النهاية إلى تجمّعات سكنية مستقرة<sup>(1)</sup>.

ينظر العربي المستوطن بفوقية وازدراه إلى البدوي، معتبراً إياه أدنى منه منزلة بكثير من كل النواحي. وإذا ما ناديت ساكن القرى أو البلدة بالبدوي فتكون بذلك قد أثرت حفيظته. ومن جهة أخرى يشفق ساكن الصحراء على الناس المستوطنين لأنهم محرومون من التمتع بالحرية والحياة الصحية التي يتمتع بها أبناء الصحراء.

والفتان كلتاهما على أية حال تمتلك الكثير من الصفات المشتركة: فضيافتهم الرائعة يُضرب بها المثل؛ وأيضاً على صعيد الدين، فهم يعتصمون بجبل واحد، على الرغم من أن سكان المدينة صارمون في عاداتهم الدينية أكثر من أبناء البدو المتحررين من القيود. فأسلوب اللباس يتفاوت قليلاً، حيث ترى النساء في القرى والبلدات لا يختلطن بشكل عام بالمجتمع الذكوري، بينما تخرج نساء «بيوت الشعر» حاسرات الرأس ويتمنعن بحرفيتهن الخاصة.

---

(1) هذا ليس أبداً تاريخ العرب، بل هو مجرد رواية التّوراة. بل إنّ تاريخ العرق العربي في موطنـه جزيرة العرب يؤلف على الأقلـ الـ 30 ألف سنة الغابرة من تاريخ العرق البشري Homo Sapiens الذي انطلق من أفريقيا إلى الجزيرة ومنها إلى باقي أقطار العالم. ومن الجزيرة بالذات انطلقت الموجات البشرية التي أنتجت نوى الحضارة والكتابة المسمارية الأولى (في سومر 3200 ق.م) والأبجدية المقطعيـة الأولى (في جبيل 1200 ق.م)، وما تبع ذلك من زراعة وصناعة وفكر وأدب وشعر ودين.

لم يكن للعرب كأمة على مدار تاريخهم الكثير من المحطات بارزة على صعيد الإنجازات الإنجيلية أو العلمانية، لكن بعض الإشارات والتلميحات إليهم من وقت لآخر تذكرنا بقوة بوجودهم المستمر. فقد بيع يوسف إلى جماعة من الإسماعيليين أخذته معها إلى مصر. تخيل أيها القارئ عملية الانقضاض على خدم أيوب وذبحهم من الوريد إلى الوريد ثم سلب ونهب الشيران والحمير.

من كان هؤلاء الغزاة؟ تلك الفتة من بنى إسماعيل المعروفة بالسبعين Sabeans. ومن أين أتت ملكة سبا Sheba لتزور سليمان Solomon؟ من بلاد العرب.

ولعل الرجال الذين قدموا من الشرق سعياً وراء الطفل المخلص infant Savior يتتمون على الأغلب إلى بدو جزيرة العرب<sup>(1)</sup>. يقدم العهد الجديد دليلاً على وجود العرب، حيث أنهم كانوا موجودين في القدس في أثناء عيد العنصرة Pentecost (عيد ذكرى نزول الشريعة في سيناء واحتفال عيد الحصاد عند اليهود) (Act,ii.II).

في مرحلة لاحقة، يدفع التاريخ العلماني بالعرب مؤقتاً إلى دائرة الضوء، ليعودوا بعدها إلى الانعزال مرة أخرى. لم تكن طبيعة تجارب وخبرات العرب لتساعدهم في تحسين أحوالهم من النواحي الاجتماعية والدينية أو التجارية. منذ تلك اللحظة التي أبعد فيها إسماعيل وأمه من خيمة إبراهيم «ما انفكَّ العرب يقفون في وجه كل إنسان، وكل إنسان يقف في وجههم». يُعدّ العرب من الناحية البيولوجية عرقاً نقياً، ويمتازون بالهيافة والرشاقة والقدرة على تحمل المشاق والحرمان؛ وهم أشداء على الأعداء رحماء بينهم، وأنت بمجرد أن تكسب ثقة أحدهم، تكون قد كسبته صديقاً إلى الأبد<sup>(2)</sup>.

ليس للعرب أية علاقة بالمشروبات الكحولية، ولا يتهاونون أبداً في إقامة الحد على المدانين بجرائم الشرف والعفة. وهم مولعون بوفرة الذرية، لا سيما البنين

(1) هذه أيضاً إشكالية غريبة من المؤلف، فإنجل متى يروي أنهم من الم Gors Magi وعلى ذلك فالمفتوح عدّهم من فارس أو ميديا.

(2) نعم، هذا كلام طيب وصحيح منصف، والحق يقال.

الذكور منهم، فقدوم الابن الذكر إلى العائلة يؤدي إلى تغيير اسم الأب، حيث يُنادى منذئذٍ باسم «أبو فلان» مهما كان اسم ابنته البكر.

ليس لدى القسم الأكبر من البدو أيّ شكل من أشكال الحكومة، فكل قبيلة وكل عائلة لها شيخها أو زعيمها الذي يفزعون إليه وقت الشدّة والخطر والخصومة طلباً للحماية والنصح والمشورة، وقراره يكون حاسماً في أغلب الأحيان. والمنصب عند البدو ليس وراثياً، ولكنه عادة ما يبقى في نفس إطار العائلة، والدافع الوحيد لاختيار الشيخ أو الزعيم من عائلة أخرى هو أن يكون ابن الزعيم الراحل عاجزاً عن إدارة شؤون قبيلته.

يمكن للأحداث والتجارب المدونة في هذا الكتاب أن تحمل بعض القراء على الاستنتاج بأن العرب هم جماعة انطوانية وخطرة للغاية يستحيل التعايش معها. لكنني بعد سنوات عديدة من مخالطتهم، أنا على يقين من أن العصبية المتمادية والجهل المتواصل المرتبط بقوة بالخرافات والأساطير، هو السبب وراء الكثير مما صادفته في ترالي. أعطِ البدوي فرصة، وسوف تحوز على احترامه وثقته وتكسبه صديقاً مخلصاً مدى الحياة. منذ ذلك اليوم الذي أُلقي فيه إسماعيل إلى جوف الصحراء، بدا وكأن الجميع قد ناصبه العداء، ولكن فجراً جديداً أكثر إشراقاً بدأ يتسامي بالنسبة له.





### شيخ عربي

الشيخ أو الزعيم هو الذي يشرف على شؤون القبيلة أو القرية أو البلدة أو العشيرة. وتحال إليه التزاعات القبلية للبت بشأنها. وهو الذي يأمر بنقل المضارب و اختيار موقع جديد لنصب الخيام. وهذا الشيخ المسيحي هو زعيم مادبا و صديق مقرب لمؤلف هذا الكاتب.

## الفصل الخامس

### سلسلة جديدة من المحن

كان قد ورثنا إلى الكِرَك سبباً لسلسلة من المنعطفات على مدى عدة أيام، فالطلبات التعجيزية للزعماء الجشعين سببت لنا الكثير من المضايقات. أما الحكومة التركية فلم تكن لديها السلطة والنفوذ في تلك المنطقة، ولم يكن لدينا من نعول عليه لطلب المساعدة. حتى الشيخ الحاكم لم يكن قادرًا على ضبط أولاده الكثُر أو الآخرين ممن يعذّبون أنفسهم من ذوي الشأن.

وفي الوقت المحدّد قاموا بإحضار حقائبنا، لكننا اكتشفنا بأن بعض الحقائب كانت قد تعرضت للعبث بها والعديد من الأشياء قد فقدت. اتخذنا مكان إقامتنا في غرفة مساحتها حوالي عشرين قدمًا مربعاً، نصفها تحت الأرض؛ ولم يكن هناك لا نافذة ولا مدفع، والمنفذ الوحيد كان الباب. أما الموقد فكان في وسط الأرض الطينية، وكان لا بد للدخان أن يخرج قدر المستطاع، وإذا ما كانت هنالك ريح معاكسة تحول دون خروج الدخان من الباب، فقد كنا نخرج نحن عوضاً عنه، بأعينٍ حمراء دامعة ورئاتٍ عابقة بالدخان.

لم يكن لدينا أية حيلة في ضد المتطفلين والفضوليين الكثُر ممّن كانوا يتواجدون لاستطلاع حقيقة هؤلاء القادمين الجدد، والطريقة الوحيدة لنخلو بأنفسنا كانت إغلاق الباب وقفله، والانزواء في ما يشبه العتمة.

وجدنا هنالك مدرسة للتلاميذ الصغار كانت تحت إدارة من كانوا قبلنا. والعديد

من الصبية كانوا يتحدثون الإنكليزية بشكل جيد، وأصبحوا على درجة كبيرة من الرقي والتحضر. عُهد إلي بأحد هؤلاء الصبية ليعمل لدى بصفة مترجم؛ وقد تمكنت بمساعدته واجتهاده ومواظبي من اكتساب معرفة عملية باللغة العربية. كان وقتها في خلال الأسابيع القليلة الأولى مقسماً بين عيادة المرضى الذين كانوا يتحلقون عند بابي، والقيام ببعض الإصلاحات ليبيتنا البدائية. فصنعت الطاولات والكراسي والخزائن من صناديق الأمتعة، وأحمد الله أنني كنت على دراية بكيفية استخدام بعض الأدوات الحرفية. كان العرب معججين بما أقوم به، وكانوا يمضون الساعات الطوال في مراقبتي. وشيئاً فشيئاً أصبحت بالنسبة لهم المعلم الذي يجيد كل المهن وكانوا يكثّنون لي كل الاحترام والتقدير.

إحدى تجاربي السابقة منحتني تقديرًا مميزاً بين الرجال الذين باتوا يتجلبونني كشخص يُرعب جانبهم. كنت مارأً في إحدى أزقة مؤاب الضيقة عندما تناهى إلى سمعي بعض الصرخات. استدررت لأستعين الأمر، ثم ولدت إلى داخل دار مضاء بشكل خافت، حيث رأيت رجلاً يمسك به أربعة أو خمسة أشخاص في محاولة منهم لتشييه أرضًا، وكان أحدهم يعالج أمراً ما داخل فم ذلك الشخص. عند قدومي عليهم توقف الرجال لبرهة؛ وبعد استفساري عما كانوا يفعلونه، أخبروني بأن الرجل الممدّد على الأرض كان يعاني من ألم مبرح في أسنانه ونصحه أحدهم بالتوجه إلى الحداد لاقتلاع السن المنchorة. وعندما سأله لماذا كان يصرخ على هذا النحو، أجاب «لأن الرجل الذي كان يمسك بالكماشة أطبق على العديد من أسنانه وجزء من لسانه وبأد بالشد». اقتربت عليه أن أقدم له خدمة أفضل من الحداد؛ فغضب الحداد من كلامي لأن ذلك يعني خسارته لبعض القمح الذي من المفترض أن يُدفع له لقاء ذلك.

نجح اقتراحي، ويتم الرجل المتألم شطر داري ينتظر عودتي. وعندما وصلت وجدت حشدًا كبيراً من المنتظرین الذين قدموا ليروا ماذا يمكن فعله للرجل المتألم من سنہ. أمسكت بالمبضع الذي تفحصه جميع الحاضرين. وكان المريض خائفاً خشية أن أخفق في إنجاز ما كان الحداد بصدق إنجازه. طلب مني إثبات أن بإمكانني

اقتلاع السن المعطوبة؟ فعرضت عليه زجاجة فيها بعض الأسنان، وأكدهت له أن مافعلته الآخرين بإمكانني عمله له. استسلم لي، وخلال دقائق قليلة كان الألم قد زال.

أمسك بالسن المقلوعة وانطلق بها خارج الغرفة، ثم قذف بها ناحية الشمس مخاطبًا إياها: «يا شمس، خذى سنّ الحمار وأعطيك سنّ الغزال». ثم التفت إلى طالبًا مني تركيب سن جديدة مكان السن المقلوعة. أخبرته أن من المستحبيل أن أفعل ذلك، فانطلق ممتناً وخائباً في آن. ذاع صيتي بين الناس، وسرعان ما باتت أجري من العمليات الجراحية يقدر ما أستطيع، الأمر الذي عزّ من ثقة الناس بي، وبات أولئك الذين كانوا يناصبوني العداء من أعزّ أصدقائي. كانوا يأتونني بكل ما يخطر على البال لإصلاحه: الأحذية والأواني الخشبية وسروج الدواب والصناديق، حيث كنت أصلحها لهم بقدر ما أوتيت من قدرة ومهارة.

في فترة الظهيرة كنت أعكف على تعليم الصبية اللغة الإنكليزية لمدة ساعة؛ وأعتقد بأنني تعلمتهم منهم العربية أكثر مما تعلموا مني الإنكليزية، ولكن تلك الساعة التي كنا نمضيها معاً كانت تعود بالمنفعة المتبادلة على الطرفين.

كنت في أغلب الأحيان أذهب إلى بعض مضارب البدو لعيادة بعض المرضى أو المصايبين في القتال. ولا شك بأن إحدى تجارب الأولى في أحد مضارب البدو ستكون محطة اهتمام القارئ. سمعنا بأن قتالاً ضارياً كان قد نشب بين بعض أبناء الكرك من العرب وأبناء قبيلة المجاورة، وهي من القبائل المشهورة بشراستها وجسارتها. كانت حصيلة هذا الاشتباك ثمانية قتلى، جيء بهم في اليوم التالي إلى المدينة ليدفنوا فيها. وسمعنا بأن هنالك العديد من الجرحى، وأن جراح ثلاثة منهم كانت باللغة الخطورة.

وفي اليوم التالي حضر رجلان إلى دارنا يسألون إذا كان بإمكانني إعطاؤهم دواءً ليأخذوه إلى الجرحى المستلقين في أحد المخيمات بعيداً في السهول. وفي الوقت نفسه حضر رجل ومعه رسالة تقول بأن الشيخ الموجود في المدينة يطلب رؤيتي على الفور. ذهبت إليه بصحبة مترجمي الصغير، فوجدته مع العديد من أبنائه والزعماء الأدنى مرتبة جالسين يعقدون اجتماعاً على سطح أحد الدور. صافحتهم فرداً فرداً

ثم أخذت مكانني بجانب الزعيم. المرة الأخيرة التي جمعتني بهم في مجلسهم كانت في ظروف مختلفة. كنت آنذاك أسيرهم في بيت الشعر، ولكنني اليوم ضيفهم، بدعوة منهم. خاطبني الشيخ الكبير قائلاً: «أتمنى عليك أن تذهب إلى تلك المضارب لمداواة الجرحى». كان المكان يبعد حوالي خمس ساعات ركوبًا عن المدينة، ولكنهم أخبروني بأنه قريب جداً. قال لي الزعيم بأنه يجب علي أن أذهب بصحبة من يحميني من التدخلات والتطفلات، وقال بأنه سيقدم لي حصاناً لركوبه. أخبرته بأنني سأذهب، وسأكون مستعداً في غضون نصف ساعة. كان على غلامي محمد أن يرافقني لمهام الترجمة.

وبعد تناول بعض الطعام، حيث أن المسفر فوردر كانت قد أعددت لي وجبة سريعة بينما كنت أحزم لوازمي من العقاقير والأدوات والتي قدرتُ بأنني سأحتاج إليها أكثر من غيرها، يممت شطر المدينة.

في غضون دقائق أحضروا لي حصاناً وبغالاً لغلامي، حيث انطلقتنا برفقة رجلين تبدو عليهما ملامح القسوة والخشونة، ونحن عازمون تماماً على العودة في صباح اليوم التالي. كان الطريق طويلاً ومرهقاً جداً فوق التلال وأعلى الجبال وأسفل الوادي العميقة وعبر سهول لا نهاية لها، إلى أن وصلنا قبيل المغيب إلى مضارب خيام تضم حوالي تسعين خيمةاً أسفل الوادي. حال ترجلي عن حصاني تنفست الصعداء، حيث بات بوسعي أن أمد ساقَيْ، ولكنني كنت متلهفاً لأعمل ما أستطيع فعله لمداواة هؤلاء الجرحى وتسكين آلامهم قبل حلول الظلام. سألنا عن مكانهم، وسائلنا أيضاً عن الرجل ذي الجراح الأكثر خطورة.

أخذت إلى خيمة كبيرة بداخلها رجل ممدّد مصاب بتسع جراح من بنادق ورماح وسيوف وخناجر، وكان واضحاً بالنسبة لي بأنني أحتاج إلى خبرة جراح كامل الأهلية للقيام بال مهمة التي ألقيت على عاتقي. وأثناء معاينتي للرجل ومشاهدتي للجراح الناجمة عن ضربات السيوف البالغ طول بعضها حوالي ستة إنشات، وإصابات الطلقات الناريه، ارتعشتُ وارتجمفت مثل ورقة الشجر، ولكنني، مستلهماً الرشاد

والعزيمة من رب السموات والأرض كي يعينني على أداء هذه المهمة، شرعت في تعقيم وتطهير وضميد الجراح الواحد تلو الآخر، إلى أن باتت حالة الرجل المسكين أفضل قليلاً من ذي قبل. وقد كنت طوال ذلك الوقت محاطاً بسبعين أو ثمانين رجلاً وأمراة وهم ينظرون بدهشة للطريقة التي كنت أرتق فيها الجروح المفتوحة.

ثم طلبت رؤية الرجل التالي؛ وعلى الرغم من حلول الظلام، فقد أخبرتهم بأنني أرغب في معالجة الرجال الثلاثة ذوي الجراح الأكثر خطورة. ولكنهم سرعان ما أخبروني بوجود اثنين وعشرين رجلاً على شاكلة الرجل الذي عالجهُه لتوه. لذلك، وبعد أن بذلت ما بوسعي لمداواة ثلاثة منهم، عدت إلى مريضي الأول وطلبت بعض الطعام. قالوا لي بأنه يتوجب علي أن أبكي في هذه الخيمة، ومن ثم باشروا في تحضير بعض الخبز من أجلني ومن أجل الصبي، وهو عبارة عن أرغفة كبيرة رقيقة لذيدة جداً. وقدّموا لنا ثلاثة بيضات لتناولها مع الخبز. طلبت ماً لعلي أستطيع أن أصنع بعض الشاي؛ لكن ما أحضروه لي كان أقرب إلى الوحل منه إلى الماء، ولم أتمكن من استخدامه. ثم حضر رجل ومعه بعض حليب الغنم، فشربناه بتلذذ، وكانت تلك وجبة عشاءنا.

بينما كنا متحلقين حول النار طلبت من غلامي أن يسألهم عما إذا كان بإمكاننا أن نقرأ لهم شيئاً من كتاب الله، فوافق البعض منهم على اقتراحي. وحيث أنه كان بحوزتي النسخة العربية لسفر التثنية وسفر متى، فقد طلبت من محمد أن يقرأ عليهم الوصايا العشر، وتممت أنا بعض الكلمات لمشاركتهم في ذلك. بعضهم كان مصغياً، أما البقية فكانوا يضحكون ويهرؤون منا.

كانت الخيمة تضم الخليط الاعتيادي من العرب، وكان حريراً بالزوار أن يتصرفوا وكأنهم من أهل البيت وسط كل هذا الحشد، فالنزلاء في خيمتنا كانوا خليطاً من رجال ونساء وأطفال وמאיز وجداده وحملان وكلاب وجراء وحمارين وثلاث بقرات وعجل واحد وحصانين وبغل وأعداد لا حصر لها من الدجاج.

لعلك ستتخمن الآن أنه وفي خضم كل هذه الموضوعات المنبعثة عن هذا الخليط

الغريب العجيب من الأشياء، لم أولِّ كثيرون اهتمام لهذا الموقف من الاستخفاف والسخرية، وهنالك خارج الخيمة المئات من رؤوس الماعز والخراف تسهم في إضفاء المزيد على ذلك الصخب والضجيج في الداخل. وحوالي الساعة الثامنة سألني صاحب الخيمة إن كان لدى رغبة في النوم؛ وبما أني كنت في حالة يرثى لها من التعب والإعياء، فقد أجبته بـ«نعم». وهكذا مدّ لينا بساطاً رقيقاً فوق بعض الأوراق والأعشاب الجافة وطلب إلى النوم فوقه. وبعد أن تلوّت بعض الصلوات الصامتة لله كي يحمينا من كل مكروره، استلقينا أنا ومحمّد من دون غطاء حيث حاولنا أن نخلد للنوم، لكن آهات وسعال الرجل المريض والقهقهات والصيحات القوية والصاخبة الصادرة عن الرجال والنساء والحيوانات المختلفة الموجودة في الداخل والخارج، جعلت النوم بالنسبة لنا ضرباً من المستحيل. لكنني في النهاية أسلست قيادي مرغماً لنوم عميق غافلاً عما يجري من حولي، إلى أن استفاقت فجأة على شخص يهزّني محاولاً إيقاظي.

فتحت عيني لأرى الرجل المصاب مستعيناً في وقوفه على عدة رجال، وعندما أيقظت مترجمي لاستيضاح الأمر تبين بأن الرجل كان يشعر بالألم وأنه بحاجة إلى بعض المسكنات.

كانوا يعتقدون أن من الأفضل له أن يمشي قليلاً. أعدته إلى سريره بسرعة، وأفهمتهم بأنهم سوف يقتلونه بهذه الطريقة، ثم أعطيته جرعة منوم. ومرة أخرى استلقيت وحاولت أن أخلد للنوم، لكن الرياح الباردة كانت تتصف بقوة كبيرة إلى درجة أنها كانت تحمل معها الخيمة. وعندما شعرت أخيراً برغبة في النوم أحسست باهتزازات ورعشات تقض مضجعي. نهضت لأستطلع الأمر، فوجدت بأن المطر كان يهطل على شكل سيول منهمرة وبدأ يتسرّب إلي، ف تكونت بركة في نفس المكان الذي كنت راقداً فيه. أمضيت الهرم الأخير من الليل قابعاً قرب النار مصغيًا لصوت الريح والمطر؛ وحالماً بالدفء والأمان في دارنا المتواضع في الكرك.

وأخيراً بزغ نور النهار، ولكن دون أية تطورات ذات شأن. وبعد أن تناولنا بعضًا من

الخبز وشربنا بعضاً من الحليب، أفصحت لهم عن رغبتي بالذهاب لعيادة الجرحي الآخرين. لا أجرؤ على محاولة وصف الحالة المزرية جداً التي كان عليها هؤلاء المساكين؛ حيث أن كل واحد منهم كان بحاجة إلى عناية ورعاية أفضل مستشفيات العالم. ومع ذلك، فقد قيّضني الله لمساعدتهم. كنت أطهّر وأرتق وأضمد جراح الجميع برفق؛ والبعض منهم كان ممتناً لي جداً إلى درجة أنه قام بتقبيلي مرات ومرات، وقدّمت لي بعض الأمهات والزوجات الزبيب والخوخ المجفف وأشياء أخرى للأكل.

مع انتهاءي من عملي توقف هطول المطر وطلبت منهم أن يعيدوني إلى مدینتي كما هو متفق عليه، ولكن أحداً لم يحرّك ساكناً للذهاب معنا، فقلت لهم بأنني سأنطلق سيراً على الأقدام. قالوا جميعهم بأنه يتوجب علي البقاء حتى يتحسن حال الجرحي، وأنهم لن يدعوني أرحل عن الخيام. أكدوا لي بأن شيخنا هو من أخبرهم بوجوب بقائي لعشرة أيام؛ لكنها كانت كذبة، وأكددت لهم بأنها كذلك. وبعد ذلك عاود المطر هطوله الغزير مرة أخرى وانطلقنا أنا وفتاي صوب التلة، في طريقنا نحو الكرك سيراً على الأقدام. وعندما وصلنا أعلى التلة كان هناك حوالي عشرين رجالاً قد خرجوا في إثربنا، حيث أخذوا الصبي مني؛ وبعد ذلك أثبتت أحد هؤلاء الرجال بأنه صديق مخلص حين خلع عباءته وألقاها على ليقيني وطأة المطر، ثم أقدم ثلاثة أو أربعة رجال منهم على حملي معهم عائدين بي إلى الخيام، حيث وضعوني في الخيمة التي كنت قد نمت فيها الليلة الماضية.

كانت هذه الخيمة عبارة عن ملجاً بائس، وقد بدا للرجل الذي ألبستني عباءته بأنني لم أكن على ما يرام، لذلك أخذني إلى تلة أخرى، حيث قدمنا على أكثر من اثنتي عشرة خيمة في مضرب الخيام التي كان يسكن في إحداها. وهنا مدّ لي الكثير من البسط لاستلقي عليها، ثم طلب من امرأته أن تضرم النار لتدفئتي وتجفيف ملابسي المبللة. وبعد ذلك سألني ماذا أرغب من أنواع الطعام؛ هل يذبحون خروفًا أم عنزة أم حملًا أم جديًا؟ كان مستعداً لأن يطهو لي أي شيء يخطر على بالي. فطلبت دجاجة وقليلًا

من الملح والبصل فأحضروها لي بسرعة. نظرت الدجاجة وطهوتها على طريقتي الخاصة بدون أي تدخل من أبناء المنطقة. أعدوا لي أيضاً بعض الخبز، وتكتفت أنا ومحمد بإعداد وجبة محترمة تليق بهم، قدّم لنا بعدها أصدقاءنا العرب القهوة مع السكر والحليب. اكتشفنا لاحقاً بأن هذا الرجل سبق له أن عاش في دمشق وبيروت وأنه اكتسب بعضاً من عادات الأوروبيين وتصرفاتهم.

وبعد أن انتهينا من تناول الطعام قمنا بعيادة المرضى ذوي الحالات الأكثر سوءاً وطيننا خاطرهم. تبيّنت في أثناء عيادي لأحدهم أن أنه كان مجذوعاً بالكامل، وقد عمّدت أمّه إلى إحضار العضو المجدوع كي أعيد خياطته مرة أخرى، فلم أستطع الامتنال لطلبهما، على الرغم من توسلاتها. كان الليل قد أرخى سدوله وكانت قرب النار مستمتعاً غاية الاستمتاع بالدفء والراحة. سألتهم إن كان بوسعي أن أتلّو عليهم شيئاً من كتاب الله، فوافقو؟ ثم شرع غلامي بالقراءة حيث شرحت لهم الوصايا العشر وبعضاً من الآيات من وصايا القديس متى، فكانوا على غاية من الاهتمام بما يُتلى عليهم. وبعدها بدؤوا يسألونني عن مواضيع شتى: كم من المال توجّب عليّ أن أدفع مهراً لزوجتي؟ أين سيفي وخنجرني وبينديتي ورمحي؟ فأجبت عن السؤال الأول بأن «الإنكليز لا يشرون نساءهم بالمال» وعن الأسئلة الأخرى، قلت لهم بأن الله أقوى من الإنسان وهو الموكّل بحمايتي.

لم يتمكّنا من استيعاب ذلك، وعرض عليّ أحدّهم أن يعطيّني مسدسه. ثم تالت الأسئلة عن الملكة؛ وسألوني «فيما إذا كان الناس في بلدي يعيشون في مثل هذه الخيام الرائعة»، فأخبرتهم بأننا نعيش في بيت كبيرة وجميلة، الأمر الذي استحوذ على اهتمامهم.

بدأ النعاس في وقت متأخر من الليل يدغدغ أجفاني، فأخلدت للنوم إلى بزوغ الفجر. وبعد أن أفطرنا على بعض الخبز والحليب، تهيأنا للتحرك نحو الكرك. بحثت عن صديقي العربي، لكنه كان قد مضى بعيداً مع القطيع. بعد ذلك حضر رجل حسن الملبس وسأل إن كان بإمكانني أن أذهب معه لعيادة شقيقه وتطبيب جروحه، وهو

سيتكفل بأمر ذهابنا إلى الكرك، فوافقت، ثم نفذت ما طلبه مني. وبعدها بحثت عن الرجل، لكنني لم أثر له على أثر. ثلاث مرات لقيت فيها ذات المعاملة. لذلك فقد قررت الرحيل، حيث أن الطقس كان يعد يوم جميل. مرة أخرى صعدنا قمة التلة وخرج في إثنا حوالى ثلاثين أوأربعين رجلاً يصيرون علينا طالبين منا العودة، ثم حاولوا إرغامنا على ذلك. وفي غمرة الهرج والمرج ظهر صديقي العربي على غير انتظار، وأعتقد بأن الله قد أرسله لي في تلك اللحظة، حيث عمد وبسرعة إلى تفريغ الذئاب الشرسة عنا وقال بأنه سيتولى إيصالنا إلى المدينة. وحيث أنه كان قد استعاد للتو عافيته من هجمة حمي كانت قد ألمنت به من فترة وجيزة، فقد قال بأن عليه أن يعود إلى الخيام لإحضار حصانه، تاركاً عباءته وغليونه وجزمه ولباس رأسه كضمان لعودته، ثم مضى.

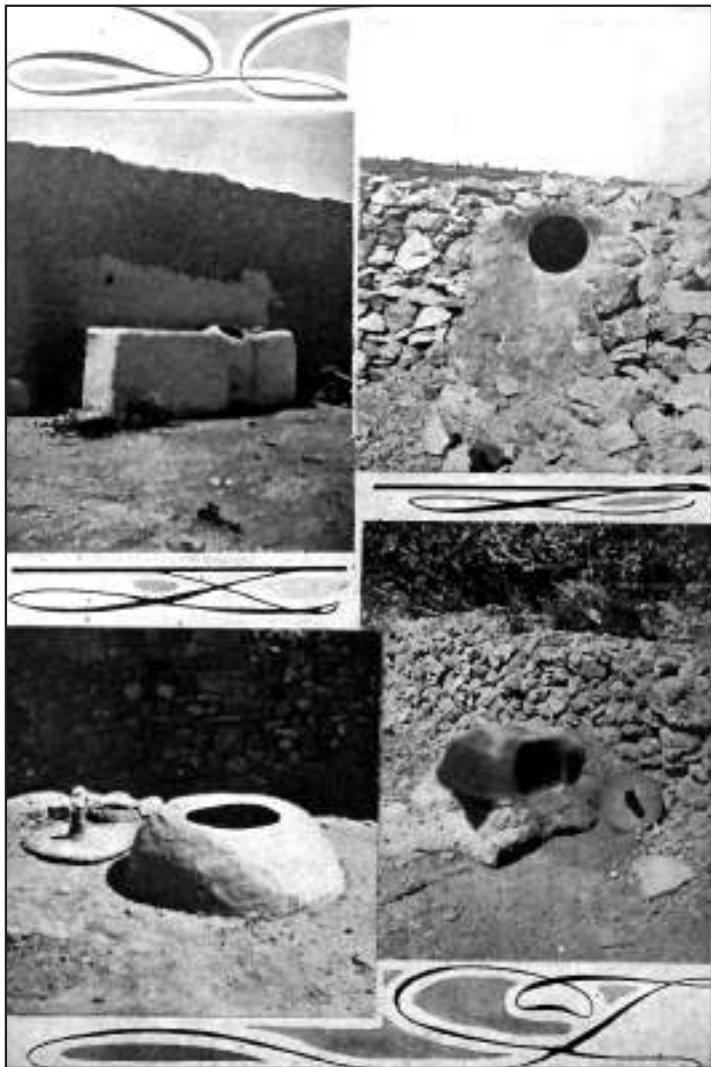
وفي غضون ربع ساعة عاد إلينا ومن ثم انطلقنا إلى الكرك. وبعد حوالى ثلاث ساعات من السير فوق الأرض المحروقة والعشب الناعم وصلنا إلى موقع يشرف على القلعة القديمة في الكرك، ولكن ما زال أمامنا ساعتان لنصلها. قال غلامي: «انظر أيها المستر فوردر، إنها القلعة، أنا في غاية الابتهاج!» وأنما كذلك كنت في غاية الابتهاج، ثم شرعت أترنّم بخشوع حقيقي بالنشيد الجميل الذي يقول في مطلعه:

عندي يعتلي المسافر المتعب

صهوة التلال المشرفة

يرتعش قلبه حبوراً لمرأى بيته عبر السهول الفسيحة

على الرغم من أن بلوغه لم يحن بعد



### الأفران المستعملة لدى العرب

هذه الأفران التي صنعتها النساء وتقسّت تحت أشعة الشمس، تؤدي وظيفتها بشكل جيد. يُستعمل العشب الجاف والقش والمخلفات العضوية والأعصان المقطوعة كوقود لهذه الأفران الطينية، وحالما تغدو حرارتها مناسبة، تبقى موقدة لوقت طويل. يستغرق بناء هذه الأفران أيامًا عدة، لكن هدمها وتكسيرها يتم بسهولة.

مشينا بثاقل، ومررنا في طريقنا بضبعين وبعض الثعالب، وحوالي الساعة الثالثة عصرًاً وصلنا إلى الكرك. لقد شكلت عودتنا مبعث الكثير من الهرج والمرج في المدينة بكل معنى الكلمة، فقد غمر الجميع السعادة لرؤيتني ثانية. وهكذا أنهيت زيارتي إلى أحد مضارب الخيام العربية بدعوة من أهلها. على الرغم من كونها تجربة قاسية ومريرة إلى حد ما، إلا أنها كانت تجربة يمكن أن أنظر إليها الآن بكل سرور. إنه لشرف لي أن يسخّرني الله لخدمة أولئك البسطاء الفقراء!

\* \* \*

## الفصل السادس

### المحن والشدائد تحيل الأعداء أصدقاء

كانت الشهور الستة الأولى من حياتي بين العرب قد مرّت بسرعة، ووثقت بشكل جيد بأولئك الذين سبق أن أسدّيت لهم خدماتي بكل سرور، وكان هنالك بكل وضوح شعور أكثر تفاؤلاً حيال المهمة التي أقوم بها، لا سيما من جانب أولئك الذين كانوا قد ناصبوا مهمتي العداء منذ البداية.

غادر السيد والسيدة ليثاباي Lethaby الكرّك بعد أسبوعين من وصولنا إليها، وذهبا إلى إنكلترا للقضاء إجازة مستحقة. لم يعد السيد ليثاباي أبداً، وعادت زوجته بحزن كبير لأخذ بعض من أغراضهما، حيث أن الأحداث الحزينة والغامضة منعت مؤسسي تلك الإرسالية التبشيرية من العودة إليها، وعهد إلى للاستمرار بإدارة شؤونها. بفضل مساندة زوجتي التي كان العرب يحبّونها ويتفانون في خدمتها، كنت أعمل من شروق الشمس حتى المساء، أساعد الناس وأعلم الصبية.

في صباح يوم السبت السابع من مايو من عام 1892، بعد دخولنا إلى مؤاب بثمانية أشهر فقط، وافى زوجتي الأجل على نحو غير متوقع داخل دارنا.

دون أيّة أعراض مرضية، ومن غير أية كلمة وداع، استُدعيت زوجتي من الأرض إلى السماء. انفطر قلب العرب حزناً عليها، وأظهرروا تجاهي تعاطفاً كبيراً في تلك الأيام المليئة بالكآبة والأسى. انتشرت الأخبار الحزينة بسرعة، وقبل غروب الشمس كان العديد من زعمائنا قد حضروا إلى المدينة. اتفقنا على موارة زوجتي الثرى صباح

يوم الأحد. وفي وقت مبكر جداً من اليوم الموعود، حمل زعماء مؤاب إلى الضريح جثمان أول سيدة نذرت حياتها لخدمة بدو مؤاب. كان هؤلاء الأشخاص بالذات من أسرنا قبل أشهر قليلة عندما دخلنا أرضهم، أما الآن فهم يذرفون الدموع وهم يوارون الجسد مثواه الأخير. بعد التشيع حضر هؤلاء الرجال قائلين: «يجب أن لا تفكر أبداً بترك بلادنا، فبعد أن وارينا جثمان زوجتك الثرى في وسط بلادنا، أصبحت من أبناء البلد؛ ونحن الآن أخوة، فلا تتركنا وتمضي بعيداً». لقد أصبح الأعداء أصدقاء من خلال سلسلة من المحن والشدائد، التي قدرّها الله لحكمة أرادها دون أن ندرك كنهها.

كان أقرب مركز بريد بالنسبة إلينا يبعد حوالي مئة ميل، وكان من الضروري لي أن أذهب لإرسال الأخبار الحزينة إلى وطني، فانطلقت في اليوم نفسه يرافقني اثنان من أولاد الشيخ، حيث رافقوني إلى حدود منطقتهم.

وبعد ثمانية أيام عدت والتقيت مرة أخرى ببعض من شيوخنا، حيث أصرّوا على ذهابي إلى خيامهم، وهو ما فعلته. ذبحوا لي خروفًا وصنعوا لي القهوة وقدموالي الهدايا من حليب وبهض وخبز وأشياء مختلفة عديدة وعاملوني بأحسن ما تكون المعاملة. وقد نمت في خيمة الشيخ، حيث انطلقت باكراً في صباح اليوم التالي إلى المدينة يرافقني اثنان من الشيوخ الشباب، حيث أوصلوني إلى بيتي بأمان.

وصلت أرباء رجوعي إلى المدينة حيث خرج كل واحد من منزله للترحيب بي، وهرع تلاميذنا وطلابي في صف اللغة الإنكليزية للقائي واستقبالي. كانت وجبات الطعام قد أعدّت في العديد من البيوت وانهالت علي الهدايا بشتى أنواعها، من أطعمة وفواكه وأشياء أخرى. ويا له من استقبال مختلف كلّياً عن ذاك الذي لقيته قبل أقل من سنة، ومن ذلك الحين تحسّنت الأحوال وباتت محن كثيرة في ذمة الماضي. رفيقي الوحيد وزميلي في العمل في تلك الأيام كان امرأة إنكليزية سبقتني إلى الكرك قبل ستين؛ وهي مثلية تماماً، كونت العديد من الصداقات بين العرب إلى أن أرغمتها الظروف على التقاعد وعدم العودة إلى مجال التبشير مرة أخرى.

لعل رسالتي الأولى إلى وطني فور عودتي تعطي تفسيراً ما حول كيفية قضائي لوقتي وكيفية تكويني لمزيد من الصداقات؛ تقول الرسالة في أحد جوابها:

«والآن يجب أن أخبرك كم أنا مشغول منذ عودتي وكم من الأحداث المرعبة حصلت هناك. الأربعاء الماضي، في الخامس والعشرين من الشهر، جرى قتال بين أبناء قبيلة المجالي Mujellies وأبناء قبيلة الصخور The Skour المجاورة، حيث قتل أخوان اثنان من أبناء الشيخ خليل بو حشية. لكنهما لم يقتلان أثناء القتال المشروع، بل جرى أسرهما وقتلهما بطريقة همجية. هذان الاثنان كانا من خيرة أصدقائنا في قبيلة المجالي، لذلك، فهي بالنسبة لنا خسارة كبيرة بالفعل، فقد كانوا شابين طيبين ومحترمين من قبل أبناء الكرك. إضافة إلى هذين الشابين، قتل اثنان من أبناء الشيخ واثنان من أبناء الكرك أيضاً.

وما إن وصلت الأخبار السيئة إلى المدينة صباح الخميس حتى بدأ الرجال والنساء والأطفال بالنوح والعويل؛ حتى الرجال الأشداء لم يتمالكوا أنفسهم من البكاء بمرارة وحرقة للأطفال حزناً على الضحايا. وبعد ساعتين عادت الجثث محمّلة على ثلاثة جمال؛ كان منظراً لا ينسى، ونحيب النساء لا يمكن وصفه. وفقت إلى جانبهم في أثناء غسل الجثامين وشاهدت كل الجراح؛ لقد كان مشهداً رهيباً، ولم يسبق لي أن شاهدت مثل هذه المجازرة الهائلة ولا أرغب أبداً برؤيتها مرة أخرى.

في غمرة هذه الإجراءات والطقوس الجنائزية أمرت بأن أذهب على الفور إلى الخيام لعيادة رجل جريح، وهو ابن أحد الشيوخ، من الرجال القساة الأشداء.

رفضت في البداية، حيث أن مجرد ولد صغير كان سيرافقني في هذه المهمة، والبلد كانت في حالة من الاضطراب والفوضى نظراً لتجربة أبناء قبيلة الصخور Skour على انتهاء حرمة أراضي الكرك؛ بعدها قال الشيخ: «ترى حتى الصباح، وأنا سأذهب معك بنفسي».

انطلقنا عند السادسة من صباح اليوم التالي، آخذين معنا مقادير كبيرة من الأدوية

وغيرها. وبعد أربع ساعات من المسير وصلنا إلى مضرب الخيام حيث وجدت الرجل المسكين مصاباً بإصابات بليغة، فعمدت على الفور إلى رتق الجراح الناجمة عن ضربات الرمح والسيف، الأمر الذي خفف من آلامه ومعاناته إلى حدّ كبير. وعند العصر قدم الزعيم الشيخ الذي فقد ولديه من المدينة برقة بقية الشيوخ؛ لقد فعلوا كل ما بوسعهم من أجل راحتني، فذبحوا لي خروفًا وقدموالي الكثير من القهوة والحليب. بثُّ معهم تلك الليلة، وفي اليوم التالي عدت إلى المدينة لحضور المزيد من الأدوية. هؤلاء هم آل المعجالي الذين عاملوا السيد والستة ليثاباي بكل قسوة، قد أقسموا الآن على عهد صداقه أبدية، ولدي اعتقاد راسخ بأنهم لن يمسوا شعرة من رؤوسنا. أنا مسرور لأن الله سعّرني لخدمة هؤلاء الناس والمثابرة على الدعاء لهم، لاسيما وأنهم قد يقبلون بالْمُخلص<sup>(١)</sup>، فهم شاركونا أحزاننا وعلينا أن نكون معهم وقت الشدة. ولهذا القصد فأنا مغادر في غضون ساعة أو ساعتين.

كنا قد حزمنا أمرنا على أن نقضي يوم أحد هادئ. كان الصبية قد حضروا وغادروا، وكانت أعزف لحناً على أرغني الصغير قبيل صلاة قصيرة عندما أطل رأسان من فوق البوابة. ولدى الاستفسار، طلب إلي أن أذهب لعيادة أحد الجرحى ممن تعرضوا لإصابات بليغة في خيمة تبعد حوالي مسيرة ساعة ونصف. كان الرجل قد أصيب في أثناء قتال نشب مؤخراً وحمل على جمل إلى أقرب مسافة ممكنة.

مجرد شعوري بأنني أليبي نداء الواجب حتم على أن أنحني رغباتي جانباً، وعلى الرغم من أنني كنت متعباً جداً جراء عمل اليومين الماضيين، فقد حزمت حقائبي وانطلقت، لأجد الرجل في حالة مروعة، وهي أسوأ حالة صادفتها حتى الآن. كانت ذراعه مصابة فوق المرفق بجراح بليغة غائرة وكان على أن أرتق الجرح بخمس قطع، إضافة لقطعتين لجرح في منطقة الذقن وأخرى في صدره واثنتان في ظهره.

وبعد ساعتين من العمل بالضمادات والشريط اللاصق بات الرجل في وضع مريح أكثر. وبعد أن تناولت بعضًا من البيض والخبز، عدت مرة أخرى إلى بيتنا الذي وصلته

(١) يا لسداحة هذا الفوردر، حاول الكثير لكنه عاد بخفي حنين.

بعيد الساعة الثالثة عصراً وأنا في حالة من التعب والإعياء. كان علي أن أعود ذلك الرجل عدة مرات قبل أن أتركه تحت رعاية أهله وجماعته. لو أمكنني أن أقرأ وأشرح الكتاب المقدس للناس بلغتهم، لحظيت بالعديد من الفرص لفعل ذلك، لكن مهمتي في الوقت الحاضر كانت مقتصرة على عملي كوكيل إعلانات لإرسالية الكرك التبشيرية.

في أوقات فراغي كنت أطالع بعض العربية، وعندما كانت تسنح لي الفرصة كنت أتدرب على القراءة مع الأولاد في المدرسة. كنت أبلي بلاءً حسناً بالمحادثة، ولكن إحراز تقدم في اللغة المكتوبة كان دونه بعض الصعوبات. لم يكدي مضي أسبوع حتى دُعيت للتوجّه إلى إحدى القرى لعيادة بعض المرضى والجرحى. بفضل الهواء الطلق والحياة البسيطة التي كانوا يعيشونها، فقد تعافي مرضىي بشكل عام، وقد كان العرب من الفطنة والنباهة بما فيه الكفاية لإدراك أن وجودي بينهم كان في صالحهم أكثر مما هو ضار لهم.

هيأت الزيارات المتكررة لقبائل العرب وإقامتي في خيامهم لي فرصة عظيمة للتعرف إليهم ودراسة حياتهم اليومية وعاداتهم. و شيئاً فشيئاً أصبحت معتاداً على شفف هذه الحياة وقوتها، وألفت أي طعام يُقدم لي تقريباً، شريطة لا أنظر إليه أثناء إعداده.

قضيت العديد من الليالي المؤرقـة في بيوت الشعر، وغالباً ما كان يؤرق أجفاني النباح الأجنـش للكلاب الغاضبة في أثناء تصديها لبعض الوحوش الدخيلة المصرية على مهاجمة القطعان. لقد حرمني النحيب المتواصل للنساء على مقتل زوج إحداهن من النوم والراحة على مدى ليالي عديدة، وكذلك الآهات والأنات المتواترة المنبعثة عن آلة الرّبابة التي كان يعزف عليها أحد الرجال والذي كان مكلفاً بالمراقبة والتنبيه إلى أي خطـر بالهجوم على الخيام أو القطـuan.

ومن خلال ظروف كهذه أصبح لدى أصدقاء، حيث خدمـني بعضـهم بتفانٍ وإخلاص خلال رحلـتي المتـعبـة والـخطـرة، حتى أنـهم خـاطـروا بـحيـاتـهم في سـبيل حـماـية حـيـاتـي؛ لكنـنا سنـرجـيـ الحديثـ عنـ هـذـهـ الأمـورـ إلىـ فـصـلـ آخرـ.

\* \* \*

## الفصل السابع

### أوقات شاقة في أماكن متبعة

بعد وصولي إلى مؤاب ومعرفتي التدريجية بالعرب في المدينة والخيام، نجحت المهمة بما فيه الكفاية لتشجيعنا على تجربة أشياء جديدة في طريقة البناء، فالعمل الطبي والمدرسي لم يكن مُرضياً كما يجب، ونحن نقوم به في أروقة ودهاليز دورنا، وإذا ما أردنا لهذا العمل أن يسير على النحو الأمثل، علينا أن نقوم بشيء ما لتوفير أمكنته أكثر ملاءمة لهذا العمل، فالزيارة القصيرة إلى إنكلترا مع لجنتنا بهدف الاستشارة، أدت إلى جمع تبرعات لا بأس بها تكفي لاستئجار الأرض وإقامة الأبنية بشكل أفضل بكثير من طرازها المأثور عند العرب والغائر عن مستوى الأرض.

أبنيتنا الجديدة كانت فوق مستوى سطح الأرض وفيها نوافذ وأبواب جيدة وخزائن جدارية ذات رفوف، وغير ذلك من وسائل الراحة المبتكرة ذات المظهر الحضاري والتي أثارت اهتمام العرب. كان علي أن أقوم بنفسي بالكثير من أشغال النجارة والطلاء وكنا بالفعل سعداء جداً عندما انتقلنا إلى أحياطنا الجديدة.



### دار المسنط فوردر في مؤاب

هذه الصورة تبين الدار الأولى التي بنيت بالكامل فوق مستوى الأرض في الكرمل، فيبيت العرب هي بيوت الخشب العازلة، في الأرض لا يوجد فيها شبابيك ولا مداخل. بني مؤلف الكتاب هذا البيت وستة بيوت أخرى لأهداف تتعلق بالإسلامية الشيشانية، وهو يظهر في الصورة مستعداً للذهاب إلى بعض معارض العرب، والمرأة الشيشانية الراقة يجذب الباب كانت المعلمة في مدرسة الإسلامية الشيشانية لسنوات عديدة.

في أثناء عودتي إلى مؤاب، كانت الرحلة من القدس مشوقة ومثيرة مرة أخرى، فقد عادت أختي معي حيث كانت تجربتها الأولى والوحيدة في بيوت الشعر، وستروى القصة بلسانها كما دونت آنذاك:

«غادرنا القدس حوالي الساعة السابعة صباحاً ومعنا ثلاثة جمال وثلاثة أو أربعة حمير ورجلان، حيث استمررنا في السير حتى الحادية عشرة عندما وصلنا إلى أحد الخانات، فمكثنا هناك لنصف ساعة تقريباً. وبعد ذلك تابعنا مسيراً نا عبر الجبال إلى أن وصلنا إلى أريحا حوالي الساعة الثالثة عصراً. كان الفندق مغلقاً لانتهاء الموسم، لذلك كان علينا أن نجلس خارجاً فيما يشبه فناء المزرعة مع الرجال والنساء والأطفال والحيوانات المستشرين في أنحائها، وبعد استراحة قصيرة انطلقنا باتجاه نهر الأردن، حيث كان علينا في ذلك الوقت أن نعبر أرضاً سهلة. كان الجو حاراً جداً نظراً لوجودنا على مستوى البحر الميت. وعند الساعة السادسة مساءً كنا على ضفاف النهر، حيث كان مخالفاً لكل توقعاتي. فبدلاً من السهول والحقول الخضراء، لم أجد سوى الرمال، كشاطئ البحر تماماً، وعلى الجانبين كليهما كان هنالك الكثير من الناس والحيوانات بانتظار العبور. لم يكن هناك سوى مركب واحد فقط، يُسحب ويُجرّ بالحبال.

تمكننا من العبور عند حوالي الساعة السابعة مساءً نحن والصنديق والجمال والرجال في حمولة واحدة. شعرت بتعب شديد بعد الركوب الطويل، وحاولت أن آخذ لي قسطاً من النوم بعد أن شربت قليلاً من الشاي، ولكن آنني لي ذلك، وسط كل ذلك الصخب والضجيج المنبعث من الحيوانات والرجال. وكان بين الحشود المئات من رؤوس الماعز؛ وقد تمكّن أحد رجالنا من الحصول على كمية لا بأس بها من الحليب، تلذذنا بها حتى آخر قطرة.

كان القمر بدرًا والرؤية واضحة، واستغرقنا غاية الاستغراب رؤية ذلك العدد الكبير جداً من الرجال والحيوانات مستلقين في العراء، وكذلك النار الكبيرة المتوججة لإبعاد الحيوانات المتوحشة. وحوالي الساعة الثانية صباحاً أخبرنا الرجال بأنهم يريدون مواصلة السير؛ ونحن لم نكن متأسفين على ذلك، لأنّه كان يتوجب علينا عبور سهل

الأردن قبل ضحى الغد. وعند الساعة السادسة كنا عند سفح الجبل من جهة الخلف، وعند ينابيع حشبون Heshbon أخرجت الإسفنجية والصابونة وجثوت على إحدى الصخور واستحممت في مياه النهر حماماً منعشأً للغاية.

تناولناوجبة الطعام في هذا المكان، وبحلول الساعة الثامنة استأنفنا رحلتنا من جديد. واصلنا طريقنا صعوداً وزنو لاً وصعوداً حتى ظننت بأننا لن ننتهي أبداً. أخبرنا بعض الرجال عند نهر الأردن بوجوب عدم الذهاب إلى مادباً كونها ليست آمنة، وهكذا واصلنا مسيرنا حتى الساعة الحادية عشرة تقربياً، عندما وصلنا إلى بعض مضارب البدو. نزلنا هناك لأننا كنا مرهقين جداً من عناء المسير.

ذهبنا إلى خيامهم لأخذ قسط من الراحة، لكن مالم يكن يطاق كان ضجيج النساء والرجال المنبعث عن أحاديثهم وثرثرتهم، وكان الجوّ حاراً إلى درجة لا تحتمل؛ والأسوأ من ذلك كان تحلق النساء والأطفال حولنا بكدرهم الذي يفوق الوصف. لا يمكنك أن تخيل أن هنالك بشراً يعيشون في مثل هذه الحالة. وبعد فترة وجدنا لنا مقيلاً عند طرف الخيمة، كان أفضل بكثير من الجلوس وسط الناس.

بقينا هنا طوال اليوم التالي، وعند الغروب بدأت النساء بصنع الخبز وإعداد العشاء، ثم رجعت قطعان الغنم والماعز من مراعيها فوق التلال حيث كانت ستُحلب جميعها؛ توازعت السوة العمل فيما بينهن كل واحدة حسب اختصاصها. قدمن لنا الكثير من الحليب الشهي، ولما أتى الرجال إلى البيت أضرموا النار، وتحلقنا جمياً حول الطعام لتناول عشاءنا من نفس الطبق. ومرة أخرى منعنا الحيوانات من النوم، وعند حوالي الساعة الثانية قال رجالنا بأنهم مستعدون للذهاب، لذلك كان علينا النهوض والانطلاق مرة أخرى باتجاه ماعين Mien بدلاً من مادباً، والتي وصلناها عند الساعة الثامنة صباحاً.

ذهبنا إلى منزل مدير المدرسة، وحالما دخلنا، تجمّع حولنا النساء والرجال والأطفال ينظرون إلينا بدهشة واستغراب. كانوا يجلسون على الأرض الطينية وهم ينفثون دخان سجائرهم.

قدم لنا المضيف بعض الخبر، وكان معنا علبة مربى، وبذلك تناولنا طعام الإفطار؛ وكنت خلال هذا الوقت قد ألقيت نظرة عامة على الدار.

كان المنزل عبارة عن قبو واسع تحت مستوى الأرض، وغالباً ما كانت سحب الغبار الكثيف تتهاوى علينا من السقف. كانت الغرفة صغيرة ومعتمة، كما أن الباب كان صغيراً وواطئاً، والأثاث الوحيد الموجود كان عبارة عن كومتين كبيرتين من الحجر المغطاة بملاط الطين من أحد الجانبين؛ فهذه كانت أسرّتهم، وبالطبع من دون بطانيات أو ملاءات أو وسائد. أمّا العائلة التي كانت مؤلفة من الأب والأم وولدين، الأول بعمر اثنين عشرة سنة تقريباً والثاني بعمر سنتين، فقد نامت على أحد السريرين، وأخي على السرير الآخر. أفسحت لي القوس المقطرة مجالاً متواضعاً في إحدى الزوايا للنوم فوق صناديقنا الخشبية بعد أن وضعناها فوق بعضها البعض؛ فبعض الصناديق كانت أشبه بالسرير، وهكذا كان حالياً أفضل من الآخرين.

الشيء الوحيد المتحضر الذي يمتلكونه كان إبريق القهوة، بالإضافة إلى مقلاتين أو ثلات من المعدن، والتي كانت تستعمل لكل شيء - فالنسبة لنا كانا نغسل بها ونأكل منها. كانت عملية غسل اليدين تتم ببساطة من خلال سكب القليل من الماء على اليدين وتركه ينساب إلى الأرض. قدموا لنا الكثير من الخبز البلدي المحلي وبعضاً من العسل في هذه الأواني المعدنية، حيث كان على كل منا أن يجلس على جانب من الصناديق والمقلة في الوسط وأن نغمس الخبز فيها، وكان لهذه الحال أن تستمر أسبوعاً بحاله، نظراً لعدم وجود أحد من الرجال يأخذنا إلى الكرك.

بوسعك أن تخيل كم كانت الأيام تبدو طويلة ومضجعة، حيث أنه لم يكن لدينا ما نقوم به. لم نكن نستطيع الخروج من البيت طوال النهار بسبب الحرارة. وفي النهاية تعرفنا إلى رجل وعد بأن يأخذنا، ولكن كان على أخي أن يدفع له مبلغاً لا يأس به من المال نظراً للمخاطر الطريق. وعندما قدرنا بأننا سنبدأ الرحلة وأن كل حوائجنا باتت جاهزة للتحميل، قبع الرجل في بيته لا يحرك ساكناً، زاعماً بأن الوقت لازال غير مناسب للرحيل وأنه سينطلق في الصباح. وبالطبع لم يكن بوسعنا إلا الانتظار، وفي

النهاية بدأنا مسirنا في اليوم التالي حوالي الساعة الثامنة.

انطلقنا قاصدين في البداية مضارب بني حميدة Hameideh لاصطحاب مرشد يواصل معنا الرحلة. وصلنا المضارب حوالي الخامسة عصراً، وكنا متبعين جداً، ولكن لم نستطع أن نتخلص من طفل وحشية النساء والأطفال لبعض الوقت. فما أن تطا قدماك الخيمة، يتخلّقون حولك على الفور تحلق النحل على قطعة الحلوى، هذا يتحسّس لباسي وحذائي وذاك يتلمس وجهي، ليتحققوا ربما من أنني مخلوق على شاكلتهم من لحم ودم. عندما عادت العزّات إلى البيت أمكننا الحصول على بعض الحليب، وقاموا بذبح واحدة تكريماً لزيارتنا، ولكنني لم أستطع لمسها. لقد جربت ذلك من قبل، وكان ذلك كافياً.

مرة أخرى منعتنا العزّات والحمير والجمال والبقر والخراف والكلاب وغيرها من الحصول على كفايتنا من النوم، وعندما غفونا قليلاً حوالي الساعة الثالثة، هم الرجال بالرحيل، فاستيقظنا وبدأنا من جديد. كان وادي الموجب Mojib أمامنا، لذا كان علينا أن «نقوى قلوبنا».. وهو تعبير محلي شائع.

من المستحيل أن أصف طبيعة المكان بحيث يفهمه القارئ تماماً، فهو أشبه بتسلق جُرفٍ مهولٍ شاهق فيه من الصخور ما يكفي لبناء عدة مدن. اعتقدت بأننا وصلنا إلى القمة قبل ساعتين من وصولنا إليها. توفرنا لحوالي ساعتين عند جدول جبلي صغير وتفيأنا ظلال أشجار الدفل الرائعة، فكانت لحظات لا توصف من الارتياح وسط هذا الجو القائل الحرارة والصخور المبهرة البريق. انحدرت نزولاً لمسافة لا بأس بها، فكان هذا أقصى ما يمكن أن أغامر بالقيام به على صهوة حصان في مثل هذا المكان المرعب.

أثناء عبوري أحد الممرات الجبلية الضيقة جداً انزلق أحد الحمير، أو بالأحرى انهارت التربة من تحت قوائمه، فهو الحيوان المسكين أسفل المنحدر لحوالي عشرين أو ثلاثين قدماً بحمله المكون من صندوقي المعدني وصندوق آخر وآلية الكمان خاصتي. وقف وأنا أرتعش خوفاً على كمامي، لكنها كانت تلة ترابية، هي

الوحيدة التي مررنا بها، لذلك فقد كانت الأضرار طفيفة. وصلنا القمة حوالي الساعة السابعة حيث وجدنا مضرب خيام مصنوعة من شعر الماعز، ومرة أخرى عانينا من تطفل وحشرية النساء والأطفال لبعض الوقت.

وبعد أن تناولنا كمية لا بأس بها من الحليب وأخذنا لنا قسطاً لا بأس به من الراحة لمدة أربع ساعات، انطلقنا في المرحلة الأخيرة من رحلتنا باتجاه الكَرَك، وكان طريقنا هذه المرة عبر أرض منبسطة.

كانت الساعة الحادية عشرة عندما انطلقنا؛ ولم يكن مسirنا في الظلام أمراً مريحاً أو محذاً، لكن الراحة والطمأنينة باتت قاب قوسين أو أدنى منا، لذلك لم نأبه لذلك كثيراً. وصلنا مضارب قبيلة المِجَالِي حوالي الساعة الثالثة صباحاً، ومررنا بها بأمان، حيث لاحت لنا الكَرَك لأول مرة عند الساعة السادسة صباحاً تقريباً. بدت جميلة جداً من أعلى التلة، ولكن كان علينا أن نهبط وننعد قبل الوصول إليها. نزلنا بيسير وسهولة، وكنا في منتصف الطريق عندما التقينا بشاب أبدى إعجابه الشديد بعقال أخي. كان عقلاً أشتراه من القدس، فأراد الرجل منه أن يأخذ العقال القديم ويعطيه الجديد، فاحتجّ أخي على ذلك، لكن الرجل صمم واستلّ خنجره مهدداً. تملّكتني ذعر شديد، وفي سبيل تسكين روعي، سُمح للسارق بأخذ بغيته والمضي في طريقه.

كان أحد رجالنا قد سبقنا ليعلم الناس بقرب وصولنا، لذلك فقد هرع تلامذة المدارس يتسلقون الصخور لاستقبالنا. التقينا الآنسة آرنولد Arnold عند عتبة دارها. وسرعان ما أحضر لنا الأهالي الهدايا؛ فقد حصلنا على ثلاثة وثلاثين بيضة وطائري دجاج على قيد الحياة ووعاء كبير من السَّمن الذي يشبه دهن الخنزير، وقرصي عسل بشده وسمك من النهر والعديد من الأشياء الأخرى، بينما عمد صاحب الأرض إلى ذبح عنزة من أجلنا كقرابان شكر لوصولنا بالسلامة».

\* \* \*

بعد مكوثنا لبضعة أشهر في مؤاب، رافقت أخي في رحلة العودة إلى القدس.

لقد أدى الصراع بين القبائل إلى إغلاق الطريق بين مادبا وأريحا، لذا كان لا بدّ لنا أن نسلك الطريق حول الطرف الجنوبي للبحر الميت وعبر الخليل. كانت الرحلة عبر هذا الطريق الأخير تشير الخوف لسبعين، هما ندرة المياه واحتمال التعرض لهجوم من قبل قطاع الطرق، فالمناطق الجبلية والأماكن المهجورة أماكن مثالية جداً لتواجد اللصوص وقطاع الطرق.

سافرنا بصحبة مجموعة من التجار، أغلبهم من سكان الخليل العائدين من قرى وسهول مؤاب، حيث كانوا في رحلة تجارية إلى مناطق العرب، يقايسون مستلزمات الحياة الضرورية بمنتجات محلية كالخraf والماعز والتبعي وزيت الزيتون والزبدة وأشياء أخرى مطلوبة بأسعار جيدة في أسواق الخليل والقدس.

ركبنا في هذه الرحلة على ظهور الحمير، وكل الأمور سارت على ما يرام خلال الأيام الثلاثة أو الأربع الأولى، عندما بدأنا بمواجهة سلسلة من المنغصات التي انتهت بخسارة بضائعنا ونجاتنا من الموت بأعجوبة. في وقت مبكر من صباح أحد الأيام غادرنا مخيمنا بالقرب من الشواطئ الغربية للبحر الميت، وببدأنا رحلة صعود مرتفعة عبر الجبال الشاهقة؛ وعند حوالي الساعة الثامنة توفرنا البعض الوقت لتناول وجبة الفطور، فحططنا الرحال وأنزلنا الأحمال، وببدأنا نتهيأ للاستراحة أسفل الجروف الصخرية هرباً من حرارة الشمس القائمة.

كنا قد شرعنا للتو بتناول وجبتنا المتواضعة عندما أطل علينااثنا عشر رجلاً من وراء إحدى التلال القرية. تهامس البعض منا فيما بينهم بكلمة «حرامية» واستولى الخوف على كل من في المجموعة. هبط اللصوص سفح التلة وسلامحهم في أيديهم، وعندما باتوا على مقربة منا أمرؤونا بوابل من الرصاص، فجرحوا اثنين من جماعتنا، ثم تلا ذلك وابل من الحجارة التي بعثرت رجالنا في جميع الاتجاهات. وقبل أن نعي ما حدث، عمد أحد الرجال إلى تعطية أخيه بعباته الكبيرة، ثم حملها وانطلق بها بعيداً. حملها إلى مسافة لا يأس بها ومن ثم وضعها في مغارة بين الصخور حيث كان يعرف بأنها ستكون في منأى عن أيّ أذى. أخذت خروج السرج خاصتي وتبعته،

ولكن أحد المهاجمين كان يطاردني وهو يصرخ: «ألق بها أرضاً وإلا قتلتك». رميته الحقائب التي كنت أحملها، فاستلبتها ومضى في سبيله تاركاً إياي الحق بأختي، حيث وجدتها مخبأة في المغارة. لم تدرك أختي ما حدث، ولكنها اعتقدت بأن الرجال كانوا يصطادون وحوشاً برية.

بعد بعض الوقت، ولدى محاولتي معرفة ما كان يجري، تسللت إلى الخارج لأرى رجالنا واللصوص يختصمون ويتشاجرون من أجل الغنائم والحيوانات. لمحني أحد اللصوص فتقديم مني ثم انتزع عبأتي وغطاء رأسى وحذائى، تاركاً إياي في قميصي القطني الذي، لكونه مصنوعاً محلياً، تدلّى حتى كعبى. سلبوه منا كل وسائل الراحة وبالبسط وبعضاً من ملابس أختي؛ ولكن الملابس تم استعادتها فيما بعد، لأن استلام أشياء نسائية يعدّ بمثابة عار وأمر مشين، حتى في ثقافة الغزاة. طلبوه مني نقوداً، ولكني لم أتمكن من تلبية طلبهما، حيث أني لم أكن أحمل معى أية نقود. الرجل الذي كنت تحت رحمته لمح في إصبعي خاتم الزواج الذي يخص زوجتي الراحلة، فأصر على أخذه مني. وعندما تعذر عليه انتزاعه من إصبعي، استخدم خنجره، حيث كاد أن يقطع إصبعي. ولم يرئ زعيماً اللصوص ما كان يفعله الرجل، أو قفه قائلاً: «لا تُرق دماء هذا النّصاراني؟ دعه وشأنه»، وهكذا نجوت من فقدان إصبعي وقدر كبير من المعاناة. قام اللصوص بتحميل الحيوانات وترحيلهم بعيداً ثم فرّوا عبر السهول، آخذين معهم حقائب طعامنا وقرب مائنا وحيواناتنا وأغطيتنا. تبعتهم، أستجدي منهم حماراً لركوب أختي وغطاءً تدثر به ليلاً، فأعطوني كلّيهما. وبعد هاناشدتهم من أجل عبأتي التي أخذت مني، فهذا أمر مخالف للأعراف أن يستبقي الشخص عباءة شخص آخر لديه ليوم وليلة. (انظر xxiii, xxvi, xxvii).

كان كل ما حصلت عليه من اللصوص كيس قديم، استخدمته للنوم وانسللت بداخله خلال الثلاث ليالي التالية التي قضيتها في العراء في تلال برية اليهودية تحت وطأة البرد والندى، والذي يعدّ ظاهرة متكررة في تلك الأنهاء. بخسارتي لغطاء رأسى وحذائى ولباسي الخارجي، غدوت عرضة لحرارة الشمس المحرقة نهاراً والرياح الباردة في

تلك الليالي المقرمة ليلاً. ولكن، في مثل هذه الظروف غير المواتية، شعرت بتحقق الوعد: «لن تصييك الشمس في النهار ولا القمر في الليل» (Ps. cxxi. 6).

بعد ثلاثة أيام من السفر المرهق وصلنا كروم عنب وبساتين زيتون الخليل؛ ومع انبال الفجر قرعت على باب بيت أحد المبشرين، لكن مظهري الخارجي منع الخادمة من السماح لي بالدخول. لا شك بأنها اعتقدت بأنني متسلل. لكن إلحادي ومواظبي على قرع الباب ومناداتي على من في الداخل، جعلهم يدركون أن وراء هذا الطارق أمراً جللاً. ثم تعرفوا إلى صوتي، وأخيراً سمحوا لي بالدخول واستقبلوني استقبلاً حاراً. واصلت في نفس الليلة طريقي إلى القدس، بملابس افترضتها من صديقي؛ كانت أطرافي مكشوفة تماماً بسبب قصر الملابس وضيقها، حيث أنها كانت تخص شخصاً أقصر مني بكثير.

ألمّت بي بعيد الليلة التي أعقبت وصولي من المدينة المقدسة آلام مبرحة وحمى شديدة، وذلك بسبب الإجهاد والتعرض للبرد والامتناع عن الأكل والشرب. غير أنَّ الطبيب البارع السيد ميريل<sup>(1)</sup> (Merrill)، وهو القنصل الأميركي وصديق المحتاجين، أبدى حالي كل تعاطف ومودة في ذلك الوقت، وبعون الله تعافت سريعاً وعدت مجدداً لخدمة هؤلاء الذين يعيشون في البيوت الحجرية وبيوت الشعر أيضاً.

\* \* \*

تتضمن الفصول التالية سرداً لأحداث صعبة أخرى في ظل ظروف عصيبة؛ وهي حالياً تفي بالغرض. سوف ننظر الآن إلى جانب أكثر تفاؤلاً وأكثر إشراقاً من الحياة التي عشتها وقضيتها في خدمة أهل مؤاب والمناطق المجاورة.

(1) سلاه ميريل (1837-1909) قسٌ بروتستانتي أميركي وُمربٌ وعالم آثار يتبع الجمعية الأميركية لاستكشاف فلسطين American Palestine Exploration Society، كما كان دبلوماسياً وشغل منصب قنصل الولايات المتحدة في القدس بين 1882-1885 ثم 1891-1893 ثم 1898-1907. قام بحفريات أثرية في القدس الشريف في أسوار المدينة، وفي موقع الجُلْجُلة فيها.



### عصائب الذهب على رؤوس نساء العرب

تضع هذه المرأة حول رأسها 115 قطعة من العملة المعدنية الثمينة كجزء من مهر زواجه. لا تشاهد مثل هذه العصائب إلا في بضعة قرى فقط، وهم يعتبرون أيضاً أن العيب أن تظهر المرأة نفسها بما فيه الكفاية لكي تبدو في الصورة. قام المستر فوردر بزيارات متكررة للقرية التي تقطنها المرأة.

## الفصل الثامن

### تشجيع من مناطق غير متوقعة

سبق أن أوضحت بأن العمل الذي كرّست حياتي من أجله كان مشجعاً بما فيه الكفاية لحملنا على السعي نحو تأمين مقر أفضل نواصل فيه خدماتنا. لقد شدّ انتباهاً العديد من الأحداث السارة التي ينبغي توثيقها، لعلَّ ذلك يحفّز الآخرين على المبادرة للقيام بمهام مماثلة، رغم المصاعب والمنغصات.

كنا مسرورين من أداء شقيقين صغيرين في مدرستنا الصغيرة، إلى درجة أننا لم نلق بالاً لمثل هذه الأشياء. كنت قد تغيبت عن المنزل لبعض الوقت لعيادة بعض الجرحى في إحدى مضارب الخيام التي تبعد قليلاً عن محظتنا. لم يسمعوا عن أي خبر، إلى أن قدم رجل في صباح أحد الأيام إلى مدرستنا وأخبر الأولاد بأنني قد قُتلت وأن جثتي ملقة على الرّمل، دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منها. كان الخبر ملفقاً، لأن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث قط لإطلاق مثل هذه الشائعة. كان الأولاد قلقين جداً على سلامتي ومنزعجين من الأخبار التي سمعوها عنّي. وعند انصرافهم من المدرسة كانوا مرتباً جداً لاستماعهم لأهلهم وأقربائهم يناقشون هذه الإشاعة التي أمل الجميع بأن تكون كاذبة.

اثنان من التلامذة الصغار، لدى وصولهما إلى المنزل، إن كان لكلمة منزل أن تصف المكان الذي كانا يعيشان فيه، التقى بأبيهما المتعصب القاسي القلب والفظّ الذي حدّثهما بالتفصيل عن أخبار الصباح، منهياً كلامه بالطلب إليهما ألا يرکنا إلى

تعاليم المبشرين حول العناية الإلهية أو التصديق بعيسى على أنه ابن الله. لم يحاول الصغيران مناقشة أبيهما، لكنهما غابا عن الأنظار داخل القبو الموجود تحت الأرض. تسألهما الأم عن سبب دخولهما إلى هناك، لذا فقد لحق بهما حيث سمعهما يقولان شيئاً ما من قبيل: «لقد أتينا إلى هنا كي نصلّي لله من أجل عودة مبشرنا سالماً إلى بيته، وإذا صلينا يتوجب علينا أن نقول شيئاً ما، فماذا نقول؟» وقررها بأن صلاة الرب هي الصلاة الفضلى التي بواسطتها تردادها. قال الولد الأكبر البالغ من العمر ثمان سنوات: «إذا لم نتل الصلاة بحرفيتها، تكون قد تلوننا ما بواسطتنا تلاوته، والله أعلم بالقصد».

ثم أثقلت على عقليهما الفتىين معضلة ثانية، وهي: «هل سيفهم الله لغتهم الصعبة، أم أن الإنكليزية ستكون أسهل فهماً؟» وبعد لحظات قليلة من التشاور قررا بأن يصليا بلغتهم الأم، حيث سجدا على الأرض الرطبة المتتسخة في ذلك القبو المعتم، مرددين معاً كلمات: «أبانا الذي في السموات»؛ بدءاً بالإنكليزية أولاً، ثم بالعربية<sup>(1)</sup>.

مع انتهاءهما من تلاوة الصلاة غادرا القبو حيث التقى أباهما مرة أخرى، الذي وبعنهما وعنفهما بقسوة لتجريهما على الله. صعدا إلى سطح المنزل وأخذوا ينظران إلى المدينة. عند سفح الجبل الشاهق لاح لهما على بعد فارس فوق صهوة جواده. وما أن رأياه حتى هرع الصغيران باتجاه منزل الإرسالية التبشيرية. ولدى وصولهما إلى البوابة، صرخا بصوت لاهث: «إنه آت، لقد رأينا، لقد استجاب الله دعائنا، لذلك جئنا لنخبركم». كان كل ذلك صحيحًا. ففي الوقت الذي كان فيه الولدان يتضرّعان إلى الله في القبو، كنت قد عبرت سلسلة الجبال التي تحيط بتلك المدينة العربية. فالفارس الذي شاهداه كان مبشرهما.

وعندما توجهت نحو بوابة بيتنا، لم يتم استقبالي على الطريقة الشرقية بالتطبيل والتزمير والتحيات الحارة، بل ببعض كلمات من مثل: «كنا على يقين من أنك ستأتي قريباً، لأننا طلبنا من الله أن يرددك إلينا» فوجوه الأطفال الصغار الطافحة بالبشر كانت

---

(1) رواية مختلفة بوضوح من فوردر، فمن أين أتى بكل هذه التفاصيل إلا من مخيّله؟

تمّ عن مدى سعادتهم.

هل يمكن للقارئ إلا أن يكون متحمّساً حيال بعض المواقف التي مرّت بي، كال موقف التالي؟ فبعد الاهتمام والرعاية التي أوليتها لأعداد كبيرة من الناس الذين أصيّوا بذلك المرض المخيف وهو الجدري، أصبحت أنا به في النهاية. رقدت في الفراش عاجزاً وغائباً عن الوعي لمدة طويلة، وما فاق من مخاوف و هو جس المحيطين بي أنني كنت في حالة من الهذيان والهلوسة. لم يكن هنالك أية وسائل مناسبة للراحة أو الاستطباب، إذ أنني كنت تحت رحمة شتى أنواع الأغذية وأساليب الطب العربي. بدأت شيئاً فشيئاً أستعيد وعيي وعافيتي، وكانت مسروراً و متحمّساً لأنهم أخبروني بأنه وخلال مرضي الطويل، تعهد أربعة من العرب بالسفر على خدمتي، اثنان منهم خلال النهار، واثنان خلال الليل. لقد قاموا بكل وفاء وإخلاص بتأدية واجبهم بداعف الإيثار، راضيين أن يتقبلوا أيّ شيء على سبيل المكافأة أو التعويض. كان يأتيني في كل يوم أعداد من الرجال والنساء إلى مسكنى المتواضع يستفسرون بأصوات هامسة عن حالي، وعندما دخلت مرحلة الخطر لبعض الوقت، انتابهم الخوف والقلق والتمسوا السماح لهم بالدخول. رفض القائمون على خدمتي طلبهم، فبادر وهم بالقول: «اللهم كان خير الصديق عندما كنا في أشد الضيق، في وقت نأى فيه الآخرون عنا خوفاً ووجلاً».

لذلك، دعنا ندخل ونلقي عليه نظرة عابرة؛ لن نتكلم معه ولن نحدث أية ضجة؛ نريد فقط أن نرى صديقنا». وفور تماثلي للشفاء توافد أهل البلد يهتئونني، والبعض كان يحمل معه كقربان شكر لله تعالى بعض الأرغفة والبيض والحليب، وآخرون قاموا بإحضار دجاجة أو بعض الحطب، في مبادرة منهم لإظهار العرفان بالجميل للمساعدة التي قدمتها لهم. وبالرغم من أن معظم الأشياء التي جاؤوني بها لي كانت غير مناسبة لشخص في مثل حالي، في طور النقاوة، فقد شعرت بالتأثير والرغبة في تقديم المزيد من الخدمات للعاجزين وأبناء الفقراء والمحرومين.

وحالما حزت على تأييد وثقة الناس، وجدت بأن الوقت قد حان لإخبارهم عن

السبب الرئيس لوجودي بينهم. في كل صباح كان يحتشد عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال أمام بابي طلباً لمساعدة طبية أو جراحية، فرأيت بأن مثل هذه الفرصة لا ينبغي أن تفوّت للتبرير بالكتاب المقدس، خاصة وأن معظم الناس كانوا غير قادرين على القراءة بمفردهم، وجميعهم كانوا جاهلين تماماً بفحوى الكتاب. بعضهم أتى مرة واحدة ولم يعد فقط، ولو لا الأنباء السارة الأخيرة عن عودتي بالسلامة، لما ستحت لأيّ منهم فرصة لقائي مرة أخرى.

في صباح أحد الأيام قدمت الكتاب المقدس قائلاً للناس بأنها رسالة الله أردت أن أسمعهم إياها. وبكل تبجيل وانتباه أنصتوا إليّ وأنا أتلوا عليهم آيات من العهد الجديد وأشار حفالاً لهم. البعض منهم طرح عليّ عدداً من الأسئلة الذكية والمدهشة. الكثير منهم جاؤوا مراراً وتكراراً للاستماع فقط. في بعض الأحيان لم يكونوا راضين عن الجزء المختار للقراءة بسبب قصره وأهميته، لذلك كانوا يطلبون المزيد.

في صباح أحد الأيام شرعت قصداً بإعطاء الأدوية من دون أية قراءة أو حتى شرح عندما سمعت تعليقات من مثل: «لا قراءة اليوم! ماذا يعني ذلك؟» ثم قال أحدهم: «أنت لم تقرأ لنا هذا الصباح». فأجبته: «هل تريد أن تقرأ وتتعلم من رسالة الله؟»، فكان الجواب بالإجماع: «بالطبع نريد أن نسمعه؛ لا يوجد أحد سواك يقرأ لنا ويعلمنا مثل هذه الأشياء الجميلة، وعليك أن تواظب على ذلك، وإذا لم يكن لديك الوقت، سوف نتخلّى عن الاستطباب ونستمع لقراءتك وحديثك».

كنت أعقد أيام الأحد اجتماعات صباحية للرجال، وكانوا يحضرون كل هذه الاجتماعات. لكن خلال مواسم الحراثة والحصاد لم يكن يحضر الكثير، لكن أحداً واحداً لم يكن يمرّ دون أن يأتي شخص ما لسماع القراءة والحديث.

استدعيت في إحدى المرات لعيادة رجل مريض في بيته. وبعد أن انتهيت من علاجه، سأله إن كان يرغب في أن أقرأ له من كتاب الله، فوافق، وشرعت أقرأ وأخاطب الحاضرين في ذلك البيت المتواضع. وبعد أن انتهيت، قال أحد الحاضرين: «سيدي، لقد سمعتكم تقرأ وتقول لنا بأننا يجب ألا نلعن أو نجعل من أسماء الله هزوًّا»

مثلما نفعل، ولم أنس ذلك؛ وكل يوم أحاول أن أكفّ عن هذا الخطأ. كتابك يخبرنا بأشياء صالحة، وأريد أن أتمثل به وأفعل كما تعلمنا».

سُنحت لي العديد من الفرص لإرسال نسخ من الكتاب المقدس أو بعض الكتب إلى بعض أنحاء المنطقة من التي تعذر علينا بلوغها. كنا دائمًا نفعل ذلك، اعتقاداً منا بأن «كلمة الله لن تذهب هباءً، بل ستؤدي الهدف الذي أرسلت من أجله».

جاءني في أحد الأيام رجل قادماً من رحلة يومين. كان قد أصيب بكتفه ويريد مني أن أعالجه. ونظرًا للعدم وجود مكان أفضل، فقد سمحنا له بالمبيت في رواق غرفتنا. لاحظنا أنه كان يصغي بانتباه إلى القراءة اليومية والتفسير، وأنثاء مغادرته لنا طلب كتاباً يقرأ بنفسه. قدمنا له نسخة من إنجيل يوحنا بالعربية، فكان من بعث فخره واعتزازه أن يحوز على مثل هذه التحفة.

وبعد شهرين، عاد إلينا مرة أخرى، ولكن ليس لمزيد من المعالجة للعضو المصابة، بل أتى طالباً نسخة من الكتاب المقدس. قال لي: «لقد قرأت للناس في قريتي من الكتاب الصغير الذي أعطيني إياه، وقد أحبوه كثيراً، والآن أتيت أطلب منك كتاباً أكبر لكي نقرأ ونتعلم أكثر». مثل هذه الأحداث جعلتني أؤمن بأن العديد من قراء رسالة الله من شتى أنحاء العالم الإسلامي وأيضاً في البلاد التي زرتها وبشرت فيها سوف تلتقي على معرفه الله الواحد الحي الذي لا يموت، لكن على جميع عباد الله، بما فيهم العرب، أن يتوبوا إلى خالقهم توبة نصوحاً<sup>(1)</sup>!».

ألم يكن أمراً مسجعاً معرفة أن مجموعة الصبية العرب الذين تعلموا الصلاة في مدرستنا كانوا يذكرونني يومياً عندما كانت أخرج إلى بدو الصحراء؟ ولو كان هؤلاء الأكثر نضجاً على صعيد السن والمعرفة على ذات القدر من الإخلاص في تأييد هذا المبشر في بلاد الله الواسعة بالدعاء والصلاه، لشدوا من أزر العديد من أمثال هذا

(1) يتوبون عن ماذا؟ من الواضح تماماً أن فوردر الذي يجهل تماماً فحوى رسالة الإسلام، وتاريخه وتعاليمه وفكتره وفلسفته وعلومه الشرعية والطبيعية، وعظمة رياته في مسيرة الإنسانية جموعاً، قد صدق نفسه بأن هذه الكتبيات التي يحملها بإمكانها أن تنافس الطود الإسلامي الشامخ!

الرجل المكافح، وأنسوه شعوره بأنه وحيد في هذا العمل! ألم يكن أمراً مشجعاً حقيقة أن العربي الذي لا يأتمن أعز أصدقائه أو أقرب الناس إليه على أيّ مبلغ من المال، أو أيّ شيء ثمين، يأتي إلى من تلقاء نفسه ليأتمنني على آية مبالغ كائنة ما كانت، حتى بدون التفكير بطلب إيصال أو ضمانة من أيّ نوع كان؟

بالتأكيد كانت مسألة عرفان بالجميل، وثمة موقف مفعم بالتشجيع عندما نشب قتال بين أبناء الكرك والعسكر التركي، حيث كان الرجال الذين عرفتهم منذ سنوات يقتلون أمام عيني. كانت زوجاتهم وأولادهم يلتجؤون إلينا مستنجدين وطالبين الحماية؛ فقد كانوا يشعرون أنهم بأمان تام في حمانا؛ وبعدها، عندما كان يتوجب عليهم المغادرة من أجل أعمالهم في البساتين والحقول، كانوا يودعون لدينا مجهراتهم وحليّهم القليلة لحفظها وحمايتها. وفي النهاية، وعندما شاعت الأخبار حول رحيلي، جاؤوا وتوسلوا إلينا للبقاء معهم للأبد وأنه لا يوجد لديهم أحد سوانا لمساعدتهم في حل مشكلاتهم، مهدّدين بمنعنا من الرحيل. ولتفادي مثل هذا المنع، عمدنا إلى الانطلاق عند الفجر.

لم تكن السنوات التالية خالية من الإشارات المشجعة؛ ففي أحد الأيام جاءنا شاب عربي إلى بيتنا في القدس، زاعماً بأن عليه أن يحضر أبوه إلينا لعلاجه، وأنه جاء من مسافة بعيدة تزيد عن مئة ميل، مبرهنًا أن درجة الإيمان بوسائلنا وطرقنا كانت قد نجمت عن حياتنا وعملنا في مؤاب. ألم يكن هناك موجب لسرورنا وبهجتنا عندما آثر أكبر زعماء مؤاب، الذي كان قد فقد اثنين من أبنائه في يوم واحد، أن يكرّس وقته من أجل راحتنا وسرورنا، بدلاً من أن يكون وسط أهله وأقاربه يشاركونه عويلهم ونواحهم في هذه المناسبة؟

لقد كان ذلك الرجل أحد هؤلاء الذين تسبيبو بأسرى ودفع فدية لقاء إطلاق سراحه عندما دخلت مؤاب أول مرة.

لا يمكن للرواية حول رحلتي إلى جزيرة العرب، الموجودة في فصول أخرى، أن تُقرأ دون النظر إلى ما وراء السطور، الأمر الذي يشجعنا كثيراً على المضي قدماً

في رسالتنا، حيث أن رغبة الناس في شراء الكتب المقدسة<sup>(1)</sup> واللطف الذي أبداه حيالنا أصحاب المراتب العالية، وأخيراً وليس آخرأً، العناية الإلهية اليقظة واللطيفة والرحيمة، التي ما فتئت تذكرني بأن «الله غالبٌ على أمره» وبقوله تعالى: «سيمجّدني عبادي في الأرض»، تحثنا على ذلك. ولو أن أيّ عامل، سواء في الوطن أو في مجال خارجي، قرأ تلك الصفحات وهو يائس، فليقطع على نفسه تلك الوعود التي لا بد ستتحقق ويتقدّم إلى الأمام، واضعاً نصب عينيه بأن «الطوبى» ليست وعد العامل المجد والناجح، وإنما وعد الخادم المخلص الطيب الذي سيحوز على رضا ربها.

كنت أسير في الشارع المسمى بـ«المستقيم» في دمشق عندما اعترضني رجل لا ذكر أني رأيته من قبل. تفاجأ الرجل لأنني لم أتذكره وقال لي: «لقد تعهدتني بالشهر والرعاية على صحتي بعيداً في معسكرات مؤاب حيث كنت مصاباً في عنقي، وعندما غادرت إلى بلدي وأهلي أعطيتني أحد كتبك. لقد قرأتها جميعاً وأحببناه كثيراً». وقبل مغادرته طلب مني الذهاب إليهم وإخبارهم عن ديننا.

\* \* \*

---

(1) إن صدق فوردر في مزاعمه هذه، فلا بدّ أن يكون السبب ندرة الكتب عموماً آنذاك.



### خيمة بدوية

هذا هو مسكن البدوي المسمى «بيت الشعر». هذه الخيام متينة جداً وثقيلة الوزن وتذوم لسنوات عديدة. الأطراف مشدودة إلى القمة بأوتاد خشبية يبلغ طولها حوالي ستة إنشات. وهي منسوجة ومحبكة بإحكام، ولذا فمن النادر أن يخترقها الماء.



### مخاضات نهر أرnon في مؤاب

هذا النهر الضحل حوض وادٍ عميق جداً ينتهي عند شواطئ البحر الميت. إنه يقسم أرض أهل أرnon وأهل مؤاب. وقد تكرر ذكر هذا المكان في التوراة. بعد الأمطار الغزيرة يندو هذا الجدول الصغير نهرًا جارفًا لا يمكن اجتيازه.

## الفصل التاسع

### في تنافس مع الأطباء المحليين

إن العمل التبشيري بمختلف أشكاله وفي أي مكان يكون دائمًا مصحوباً بفترات من الإحباط وخيبات الأمل. تلك الفترات من الإحباط المقدّرة من عند الله لا حول للإنسان ولا قوة بها، لكن الجميع يقرّ بحصول مثل هذه الحالات، وقد تكون أحياناً نعمة غير ظاهرة لا ندرك كُنهها في اللحظة الحاضرة. ومن دون أن نمر بمثل هذه المحن في حياتنا، فإننا قد نقع في إثم «الكِبَر» أو «الغرور» من خلال أي نجاح صغير نحققه في عملنا، وبذلك فإن وجود شيء من الإحباط ممكن أن يذكرنا أحياناً بنصيحة الرب بأنه «ليس بالقوة ولا بالسلطان يتحقق النجاح، وإنما بحول الله وقوته». ومرة أخرى يمكن أن يعلمنا الإحباط دروساً كثيرة ويخلوّلنا لاكتساب خبرات قيمة، لولا الإحباط لما كنا اكتسبناها. وبالتالي فإن الإحباط الآني يمكن أن يفضي إلى نعمة دائمة، ليس للأفراد فقط، وإنما للمجتمعات أيضاً، حيث أنك تجد في مناطق نيويورك النائية العديد من الأمور المحبطة في أوساط الغافلين والغرباء.

الفكرة المعشّشة في عقل العربي هي أنك متواجد بينهم لمصالح ومنافع شخصية، وليس لمنفعتهم. حاكم الأمة الذي تمثله يرسلك إليهم ويدفع لك المبالغ الطائلة لتبقى بين أقوام غلاظٍ شداد لا يمتّون إلى الحضارة والمدنية بصلة، أو كما أخبروني، فإنه لا بدّ لي في أغلب الأحيان من أن أكون قد قتلت أحداً ما أو ارتكبت جريمة كبرى حتى أرتّحل عن وطني وأعيش بين العرب. مثل هذه الآراء من أولئك الذين تسعى

لخدمتهم تشكل مبعث إحباط كبير وتبطط العزيمة، وليس العكس، وأحياناً ينزع المرء ترك هؤلاء الناس لتخيلاتهم السخيفة والذهاب إلى مكان آخر.

من بين حالات الإحباط الشديد التي عانيت منها، تلك التي مررت بها في أثناء عملي مع الفريق الطبي في الكَرَك، فعلى الرغم من أن العرب هناك كانوا مستعدين بما فيه الكفاية للجوء إلينا وقت الحاجة، فقد كانوا واجه صعوبة في حملهم على التذرّع بالصبر لبعض الوقت ريثما تظهر نتائج العلاج. إذ كان المفروض بإجراءاتنا الطبية والجراحية أن تعطي نتائج فورية على المريض، وكأنها لمسة نبِيٍّ، وإلا فلا يحتاج المريض إلا إلى القليل من الإنقاص كي يتخلّى عن فكرة المعالجة من أساسها ويلجأ إلى إحدى العلاجات البلدية أو الشعيبة التي قد تقتربها عليه إحدى النسوة في الجوار.

لقد كان الطبيب المحلي أو العربي يمثل أكبر عقبة في طريقنا، لأنَّه كان بلا شك غيوراً على مهنته.

وبالرغم من أنَّ المواطنين أقرّوا بأن طريقتنا هي الأفضل وأنَّ أدويتنا هي الأكثر فعالية، فقد كانوا يفضلون أحياناً أن يدفعوا للدجالين المحليين أتعاباً باهظة لبعض العلاجات والعقاقير الموضعية البدائية والمُؤلمة، مفضلين إياها على علاجاتنا المجانية غير المُجربة والبطيئة المفعول.

لم يكونوا قادرين على إدراك وجوب تناول بعض الدواء والعقاقير عن طريق الفم لعلاج صداع أو ألم في الرأس. لماذا لا يتصرف كما يتصرف الطبيب الشعبي ونستخدم المكواة المُمحّمة أو كأس الحجامة على موضع الألم لإزالتها؟ ما نفع السوائل التي تناولها كدواء إذا ما كانت الحمى في جسم الإنسان أمراً عصياً على الفهم. فالكثير بالنار وفصـل الدـم أو الحجـامة، مع بعض العـقـاقـيرـ الخـطـيرـةـ، هي عـلاـجـاتـ لـكـلـ الأـوـجـاعـ عندـ العـرـبـ. وإذا قـمتـ بـغـسلـ الـجـرـحـ وـتـعـرـيـضـهـ لـلـهـوـاءـ أوـ تـجـفـيفـهـ فـهـذـاـ ضـرـبـ منـ جـنـونـ، بلـ حتـىـ خـطـيـئـةـ، منـ جـانـبـيـ. فـهـمـ سـوـفـ يـضـعـونـ عـلـيـهـ جـبـيرـةـ أوـ ضـمـادـاـ مـكـوـنـاـ منـ بـعـضـ الـقـادـورـاتـ وـيـمـنـعـونـ عـنـهـ الـهـوـاءـ، وبـذـلـكـ يـزـيدـونـ الطـيـنـ بـلـةـ. وـمـنـ النـادـرـ أـنـ تـتـاحـ لـلـمـرـيـضـ فـرـصـةـ لـلـرـاحـةـ وـالـهـدـوءـ، بلـ عـلـىـ الـعـكـسـ مـنـ ذـلـكـ، إـذـ سـرـعـانـ مـاـ تـغـدوـ غـرـفـةـ

المريض أو خيمته محجّة للرجال والنساء والأطفال الذين يشكلون مصدرًا للكثير من الصخب والضجة. أعرف العديد من الأشخاص الذين كان بوسعهم البقاء على قيد الحياة لو أنهم استجابوا لنصيحتي، وتحضرني باستمرار إحدى الحالات على وجه الخصوص، حتى أثناء الكتابة.

فبعد ظهيرة أحد الأيام، وفي أثناء تناولي لوجبة طعامي، أتاني أحدهم راكضاً إلى غرفتي وهو يلهث صارخاً « تعال - اركض - أسرع؛ هناك رجل يتختبط بدمه في الخارج! ».. قفزت وأخذت حقيبة الطوارئ وتابعت الرسول دون معطف أو سترة. كان هنالك في أقصى المدينة رجل ملقى في وسط الطريق بين حشد من الناس وسط بركة من الدماء. فقد هاجمه شخص من الخلف طلباً للثأر، حيث كانت بطنه مبورة وأمعاؤه ناتئة خارج البطن. جلست أعمل بمفردي، دون أن يتجرأ أحد على التدخل، خشية أن يموت هذا الشخص المسكين وتقع عليهم الملامة. ثم عمدت إلى تقطيب الجرح البليغ الغائر بحذر شديد، بعد أن أعدت الأجزاء الناتئة من الأمعاء إلى مكانها. وقد أبلى الشخص المصاب بلاً حسناً وتجاوز عتبة الخطير. وفور انتهاءي من عملي، حملوه على بساط إلى بيت قريب، حيث كان من المفروض أن يبقى هناك. أقنعت الرجال بالابتعاد عنه وتركه ينام ويهدأ، وحيث أني أعطيته بعض المسكنات، فقد وعدتهم بالعودة خلال ساعة من الزمن للاطمئنان إلى حاله.

عندما رجعت، وجدت الدار مغلقة. ولدى استفساري عن الأمر، أخبرني البعض بأن أصحاب البيت قد خرجوا إلى خيامهم بعد أن أعنوا الرجل الجريح على الوقوف والانتقال إلى منزل آخر.

وعندما قصدت المنزل المذكور وجدت المكان مكتظاً بالخلق وصاحبنا المسكين في غاية من التعب والإعياء، ومع ذلك فقد كان محافظاً على بقائه مستيقظاً ليتكلم مع هؤلاء الأصدقاء المزعومين. عنّقتهم بشدة، آمراً إياهم بالخروج فوراً، مقرراً البقاء معه بنفسه.

سرعان ما أخلد إلى النوم ورقد بهدوء لساعتين؛ ولدى استيقاظه تركته في عهدة إحدى النساء وتوجهت إلى بيت آخر، واعداً إياه بالعودة، وربما نقله إلى غرفتي كي

يلقى رعاية جيدة. وعندما رجعت عند المغيب، دُهشتُ لعدم وجود مريضي في البيت الذي تركته فيه. فأخبرتني المرأة ببرود شديد قائلة: «لقد خشينا أن يموت، ولا نريد لذلك أن يحدث في بيتنا. ستتجده في بيت آخر».

انطلقت أبحث عنه ووجده من جديد، ولكن حاله كانت متربّدة إلى درجة لا تسمح بتحريكه. أخبروني أنه لم يكن قادرًا على السير، لذلك فقد وضعوه على حمار. وجدت بأن هذا المسكين كان منهكًا للغاية، فمكثت معه إلى أن مات بعد ثلات ساعات. لقد صدق من قال بأن «أماكن الأرض المظلمة مليئة بمواطن القسوة». رجعت إلى بيتي محبطاً يائساً، ولكني تعلمت درساً لا ينسى.

في مناسبة أخرى جرى استدعائي لعيادة شاب يعاني من حرارة شديدة. كان الطبيب المحلي والمرأة قد فعلا ما بوسعهما، ولكن من دون جدوى. ذهبت واستمعت لكل ما لديهم، ثم أخبرتهم بوجوب الكف عن معالجته، كيما أقوه بما أستطيع القيام به. وافقوا على طلبي، وسار كل شيء على ما يرام لبضعة أيام، لكن المريض لم يتعاف تماماً كما كانوا يتوقعون. وفي صباح أحد الأيام ذهبت كالمعتاد، ولكنهم استقبلوني استقبلاً بارداً.

خِمِّنت أن مكروهاً ما قد حدث، لذلك، أعطيتهم الدواء وغادرت. وبعد فترة قصيرة عدت وفاجأتهم بزيارة غير متوقعة، وقبل أن أصل إلى الباب سمعت صرخات الألم، لذا تريثت لدقائق ثم تسللت خلسة صوب الباب واحتلست نظره إلى ما بداخله، فرأيت مريضي ممسوكاً من قبل ثلاثة أو أربعة رجال، بينما عكف آخرون على كيده بحديدة محمّاة على عموده الفقري كانت تجعله يصرخ من الألم. كان الرجال والنساء منهمكين جداً في فعلتهم القاسية لدرجة أنهم لم يتبنوا إلى وجودي، وعندما تكلمت، فوجئوا بوجودي، لكنهم لم يخجلوا من فعلتهم، وكانت حجتهم أن «الديه ألمًا في ظهره، ونحن نحاول إزالته». تركتهم لبضعة أيام، ثم عدت إليهم مرة أخرى لمعالجة ظهره والحمى، حيث تعافى الشاب وظل ممتنًا لي على الدوام.

وفي مناسبة أخرى أحضروا لي طفلًا رضيعاً لعلاجه «لأنه كان يبكي»؛ كانوا قد أعطوه شيئاً ما، لإرضاء الأم أكثر من أي شيء آخر - لأن من عادة الأطفال الصغار البكاء - ثم

مضوا الحالهم، ولم نسمع عنهم شيئاً بعد ذلك. وبعد بضعة أيام كنت في خيام شيخنا، فطلبوا مني عيادة طفلٍ رضيع كانوا قد أحضروه إلي. لدى كشفي على الطفل، وجدت فتحة الشرج متسللّةً ومسوّدةً. وعندما سألهُم عما فعلوه به حتى وصل إلى هذه الحالة، أجابوا «كان يبكي، لذلك دلّك دلّكناه بالمرهم الذي كنت قد أعطيته للشيخ ليدهن به ركبته، لكنه لم ينفع». قبل وقت مضى، كنت أعطيت الشّيخ مرهم اليود لركبته المتورمة، فاعتقدوا أن ما هو مفيد لذلك مفيد لبكاء الرضيع. لا حاجة للقول بأن قبراً صغيراً كان نتيجة مثل هذه المعالجة المتهوّرة. كان لهذه الحادثة تأثير مفيد بالنسبة لي، فقد ثنت هممّي عن إعطاء الأدوية أو العقاقير إلى مثل هؤلاء، ممن يجهلون كيفية استعمالها.

تجربة مماثلة مع عائلة أخرى جعلت صبرنا ينفد بعد أن فعلنا ما بوسعنا لخدمتهم. فقد كان هناك رجل ينْظَف مسدسه المُعَمَّر مع ابنته الصغيرة البالغة من العمر سبع سنوات الجالسة بجانبه عندما خرجت طلقة فجأة مختربة فخذ الفتاة الصغيرة. استنجدوا بنا، ولبيّناهم بكل طيب خاطر حيث كلّفنا إحدى مساعداتنا بعيادتها مرتين يومياً لتضميد الجرح وتقديم كل ما هو ضروري للفتاة الصغيرة. وفي صباح أحد الأيام ذهبت كالمعتاد لتغيير الضمادات، ولكن زيارة العصر أظهرت حالة مختلفة، حيث أنها وجدت بأن كل الضمادات الجديدة كانت قد انتزعت، ووضع بدلاً منها لصوصاً من نفايات مختلفة تثير الاشمئاز. كانت إحدى النسوة المفترض بأنها على قدر من الذكاء والفتنة، قد أسدت لهم هذه النصيحة مقابل مبلغ من المال.

تحدثنا مع الأهل بشأن فعلتهم الحمقاء، ولكن من دون جدوى. وبصبر وأناة قمنا بنزع لصاقة القذارة ونظفنا مكان الجرح، ثم ضمّدناه مرة أخرى. على مدى بضعة أيام سار كل شيء على ما يرام، قبل أن ينقلب كل شيء رأساً على عقب. فقد تم إفحام عظمة إصبع داخل الجرح، حيث أنه من المفترض أن تتسبّب بشفاء إعجازي، الأمر الذي سبب للطفلة الصغيرة ألماً مبرحاً واضطررنا إلى فتح الجرح مرة أخرى. وهنا أيضاً ذهبت كل جهود الرعاية والعناية بالمريض على مدى الأسابيع الماضية أدراج الرياح. كانت الحجة «بأن الطبيب المحلي قال بأنه يوجد دم وقيح داخل الجرح

وعليه أن يخرجه»، فصدقوا وتصرفاً لذلك. لقد كنا محبطين جداً لدرجة أننا رفضنا أن نعالج هذه الحالة مرة أخرى، إلا إذا دفعوا لنا مقابل الضمادات والمشاكل التي سببواها؛ ولكن الطفلة أصبحت عرجاء نتيجة ذلك الهجوم على الجرح بعظامه الإسلامية. سنكتفي بذكر حالة واحدة أخرى، وهي على الرغم من كونها محبطه ومثبطة، فقد أفضت بنا لكسب بعض الصداقات الحميمة في النهاية من بين هؤلاء الذين كانوا يشكلون بالنسبة لنا مصدر المعاناة والعرقلة الأكبر. كان شيوخنا قد ذهبوا في حملة غزو، وأثناء إحدى المนาوشات أصيب الابن الأكبر لشيوخنا وولي عهده لزعامة القبيلة إصابة بليغة في رأسه، حيث تعرضت فروة رأسه لجرح غائر نتيجة ضربة بالسيف.

جرى استدعاءي لرؤيه المصاب في خيمته في مضرب الخيام التي تبعد عن الكرك حوالي ثلاثة ساعات ركوباً، حيث وجدت جرحاً مقززاً محسساً عن آخره بمسحوق البن والطحين «لإبعاد البرودة»، فبدا وكأنه جبيرة من الإسمنت. ولكنني تمكنت بشيء من الصبر والثاني من إزالتها بالتدريج، الأمر الذي جوبه باعتراض المشاهدين المهتمين. وبعد أن انهيت مما تمكنت من فعله خلال الأيام القليلة من وجودي هناك، كان بوسعي في نهاية المطاف أن أترك المريض، واعداً إياهم بالعوده في اليوم الثالث للاطمئنان عليه. وعدوني بأنهم لن يتخلوا بأي شكل من الأشكال بالضمادات التي وضعتها.

وفي صباح اليوم الثالث خرجت في جو عاصف ملتح لأوفى بالوعد الذي قطعه لأهل المريض. وصلت إلى الخيمة وعقلت جوادي، ثم انسدللت إلى الداخل قبل أن يتبه إلى وجودي أحد؛ ويا لهول ما رأيت! كان الطيب المحلبي واقفاً عند رأس مريضي منهمكاً في وضع لصاقة على الجرح مصنوعة من روث حمار وبول بقرة! وقفـت متأملاً لهذا الجنون دون أن ينـيس أحد بـنت شـفة. فـحصلـتـ المـريـضـ،ـ وبـهـدوـءـ أـزـلـتـ الـلـصـاقـةـ عـنـ رـأـسـهـ وـأـلـقـيـتـ بـهـاـ فـيـ النـارـ،ـ ثـمـ طـلـبـتـ مـنـ الطـيـبـ الدـجـالـ الخـروـجـ فـيـ الـحـالـ،ـ فـأـمـتـشـلـ لـأـمـرـيـ دونـ أـنـ يـتـفـوـهـ بـأـيـ كـلـمـةـ.ـ وـبـعـدـ ذـلـكـ أـخـبـرـوـنـيـ بـأـنـ دـوـائـيـ لـمـ يـُـشـفـ الرـجـلـ وـأـنـهـمـ قـامـواـ بـاسـتـدـاعـ طـيـبـ آـخـرـ دـفـعـوـالـهـ خـمـسـ مـجـيـدـيـاتـ (ـمـاـ يـعـادـلـ أـرـبـعـةـ دـوـلـارـاتـ وـنـصـفـ)ـ لـعـلاـجـهـ المـفـتـرـضـ.



### المستر فوردر أثناء جلوسه مع العرب

لا وجود للكراسى في خيام العرب أو بيوتهم، وهي عملياً غير معروفة. طريقة الجلوس المريحة والمعتادة بالنسبة للعرب تمثل بالتربيّع بالقعود على الأرض فوق سيقانهم المطوية بينما تخطي العباءة الفضفاضة أية نواح من الجسم قد تسبب الإخراج عند الجلوس بهذه الوضعية. والعباءات الواسعة والفضفاضة لأهل الشرق مناسبة تماماً لمثل هذه الوضعيّات من الجلوس المريح.

تظاهرةت بأنني أهّم بركوب حصاني لمعادرتهم، ولكنهم توسلوا إليّ بالبقاء لفعل شيء ما. وجدت بأن الدجال قام بحرق كل الضمادات واللصاقات والمراهم التي تركتها؛ لذا فعلت ما بوسعي فعله، حيث أتني قمت بتطهير الجرح مرة أخرى من قذارةاليومين الماضيين. كرروا معي هذه الفعلة ثلاثة مرات، ولكنني ربحت على المدى البعيد وبات المصاب قادرًا على الوقوف والحركة من جديد. لقد أعجبهم السير خلال العاصفة الثلجية، وذلك لأنك عهدى بالذهب في صباح اليوم الثالث. فشفاء الشيخ الشاب كان يُعزى لرعايته ومعالجته الحكيمه، والكثيرون من أفراد تلك العائلة باتوا يكتنون لنا كل مودة واحترام.

كان كل ما سبق من أحداث مرتبطةً بآناس من أنصاف الحضر، وكانوا من بعض النواحي في حالة يرثى لها لجهلهم وطريقة تعاملهم مع أولئك الذين يريدون منهم المساعدة ويسعون وراء صداقتهم، ولكن الوقت قد حان لتحمل الأعباء الأكثر ثقلًا من أولئك المفترض بهم أن يكونوا متحضررين والمصنّفين بمصاف الأمم الأوروبية.

\* \* \*

## الفصل العاشر

### تحت رحمة القتلة وقطاع الطرق والبحار الهائجة

ليس مقدراً الكل ببشر مواجهة الصعوبات والمخاطر والمحن. فالبعض، وفي خلال سنوات طويلة من الحرف الدؤوب والمتأنّي أو بذر الحب في أراضٍ جديدة، عليه أن يتّحمّل أموراً لا علم له ولا خبرة بمن سيقوم بعمليّة حصادها. فالمخاطر والمحن التي تحملها ماكاي من أوغندا Mackay أو جون باتون John Paton في جزر البحر الجنوبي، أعقبها مواسم حصاد وفيرة لأولئك الذين جاؤوا من بعدهم. والعاملون في إرسالية الكرك التبشيرية في مؤاب لم يستدعوا لتحمل صنوف المتابع والمذلة التي تعرض لها أولئك الذين افتحوا تلك البعثة التبشيرية بمواجهة الخطر والتعب والحرمان. ما هو مدى صحة مقوّلات الكتب المقدسة بخصوص العمل في الوقت الحاضر والعديد من العاملين. «إنسان يزرع وآخر يحصد. لقد أرسلتك لتجني دون أن تتّجشم أيّ عناء؛ ورجال آخرون كدوا واجهدوا وأنت كسبت ثمار عملهم». طوبي لأولئك الذين يعملون بجد؛ «فكلاهما، الزارع والحاصد، سيبتهجان سوية».

لسوء الحظ، ينسى الحاصد أحياناً السنوات الطويلة من الجهد المضني للحرث والبذر قبل أن يبدأ بجمع السنابل في حزم. «لذلك أعط لكل شخص ما يستحقه وعامل باحترام من هو جدير بالاحترام» وأغدق المديح على من هو أهل للمديح. لا بدّ لحياة الرّواد والمستكشفين، سواء كانت تبشيرية أو غير ذلك، أن تكون محفوفة بالمخاطر والمحن والإرهاق، فالفرق بين الصنفين هو أن المستكشف أو العالم أو الصياد بشكل

عام يذهب معتمداً على سلاحه الناري أو خبرته المكتسبة بالناس والأرض للإنجاز ما يريد أن ينجزه. بينما يتوجب على المبشر، إن لم يكن يمتلك السلاح أو الخبرة، أن يعتمد فقط على الله من أجل الحماية والهداية في كل الظروف. إن الرجل الذي يمتلك أسلحة نارية سيجد نفسه منقاداً بقوه لوضع ثقته في هذه الأسلحة عند وقوع الخطر، ويضعفُ وبالتالي إيمانه بالله، كما أن إراقة الدم عند العرب تعني عداوة دائمة وغياباً قسرياً طويلاً الأمد عن الناس والبلد الذي وقعت فيه إراقة الدم.

لم يكتب هذا الفصل لاستدرار العطف أو الشفقة، وإنما لتعريف القارئ بأن هنالك رباً يقدر ويدبر وأن حياة المبشر أيضاً ليست عبارة عن سلسلةٍ غير منقطعة من المسارات. لقد كانت المرة الأولى التي تعهدتني فيها العناية الإلهية بالحفظ والرعاية وعززت إيماني بالله الحي القيوم بعد وصولي إلى مؤاب. ففي صباح أحد الأيام، وخالل مداواتي للمرضى المجتمعين أمام بابي، أتى عندي شخص ضخم ضخم الجسم، وهو ابن أحد الشيوخ.

شق الرجل طريقه بين الحشد واتجه صوب خزانة الأدوية خاصتي مطالباً بها كحقٍ مكتسب. لقد كانت بالنسبة له عديمة الفائدة، لكنه كان يعرف أنها ثمينة جداً بالنسبة لي، لأنه بدونها لا أستطيع مداواة الناس، وستنقطع عنني الإعانات الكثيرة لملكة إنكلترا وسأ تعرض لخسائر جمة. رفض الرجل التخلص عن الخزانة إلا إذا أعطيته النقود. وهو لم يطالب بالخزانة فقط، بل دخل البيت وترفع على الأرض قائلاً «لن أبرح هذا المكان حتى أحصل على المال». جلس لبضع ساعات، رغم المحاولات العديدة التي جرت لإقناعه بالرحيل، فقد كان مصرًا على عدم التزحزح من مكانه. وفي غمرة الأخذ والرُّد، لاحظت بأن مفتاح الباب كان في الجهة الخارجية من القفل، لذا فقد نهضت متوجهًا إلى الباب، قاطعاً مسافة الأربع خطوات بوابة واحدة، ثم أغلقت الباب خلفي وأقفلته بالمفتاح، مبقياً زائري غير المرغوب فيه قيد الاحتياز. حينئذ بدأ بالصرخ وركل الباب طالباً بفتحه، لكنني ذهبت بعيداً تاركاً إياه في الداخل. توجهت إلى المدينة واهتديت إلى والد السجين وآخرين من شيوخنا وأبنائهم، حيث

وجدتهم جالسين في حلقة دائرة تحت أشعة الشمس. ذهبت ووقفت وسط الحلقة ثم أخبرتهم بما حدث، وكيف أني أاحتجز السجين عبد الله في بيتي، فضحكوا؛ لكنهم كانوا مستائين من تصرف الشاب. مع ذلك، فقد طلبو مني إخلاء سبيله متعهدين بآلا يزعجني مرة أخرى.

طلبت بأن يذهب معي اثنان أو ثلاثة منهم لإخراجه، فوافقوا؛ ثم انبرى ثلاثة منهم وطلبو مني اللحاق بهم. أعطيت أحدهم المفتاح وطلبت منه فتح الباب، فقام بفتحه ثم دخل. وفجأة خرج السجين من الداخل بقفزة واحدة، ليس للقائي، كما كان يتوقع، وإنما ليرتمي في أحضان أصحابه من الشيوخ. أرغى الشاب وأزبد وأقسم بأغاظ الأيمان أنه عندما يلتقيني في المرة القادمة فسوف يقتلني. وخشيَّة مني بأنه قد أخذ شيئاً ما معه من غرفتي خلال احتجازي له، فقد طلبت منهم تفتيشه. تحسسوا ملابسه ولم يجدوا شيئاً، ولكنني لاحظت بأنه لم يحرك إحدى ذراعيه بحرية، فأمسكت بها ورفعتها قبل أن يتتبه إلى ما كنت أرمي إليه، فسقطت ساعتي الصغيرة من تحت ملابسه، حيث أنه كان يخفيها تحت إبطه، معتقداً أن أحداً لن يتتبه إليها. وفي النهاية، مضوا به بعيداً وتركوني وحيداً وصدى تهديداته لازال يتردد في أذني. لم أسمع عنه أي خبر لمدة ثلاثة أسابيع، رغم سماعي من الآخرين عن تصميمه على إيذائي.

في صباح أحد الأيام كنت متوجهاً وحدي إلى أحد مضارب الخيام لعلاج رجل جريح، عندما لمحت على البعد فارساً قادماً باتجاهي عبر السهول. بدأ يخُبُّ باعتدال، ثم انطلق يعدو بأقصى سرعته. وعندما اقترب مني أكثر، رأيت أمامي سجيني الذي احتجزته منذ ثلاثة أسابيع.

كان مسلحاً برمح طويل، وعندما كان مندفعاً باتجاهي، استلّ مسدساً عن جنبه وصوبه نحو ضاحكاً وهم يقول: «لقد هيأ لي الله الفرصة، وسوف أقتلك الآن وأرمي بجشك في إحدى الحفر دون أن يعرف أحدٌ بمكانتك أو بما حل بك». فأجبته: «إذا لم يعرف أحد، فإن الله سيعرف بذلك وسوف يعاقبك». وعلى الفور خفض الذراع التي تحمل السلاح الفتاك قائلاً: «لم أقابل رجلاً مثلك قط.. لو كنت أحد رجالنا، إذاً لكنت

ميتاً الآن. لماذا أنت لست خائفاً؟» فأجبته: «أنا أثق بالله الحامي من كل مكروه»، «ولذلك لا تستطيع أن تفعل شيئاً». فقال «لا» «عندما قلت بأن الله سيعرف، خارت كل قواي». ثم سألني بعد ذلك عن وجهتي، وعندما أعلمتها بها، أصرّ على مرافقتني كيلا يصيني أيّ مكروه. وفي صباح اليوم التالي عاد معي أيضاً إلى منزلِي، ومنذ ذلك الوقت أصبحنا صديقين حميمين، وكنت ألجأ إليه أحياناً طلباً للمساعدة في الأوقات الصعبة أو عند الحاجة.

وبعد أشهر قليلة خضت تجربة أخرى مختلفة، هذه المرة في الليل. كنت في طريقِي للكشف على صحة زعيم إحدى القرى التي تبعد حوالي ست ساعات ركوباً. وجدته يعاني من جراح بليغة ناجمة عن إصابته بطلقات نارية على يد بعض شيوخ الكَرَك من الشباب نتيجة خلاف سابق على بعض الخراف.

بعد الرعاية والعناية الفائقة التي أوليتها للرجل المصاب على مدى ثمانية أيام، بات بمقدوري العودة إلى منزلِي في الكَرَك. كان هنالك طريقان للمكان الذي كنت قد ذهبت إليه، أحدهما مقفر موحش يمر عبر كتل من الصخور الضخمة المتداعية من أطراف الوادي. سبق أن صحبني أحدهم عبر هذا الطريق من قبل، لكنني عدت وحيداً من طريق آخر.

وعند وصولي إلى غرفتي سألتني زميلتي في العمل، وهي شابة كانت تعيش في البيت المجاور، إن كنت قد تعرّضت لأية مضائقات على الطريق، فأجبتها «لا؛ لماذا؟» فأخبرتني بأن الرجال الثلاثة الذين حاولوا قتل الزعيم الذي كنت أعتني به كانوا مختبئين بين الصخور على الطريق بهدف إطلاق النار علي لدى عودتي. كانوا مستائين جداً لأنني أعتنِي الرجل المصاب على استعادة عافيته، ومن هنا كان تصميهم على قتلي. ولكنني بسلوكِي للطريق الآخر، فقد تمكنت من النجاة منهم. آويت إلى فراشي في تلك الليلة ونمْت في غرفتي وحيداً. وعند حوالي منتصف الليل استيقظت على صوت قرع على الباب. سألت عن الطارق، وماذا يريد؛ لأن من غير المعتمد أن يزعجني أحد بهذه الطريقة. فكان الجواب: «افتح الباب وإلا سنحطمه وندخل، هيا،

بسرعة». فسألتهم من الداخل: «من أنتم وماذا تريدون؟» لكنني حصلت على نفس الرّد مرة أخرى.

نهضت وأوقدت المصباح وارتدت ملابسي، ثم ذهبت لأفتح الباب. ومن دون أية شكليات دخل علي ثلاثة رجال، وجوههم مقنعة بمناديل ظهرت أعينهم فقط. أغلقوا الباب وراءهم ثم قالوا لي: «لقد جئنا لنقتلنك». فتقدمت منهم كل على حدة ونزعوا المناديل عن وجوههم، ثم تعرفت إليهم قائلاً: «أنت بدر، وأنت محمود، وأنت سلامة»، ثلاثةٌ من أقسى وأشرس الرجال وأكثربهم دموية في قبيلتنا. دهشو الفعلتي هذه وتعرفي إليهم. طلبت إليهم الجلوس، ثم أجبت النار في الموقد في وسط الغرفة والتي سرعان ما توقدت واضطربت. وبينما كنت أقوم بذلك وأعد القليل من الشاي، كنت أرميهم بنظراتي خلسة. كانوا يحملون الخناجر والمسدسات الممحوشة بالكامل، حسبما تبين لي لاحقاً، ثم حملوني على الجلوس معهم والإجابة عن أسئلتهم: «لماذا ذهبت إلى أعدائنا؟» «أين كان الرجل المصايب؟» «كيف عالجته؟» «هل سيتعافي؟» وأسئلة من هذا القبيل، والتي أجبت عنها كلها. وبعد ذلك أخبروني عن سبب محاولتهم قتل الرجل وكيف هاجموه وأطلقوا عليه النار، وكم كانوا غاضبين عندما علموا بأنني ذهبت لتطبيه ومداواته. قالوا لي بأنهم انتظروا عودتي لمدة خمسة أيام، وأنهم كانوا عازمين على إطلاق النار علي من خلف الصخور.

ولدى سماعهم بخبر عودتي، قصدوا المدينة من دون علم أحد وقدموا عندي في الليل بنية قتلي. قالوا لي: «سيجدونك ميتاً هنا في الصباح؛ ونكون قد ابتعدنا عن المدينة، ولن يعرف أحد من القاتل». أخبرتهم بأنني لست أخشع الموت، ولكن إذا لم يرهم أحد، فالله سيعرف كل شيء عن فعلتهم، فهو علام الغيوب. استعرضوا أمامي خناجرهم ومسدساتهم، فأخبرتهم بوجوب قتلي بسرعة، أو المضي لحالهم وتركي وشأنني. كانوا يتصرفون ببطء ويتكلمون مع بعضهم بصوت خافت، وفي النهاية قالوا لي: «إذا أعطيت كل واحد منا عشرة مجيديات (حوالي عشرة دولارات) فلن نؤذيك». ولكنني أخبرتهم على الفور بأنني لن أفعل شيئاً من هذا القبيل قط. عندها، خفضوا

المبلغ، وعندما رأوا بأنني مازلت راضياً، بدؤوا بإطلاق التهديدات. ظللت حازماً في موقفى، وتشاوروا مرة أخرى، حيث خلصوا في النهاية إلى مطالبهم لي ببرؤية الفانوس السحري، كونهم سمعوا عنه ولا بد أن يروه بأنفسهم. أخبرتهم عن المشكلة المتعلقة بإخراج الشاشة والفانوس، لكنهم كانوا مصرّين، فما كان مني إلا أن أخرجتها وقمت بتعليقها وإضاءتها وإطلاعهم على الصور. كانوا مسرورين إلى حدّ كبير ببرؤية الصور ومواضيع الكتاب المقدس وتعليقاتي عليها بكل دقة وصدق.

بعد مشاهدتهم لحوالي عشرين صورة، طلبوا مني أن أرّيهم تلك «التي تموج وتضطرب» يقصدون الكروموفروب The chromotrope، فوضعتها وجعلتها تدور داخلًا وخارجًا وداخلًا وخارجًا، حيث كانوا في غاية السرور. وخلال التفات أحدهم لرؤيه المصباح، لاحظ بزوع الفجر وأخبر الآخرين، فقالوا بأنه يجب عليهم أن ينهوا ذلك العرض على الفور، وإلا فسيراهم الناس خلال مغادرتهم، ويطالبونهم بالتعريف عن شخصياتهم وتبير وجودهم في الخارج في مثل هذا الوقت المبكر. طلبوا مني أن أعدّهم بعدم التوجه مرة أخرى إلى أعدائهم، ولكنني رفضت، فطلبوا مني أن أعطيهم عهداً بآلا أخبر أحداً عما فعلوه في تلك الليلة؛ ونزو لا عند رجائهم، استجبت لطلباتهم، ثم مضوا الحال سبليهم تاركيني أتأمل أحداث الليلة والعناية الإلهية المدهشة التي وفرت لي الحماية والمؤازرة.

وفي حادثة أخرى، كنت جالساً مع اثنين من عاملاتنا في غرفة الجلوس بعد انتهاء عمل اليوم، عندما فتح الباب بقوة ومن دون سابق إنذار، ودخل علينا شاب يدعى فلاح، وهو ابن الوحيد لأبيه، أحد كبار شيوخ المنطقة. كان هذا الشاب معروفاً بجرائمها وإقدامه، وهو ما حدا به لدخول بيت فيه فتاتان عازبتان.



### البدويات بنات الصحراء

هؤلاء النساء يمثلن بالضبط الملائكة من النساء اللاتي يعيشن في الخيام في عزلة الصحراء. عباءاتهن الفضفاضة مصنوعة من قطعة واحدة من القطن الأزرق. عدد لا يذكر من النساء يتعلن الأحذية أو حتى الصنادل، ومعظمهن من المدخنات. وهن يؤمنن بالعديد من الخرافات حول «العين الحاسدة» الأمر الذي جعل من الصعب على أن ألتقط لهن صوراً. لقد كانت مكرمة عظيمة بالنسبة للسيد فورد السماح له بتصوير هؤلاء النساء.

تصدّيت له قبل أن يتوجّل أكثر داخل البيت وأمرته بالرحيل، لكنه سخر مني ورفض المغادرة. وعندما وجدته معانداً، أمسكت به من قفاه، وقبل أن يتبنّه لذلك، دفعت به، ليس فقط خارج المنزل، وإنما خارج البوابة الخارجية أيضاً. إنّ معاملتي له بهذه الطريقة قد جرحت كرامته، فبدأ بالصياح والتهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور. ولدى سماعه لصوت الصياح والجلبة، حضر ابن صاحب البيت من غرفته القرية محاولاً تهدئة الشاب، مخبراً إياه كم تختلف عاداتنا عنهم وغير ذلك من مثل هذه الأمور. لكنه أرغى وأزيد وأسرع إلى أحد البيوت المجاورة ثم عاد ومعه بندقية. وبعد أن لقّمها بطلقة حية ووضع أخرى في يد ابن صاحب البيت تأكيداً على ما قاله – وهي عادة شائعة فيما بينهم – أقسم على أنه لن يغمض له جفن أو يذوق أي طعام حتى يقتلني. ثم استدعى إبراهيم ومحمد وآخرين ليشهدوا على قسمه الذي أخذه على نفسه. في هذه الأثناء، كان الكثير من الناس قد تجمعوا على صوت الصراخ والجدال وأتوا ليستطعوا الخبر. كنت في الداخل مع النساء، ولم نكن ندرى بالأحداث التي كانت تجري في الخارج. كنا نؤدي الصلاة في وقتها، وبعدها خرجت للذهاب إلى غرفتي. كان الشاب الصغير متخدّداً فوق السطح، ولكنه لم يرني أثناء مروره إلى غرفتي.

توجهت إلى سريري، ولكن خياله فوق السطح مازال في خاطري من خلال القرع المتواصل من عقب بندقية فوق أرض السطح. ظل متيقظاً طوال الليل، إلى أن طلع النهار. وأثناء اجتماع الناس عندبابي من أجل العلاج، ولدى سماعهم القصة، راعهم ما يجري، وقلقوا كثيراً على حياتي. نهضت وتناولت فطورى، ثم شرعت بمعايناتي الطبية الاعتيادية، مخالفًا رغبات أبناء المنطقة. كان الشاب الموجود على السطح يصرخ ويتوعد بشتى أنواع الوعيد والتهديد. تحاملت على نفسي قدر المستطاع، ثم خرجت وصعدت إليه مباشرة، قائلاً: «إذا كنت تريدينى، فها أنا، افعل بي ما بدا لك، وإنما أنا صرف من هنا». فخنعت وتصاغرت ولم ينبس ببنت شفة. كنت مصراً على رحيله عن السطح وتركي أعود لعملي. وبعد شيء من التردد، نزل، فلتحقت به. وفور نزوله

قال لي «سوف أصييك بالرصاصة عندما ألتقي بك لوحديك». عندها قام بعض من الوجهاء من أهل المنطقة بتهديته لبعض الوقت بعض القهوة المرة، لكنه كان مصرأً على قراره بإيذائي بسبب قسمه والرصاصة التي أعطاها لابن صاحب البيت كضمان لقسمه، والتي رفض أن يسترّها، على الرغم من حث الآخرين له على فعل ذلك. التقيت هذا الشاب في ظروف مغايرة ومحزنة للغاية والتي يجدر بي أن أرويها للقارئ، تصديقاً للممثل العربي: «إن جبلاً لن يلتقي مع جبل قط، ولكن إنساناً قد يلتقي إنساناً آخر». علمنا هذا المثل أن من الأفضل لنا عند الافتراق أن تكون أصدقاءً، وليس أعداء.

كانت هنالك حفلة عرس مُقامة في إحدى مضارب الخيام التي تبعد حوالي أربع ساعات ركوباً شمال الكرك، وقد دعي جميع شيوخ القبيلة الشبان للمشاركة في الاحتفالات. وكما هو متعارف عليه فإن الشباب في مثل هذه المناسبات يقومون ببعض الألعاب البهلوانية على جيادهم ويتسابقون ويتصارعون، ويبدو بأن الخيول تستمتع بهذه الألعاب بقدر ما يستمتع الفرسان. وفي أثناء عرض لقتال صوري، أصابت طلقة طائفة صديقي المزعج الذي جمعني به القدر قبل بضعة أسابيع بينما كان يخترق بحصانه مسرعاً عبر وابل من النيران المتقطعة، حيث اخترت الرصاصة الرُّغامي. حُمل المصاب إلى إحدى الخيام ثم أرسل إلى أحد الفرسان، حيث أن اسم الرجل المصاب أبقي طي الكتمان. وأثناء وصولنا إلى المخيم، أخذوني إلى الخيمة لأرى فلاحاً ممدداً على الأرض وهو بحاجة إلى عناية فائقة. كانت كلماته الأولى التي تلفظ بها بصعوبة هي «كيف رضيت بالمجيء بعد الطريقة التي عاملتني بها؟» فكان جوابي على طريقتهم: «عفا الله عما سلف، وما فات قد مات».

فعلت ما بوسعي من أجله على مدى خمسة أيام بلياليها. وفي عصر أحد الأيام كان متكتئاً على يدي وكانت أطعمه قليلاً من الحليب عندما سقط على صدرني فجأة وأسلم الروح. والخطب الجلل هو تلك الحالة من الذعر التي سادت بين الحشود المتعاطفة في الخيمة، حيث بدأت النساء بالصرخ والعويل وتمزيق الملابس، بينما

انكبّ الأقرباء المقربين على الجسد يعانونه ويقبلونه والرجال يفركون الأيدي من الحزن أو يقصّون شعورهم كإشارة على الحزن الكبير.

وفجأة انطلقت صرخة «الشأريار جال!»، حيث انتفض الرجال وتناولوا بنا دقهم ثم امتطوا جيادهم وانطلقوا لا يلوون على شيء باتجاه مضارب القوم الذين يتميّز إليهم الشاب الذي أصابت رصاصة بندقته ابن الرعيم وتسبّبت بموته. لا وجود عند العرب لما يسمى بالقتل الخطأ أو القتل غير المقصود، فالعين بالعين والسن بالسن، مهما كانت الأسباب. انتهزت هذه الفرصة لمعادرة المكان على متن الحصان الوحيد المتبقّي، حيث كنت أول من أوصل الأخبار السيئة للمدينة. قال لي أحدّهم في تلك الليلة «لقد أقسم فلاح على إعطائك الرصاصة، ولكنّه نال واحدة بنفسه؛ إنه أمر الله ولكل أميرٍ نصيبه الذي قدّر له في هذه الحياة». وفي صباح اليوم التالي جلبوا الجثة لدفنها، وكان مشهداً لا يُنسى أبداً.

لاستكمال هذه الحادثة لا بدّ من التنويه بأن القاتل المفترض عندما رأى الخيالة المسلحين قادمين باتجاه الخيام، استنتاج ما حدث، ولاذ بحماية زعيم القبيلة، فنجا بروحه.

إضافة إلى عقوبة النفي فيما بعد لمدة سنتين وخسارة كل ممتلكاته، فقد استولى أقارب القتيل على جميع ممتلكاته الموضوعة تحت الحصانة لقاء خسارة ابنهم الفقيد.

من الحوادث الأخرى التي نجوت منها بأعجوبة، حادثة جرت بطريقة معايرة وفي ظروف مختلفة جداً. كنت في القدس في طريق عودتي إلى الكرك، وكان علي أن أسلك طريق الخليل باتجاه الطرف الجنوبي للبحر الميت، وهو طريق يتجمّبه الركبان عادة لسبعين: قلة المياه، وخطر اللصوص وقطع الطرق، لأن الطريق عبر أريحا وما دبا كان تحت سيطرة إحدى القبائل العربية المعادية لكل قبائل الكرك. كان بصحيبي ثلاثة من العرب، أحدهم عجوز يدعى سالم، سافر معه كثيراً وأثبت دائماً بأنه رجل وفاء وإخلاص وأدين له بحياتي في هذه المناسبة، دون أن نستثنى بالطبع العناية الإلهية الحكيمية.

كنا نسير على امتداد الساحل الشرقي للبحر الميت عندما وصلنا إلى جدول صغير حيث قررنا التخييم نظراً لأن الشمس كانت على وشك الغروب. كان المكان صخرياً جداً ونحن بشكل عام لا نختار مثل هذه الأماكن، مفضلين أراضي العراء ما أمكن، لأننا بذلك نستطيع أن نرى أي شخص أو أي شيء يقترب منا.

نظرًا لأنعدام وجود أيّة مصادر مياه أمامنا، كان علينا المكوث، وإن لا سيقتلنا الظماء. تناولنا عشاءنا وعلقنا المخالف على رؤوس الجياد، ولكن لاحظنا بأنها لم تتناول شيئاً. قال لي سالم العجوز: «الدواب متململة ومحجمة عن تناول طعامها». مرّ الوقت، وما زالت جيادنا الصبوره محجمة عن تناول الطعام، لكنها كانت في حالة لافتة من التململ والهياج. وبأذانها المتتصبة ورؤوسها المشربة بدت وكأنها تتشفّف أمراً ما، ثم بدأت تتلفت، طوراً إلى اليمين وطوراً إلى الشمال. أدرك العربي العجوز الخبر بشؤون الخيل من تصرفاتها أن هنالك أحداً ما على مقربة منا، وقد لمحته الجياد يتحرّك هنا وهناك، على الرغم من العتمة. كان هذا الأمر هو السبب في تململها وهياجها وإحجامها عن الطعام. حزمنا أمرنا جميعاً على استطلاع الأمر، لكنني كنت مرهقاً من سفر يوم طويل، لدرجة أنني سرعان ما أخلدت للنوم أسفل إحدى الصخور الكبيرة.

كان الوقت حوالي منتصف الليل، وكنت بين النوم واليقظة، عندما شرعت الجياد بالصهيل دفعة واحدة وبشكل متزامن تقريباً، بفارق لحظات بين جواد وآخر. عندئذ قال سالم العجوز: «هيا، انهض بسرعة». نهضت مذعوراً لأرى ثلاثة رجال يفرون تحت جنح الظلام لا يلوون على شيء. كانوا قد تسللوا إلينا متخفين وراء ستار من الصخور الضخمة، معتقدين بلا شك أننا جميعاً نائمين.

ولكن الجياد لمحت الأقرب إليها ونبهت سالماً، الذي لمح بدوره الرجل الأكثر قرباً واقفاً فوقه وبديه حجر ضخم كان يتهيأ لإسقاطه على رأسي في آية لحظة بهدف قتلي. وبما أنني قفزت بسرعة، فقد أخطأتني الصخرة ولم تصيبني بأي أذى، ثم انسلّ الرجال هاربين عندما تبيّن لهم بأنّ أمرهم قد انكشف.

وبعدها سكنت الدواب وهدأت وتناولت طعامها. أما العجوز سالم فلم يغمض له

جفن. قال لنا بأن اللصوص ربما يعودون قبيل الفجر تحت جنح العتمة، ظناً منهم بأننا مرهقون من السهر والترقب، لذلك علينا أن نكون متلهفين لهم». وكما توقعنا، فقد جاؤوا مرة أخرى في الوقت المرتقب، ولكن النار الموقدة أعطتهم إنذاراً بوجودنا. وعند الفجر حملنا الدواب وواصلنا مسيرنا. لم نعرف أبداً من كان أولئك اللصوص، أو من أين أتوا أو أين ذهبوا. كنا ممتنين لنجاتنا منهم وقدمنا لجيادنا وجبات إضافية مكافأة لها على إنذارنا بوجود أعداء. وفي صباح اليوم نفسه التقينا بعصبة من الأشرار المتهورين الذين يفوقوننا عدداً وعددًا، حيث قاموا باستباحة متعانا بعد أن أشععونا ضرباً ول珂ماً، نالني منه بعض الكدمات والرضوض الناجمة عن ضربات الهراءات الغليظة، لكنني اعترضت على ما يفعلونه.

كل ما واجهناه من محن وأخطار وما كتب لنا من نجاة وخلاص في المرات السابقة كان على اليابسة، باستثناء حادثة واحدة سأرويها لكم حدثت لنا على سطح الماء - ليس في المحيط الأطلسي ولا البحر الأبيض المتوسط، بل في البحر المالح التاريخي، المعروف بالبحر الميت. من ناحية أخرى، فقد حدثتنا ذكرياتنا لسقوط اسم «الميت» ونستبدلها بـ«الحي». حدث ذلك في سنة 1895 إذا لم تخنني الذاكرة. كنت قدماً من الكرك باتجاه القدس لاصطحاب زوجتي ورضيعي ذي الأربعه الأشهر. كان من المقرر، وفق جدول الرحلات، أن نبحر على متن قارب شراعي كبير كان متوجهًا، حسبما تكون الريح مؤاتية، إلى أقرب نقطة في الطريق إلى أريحا شمالاً ومؤاب شرقاً. بسلوك هذا الطريق يمكن اختصار زمان الرحلة إلى الكرك ثلاثة أيام، وبقدر أقل من العنا.

كان من المقرر للقارب أن ينطلق مع غروب الشمس، واتخذنا كل الترتيبات على هذا الأساس. لذلك، قمت بإرسال حوائجنا الثقيلة على البغال، على أن يلاقي بعض أبناء الكرك القارب عند الجانب الشرقي وينقلونا إلى المدينة. كان بصحبتنا صديقان بغرض القيام بزيارة إلى الكرك، إضافة إلى طفلي وزوجتي وأنا. وصلنا نقطة الانطلاق على الشاطئ في الوقت المحدد، وشاهدنا أمتعتنا القليلة توضع في القارب، ومن ثم اتخذنا أماكننا.



### السواحل الشواطئ الشمالية للبحر الميت

تظهر هذه الصورة القارب الوحيد على البحر الميت. كان القارب عائداً لتو من رحلة شاقة في البحيرة حينما التقطت الصورة. يظهر الزبد مدى قوة البحر التي ترطم بها الأمواج على الشاطئ الحصوي.



### العرب يستمتعون بتناول وجبة جماعية

يقضي العرفُ عند العرب أن يقدمَ الطعام في طبقٍ كبيرٍ. يدعو الرعيم الضيوف ليجلسوا معه لتناول الطعام، لكنه لا ينضمُ إليهم، فهو يعده شرفاً له أن يخدمهم، وفي غياب الملاعق والشوك، على الأيدي أن تتكلف بالمهمة.

كان القارب محملاً بالعوارض الحديدية والأخشاب من أجل الحكومة في الكرك. هب علينا نسيم منعش من جهة الشمال أبحرنا معه على بركة الله. سار كل شيء على ما يرام لمدة خمس ساعات. طلع البدر، وأضاء الكون، وأدركنا بأننا بتنا قاب قوسين أو أدنى من هدفنا. لكن وTİة الرياح قد ازدادت حدة، وكنا منطلقين بسرعة لا يأس بها. كان ملاحانا الاثنان، كما هي حال العرب الأقحاح، يغطان في نوم عميق، في وقت كان يجدر بهما أن يكونا في أقصى درجات التركيز. وفجأة توقف القارب، ثم مال على جانب واحد، وبدأت الأمواج بالتدفق إلى الداخل حيث بللتنا بالكامل قبل أن نتهيأ لهذا الوضع. ولقد تبلّ الرضيع المسكين أيضاً مثل الآخرين. أيقظ التوقف المفاجئ الرجل الموكل بإدارة الدفة، ثم سرعان ما تبينا بأننا قد انجرفنا إلى شط رملي. كنا منطلقين بسرعة كبيرة أدت إلى انغراس مقدمة القارب بعمق داخل الرمال، حيث بات من المتعدد تحريكه. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والربع والقمر بدراً. حاول الرجال تحريك القارب بدفعه إلى الخلف؛ ثم نزلنا إلى الماء الذي وصل عمقه إلى مستوى الصدر ودفعنا بكل ما أوتينا من قوة، ولكن من دون جدو. رميأنا بالجسور والعوارض الحديدية إلى الماء ومن بعدها عوارض الخشب الكبيرة، ولكن القارب لم يتزحزح. بدأ الطفل يبكي من أجل الحليب، وكان عليه أن يقنع به بارداً، حيث كان من المستحيل لأيّ موقد كحول أن يبقى مشتعلًا للحظة واحدة في هذا الجو العاصف الماطر.

في هذه الأثناء، بدأ القارب يميل أكثر فأكثر إلى جهة واحدة، لذلك عمدنا إلى اعتلاء الجانب الأكثر ارتفاعاً عن الماء. قدّرنا بأننا كنا قريين من اليابسة، نظرًا لوجود نبات القصب بالقرب منا. نزلنا إلى المياه وانطلقنا سباحة باتجاه اليابسة، حيث سرعان ما وجدنا بأن الطين كان كثيفاً والمياه تزداد عمقاً كلما اقتربت من القصب. لذلك رجعت إلى القارب بانتظار بزوغ الفجر. بدأنا بإطلاق الصرخات والنداءات إلى أن بُحّت أصواتنا آملاً أن نلفت انتباه أيّ عربي قد يصادف وجوده بالقرب من المكان، ولكن دونما جدو. وبعد العديد من المحاولات والتسللات لإبراهيم ومحمد من أجل العون، قال اثنان من ملاحينا بأنهما

سيذهبان سباحة في محاولة لطلب النجدة. ثم انطلقوا بعيداً تاركينا لوحدهنا إلى ما بعد طلوع الفجر. وبعدها لمحناهم على البعد عند الشاطئ وهم يتقدمون باتجاهنا يتبعهم أصدقاؤنا العرب من أصحاب النخوة والمروءة الذين كانوا يتظروننا على الشاطئ بناءً على طلبنا. كانوا قد سمعوا نداءاتنا المتكررة في الليل، ولكنهم ظنوا بأنه صرخ العرب المجاورين الذين يحاولون إبعاد الخنازير البرية عن الجبوب والحقول، لذلك لم يستجيبوا للنداءاتنا. قمت بجولة واحدة نحو اليابسة سائراً عبر ماء البحر والطين لمسافة ثلاثة ياردات، وبعد أن باتت لدى فكرة عن الطريق، عدت إلى القارب وأخذت الطفل ثم حملته إلى اليابسة، رافعاً إياه عالياً فوق مستوى الماء.

يبدو أن طفل الرضيع قد استمتع بالرحلة أكثر مني، حيث أودعته بأمان عند أحد أبناء العرب على الشاطئ ريثما أعود إلى السفينة الجانحة. اضطررت زوجتي وصديقتنا للنزول إلى المياه، حيث تسببت تنانيرهن المشبعة بالماء بصعوبة التقدم وببطء الحركة، ولكن بمساعدة أصدقائنا العرب من أصحاب المروءة، تمكنا في النهاية من الوصول إلى اليابسة واللجوء إلى الخيمة الموجودة بالقرب من المكان. في خلال جولة أو اثنتين ذهاباً وإياباً إلى القارب تمكنا من جلب حقائبنا المبللة بالمياه المالحة لـ «البحر الحي» إلى اليابسة. ظل القارب متترساً في مكانه لبعض الوقت، لكن في النهاية تمكّن العرب من أبناء المنطقة من تحريره بفضل تضافر جهودهم. كان رجالنا على قدر كبير من البقاءة وحسن التقدير، إلى درجة أنهم أعدوا لنا قدرًا كبيراً من حساء الدجاج بالأرز وإبريق شاي لذيد، احتسينا منه كمية لا بأس بها. أخذ البعض على عاتقهم غسيل ملابسنا بماء الجدول العذب القريب، وأنثناء ذلك توارت النساء في الخيمة ريثما تجفّ ملابسهن تماماً. تجولت خلسة في أنحاء المكان مرتدية سروال صديقي، ريثما يجف سروالي. ولحسن الحظ كان الموقع الذي نزلنا فيه في السهل دافئاً جداً، وإنعكس ذلك سلباً على صحتنا بعد كل ما تعرضنا له في الليل من رياح وأمواج. فقد كنا ممتنين لنجاتنا بحياتنا على الرغم من خسارتنا لكل شيء تقريباً.



## الفصل الحادي عشر

### تغيرات غير مرئية ومزيد من المضايقات

مرت السنوات الثلاث الأولى من حياتي بين العرب مرور السحاب؛ وعلى الرغم من أن تلك الفترة لم تكن تخلو من المثبطات والمعوقات والفواجع، فقد أمكن التصدي لهذه المنغصات بالثبات على السير قُدماً وتجاوز الإساءات وإنشاء صداقات متينة، حيث بدا أن كل الأمور كانت تسير سيراً حسناً وتبشر بمستقبل واعد.

التقيت خلال إحدى زياراتي القصيرة لمدينة القدس بزوجتي الثانية، حيث كان قد مضى بعض سنوات على وجودها في تلك البلاد وكانت قد ألغت لسان أهلها. كانت أهدافنا واحدة، ألا وهي خلاص الناس. فعدنا سوية إلى مؤاب Moab حيث عاشت معي إلى أن أرغمنا الظروف على الرجوع إلى القدس. ويعود فضل الكثير مما هو مدون في هذه الصفحات إلى استعدادها للمكوث في البيت ورغبتها في ذهابي إلى أماكن مجهولة كيما يتهيأ لي طريق الرب في الصحراء. دعنا لا نسمح لعبارات الشكر والإعجاب من جانب واحد أن تكون بأي حال من الأحوال نتيجة قراءة هذا الكتاب، بل ليستذكر الجميع بأنه «طالما كان عهده هو النزول إلى ميدان المعركة، فسيكون دوره التريّث والانتظار داخل داره».



### المسن فوردر زوجة الكاتب

المسن فوردر امرأة اسكتلندية تعيش في المشرق منذ سنوات عديدة وتتكلم اللغة العربية، وهي محبوبة جداً من قبل العرب إذ أنها معروفة بالنسبة لهم. منذ عشر سنوات غير العرب اسمها إلى «أم جریں» يعني أم جورج، تكريماً لابنها الأول جورج، وهي متقارنة جداً في الوقف إلى جانب زوجها في عمله بين العرب.

المكوث في البيت لأسابيع وأشهر دون أية أخبار أمر أكثر مشقةً بكثير من الغياب الفعلى والقلق والترقب، والذي تفاقم وطأته الإشاعات والأقاويل حول قطاع الطرق والمجرمين.

كانت وتيرة العمل قائمة على قدم وساق في الأبنية الجديدة، التي كانت محطةً لإعجاب ودهشة أهل الكرك Kerak؛ وكان العمل في المدرسة والمستشفى والكنيسة يسير على قدم وساق بوتيرة منتظمة ودرجة مشجعة من النجاح.

وفي أحد الأيام تناهى إلى مسامعنا إشاعات عن الجيش التركي القادر للسيطرة على إقليمنا وإنشاء عاصمةً مدنيةً تتمرّك فيها حامية عسكرية داخل المدينة التي كان نقطن فيها بالذات. أحذنتنا هذه الأنباء لأننا كنا ندرك بأن مجيء الأتراك كان يعني معارضته عملنا وعرقلته، ويعني كذلك القهر والاضطهاد وفرض الضرائب المرهقة وإراقة دماء الأهلين. ولم يطل بنا الأمر كي نشاهد ونعايش حدوث كل هذه الأمور.

لم يكيد يمضي سوى أسبوعٍ قليلة على هذه الإشاعة حتى بدأآلاف الجنود بإقامة معسكرات لهم في السهول قبالة بلدتنا الجبلية. فقد جرى نصب بطاريات مدفعية الميدان فوق قمم التلال المشرفة على المدينة وجرى إعداد كل الخطط اللازمة لاحتلال المكان.

تملكت الناس حالةً من الذعر والقلق وفرّ الأطفال والنسوة إلى المخيمات أو الجبال على الجانب الغربي من بلدة الكرك باتجاه البحر الميت. استعدّ الرجال للذود عن مدیتهم وبيوتها ومواجهة الجيش الغازي حال محاولته دخول المكان.

أبلغنا بوجوب المغادرة في الحال، لكننا آثروا البقاء أسبوعاً كاملاً؛ وفي كل يوم كانت القوات الغازية تحاول تسلق المنحدرات الجانبيّة لتلك البلدة المؤابية. جرى صدّ الغزاة وردهم عن المكان بفضل جلاميد الحجارة الضخمة التي جرى دحرجتها من فوق من قبل الأهالي ورصاصات أولئك الذين كانوا يحملون بنادق. أخيراً، وعن طرق الرشوة والوعود بالأموال الطائلة والهدايا النفيسة، سمح أعيان مؤاب ووجهائها

للقائد التركي المخادع بالدخول، مصدقين إيه عندهما قال: «سنمكث لمدة ثلاثة أشهر فقط». ومع أزيز الرصاص من فوق رؤوسنا في كل ساعة من ساعات النهار وبطاريات مدفعية الميدان قبالتنا فوق قمم التلال المشرفة على المدينة وجيشه متعرّض مسحور يتلهف للسيطرة، بدأنا في خضم ظروف كهذه بخوض تجربة ناظم المزامير: «الرب هو نوري وخلاصي؛ فمن غيره أخاف وأخشى؟ الرب هو حولي وقوتي، فمن ذا الذي يخيفني بعد ذلك؟... مهما حشد لي الناس، فلن يزيدني ذلك إلا إيماناً؛ ومهما اشتدت الخطوب من حولي، فإن إيماني بالله لن يتزعزع».

لن يمحو الزمن من ذاكرتنا أبداً ذكرى ذلك اليوم الأليم الذي دخل فيه الجيش التركي مدينة الكرك في نوفمبر من عام 1893. ومنذ ذلك التاريخ وبعد ثلاث سنوات أخرى من العرقلة والمعارضة والإذلال، أرغمنا أخيراً على الانسلاخ عن أصدقائنا العرب الحميمين وعن الأرض التي كانت قد أصبحت أميناً، بالتبني، وبفضل كرامة موتنا الذين ووروا ثراها، كما كان أصدقاؤنا العرب يذكروننا دائمًا.

كان الرجل الذي جرى تعينه حاكماً للإقليم الجديد قائداً سابقاً للمجازر في أرمينيا، ومكافأة له على نجاحاته على تلك الصعد، فقد تمت ترقيته لهذا المنصب الرفيع. تسلّم القائد الجديد مقر إقامته في دار كاهن طائفه الروم وقام بتحويل مدرسة البنين إلى دار للمحكمة. وفي اليوم الذي أعقب وصوله طلب حضورنا، ثم أبلغني أنه منذ ذلك التاريخ فما بعد بوجوب وقف العمل بالمدرسة والمستشفى.

قال لي: «أنت موضع محبة وتقدير كل هؤلاء الناس، وطالما أني قد جئت من أجل السلطان التركي فعليك أن ترحل. إذا أنا لم أستطيع تأليب الناس عليك وإبعادهم عنك، فسأمنعك عنهم بالقوة والإكراه».

جرى نشر قوة من العسكر حول مكان إقامتنا للحؤول دون قدوم الناس إلينا؛ وإذا ما صدف أن تستنى للبعض الوصول إلينا وضُبط أثناء المغادرة، كان يصار إلى اعتقاله وزجه في السجن وتغريمه بمبالغ باهظة.

عمد أعيان ووجهاء المدينة إلى الاحتجاج لدى الحاكم، ولكن من دون جدوى. وقد جرى نقاشهم معه على النحو التالي: «لقد حرمتنا من العون والمدد الذي كان أصدقاؤنا يمنون به علينا أوقات المرض أو الشدّة، وأغلقت المدارس التي كان أبناءُنا يتلقون العلم فيها، ومنعت أصدقاءنا من زيارتنا، دون أن تقدم لنا شيئاً في مقابل ما كان الإنكليز يقدمونه لنا».

أما الرجال الذين كانوا قائمين على الأبنية الجديدة تحت إشرافي، فقد جرى طردهم من عملهم مرة بعد مرة من قبل العسكر الذين كانوا يلهبون ظهور العمال الأبرية بجلدات سياطهم الأليمة.

التقيتُ بالحاكم مرات عديدة طالباً منه أن يعيد لي أدواتي وأن يمنح العمال حرية العمل لدّي. فكان يقول لي في كل مرة: «لو كنت عربياً، أو أحد أتباعنا بالذات، لكنت أمرت بقتلّك منذ وقت بعيد، لأن أحداً لم يسبق له أن كلامي أو تعامل معني بالطريقة التي كلامتي وتعاملت معني بها».

كان عليه في كل مرة أن ينزل عند رغباتي، ولكن بعد سلسلة من المقابلات العاصفة التي كانت تتطلب أكبر قدر ممكن من اللباقة والكياسة والأناة والحكمة.

لا زلت أذكر جيداً إحدى المناسبات التي أفلحتُ فيها في حمل هذا الطاغية على الامتثال لطلباتي. فقد تم إبلاغي في أحد الأيام بأن أفضل رجالي، «الصديق الوفي» Old Faithful كما كنت ألقبه، قد ذُرّجَ به في السجن دون أي سبب واضح، وقد توسل إلى والده العجوز للعمل على إطلاق سراحه، مؤكداً لي عدم وجود أي سبب لسجن ولده وصديقي. توجهت إلى الحاكم في الحال واستوضحته عن سبب اعتقال الرجل والزوج في السجن، فأجابني بأن السبب هو قوله بأنه سيعتقد المسيحية وبأنه سيواطّب على الحضور لمنزلنا وإحضار البيض والحلب لنا. وهذان التصرّيان كلاهما كانا زائفين وجرى تلفيقهما من قبل بعض خصوم «صديق الوفي».

أخبرت الحاكم بأن التهم كانت باطلة وبأنه لم يسبق لي رؤية الرجل لأكثر من شهر،

وأنني كنت أسعى لإطلاق سراحه في الحال. فما كان من القائد التركي المتحجر القلب والمخادع إلا أن أطلق ضحكة ازدراء واحتقار، وقال: «أنت موضع محبة كل هؤلاء العرب، الذي لا يكفون عن كيل المديح والثناء عليك أمامي كل يوم، معتبرين إياك بمثابة أب لهم. لقد حاولت إبعاد هؤلاء الناس عنك وثنיהם عن التعلق بك، لكنني سأرغمهما الآن على قطع علاقتهم بك، والرجل الذي هو الآن في السجن سيكون بمثابة قدوة وتحذير للبقية، لأنني سأعامل الجميع على هذا النحو، ولن يهدأ لي بال حتى أرغنك على الرحيل عن هذه البلاد. لن أطلق سراح الرجل، ولبيق في السجن لردد من الزمن كي يكون عبرة لآخرين، فلا يجرؤ أحد منهم على عصيان أو أمري».

وأمام حشد من الأعراب والوجهاء وال العسكري بقيت مصرًا على رأيي. وعندما يئست من إذعانه لرجائي، قلت له: «لن أبرح غرفتك التي أجلس فيها الآن حتى يُطلق سراح هذا الرجل ويسلم إلي». بقيت ساعات جالساً هناك وهو يطلب مني المغادرة مرة بعد مرة، مؤكداً لي أن لا جدوى من انتظاري. وحان وقت العشاء وأنا لا أزال هناك؛ وحان وقت النوم وأنا مستعد للhibernation هناك. على ذلك المسؤول أن يفهم بأن موقفي في مثل هذه الحالات لا يمكن أن يتزعزع، وأن على أحدهنا أن يتنازل لآخر، وأن أحد الإثنين ينبغي له ألا يكون الكاتب.

قاربت الساعة العاشرة ليلاً ورحب الحاكم في الخلود للنوم، لكنه لم يكن قادرًا على الذهاب وتركي وحيداً في غرفته. أخيراً، نجح سلاح الإقناع، بعد رفضِ آخرِ، في حمل الحاكم على إصدار أوامرِه لأحد العسكري بإطلاق سراح الرجل. عندها، طلبت بأن يؤتى به من السجن ويسلم إلى بحيث نغادر المكان معاً. وهكذا تم إحضار صديقي العربي من غياهب السجن الكائن في تلك القلعة المؤبدة بالقرب من المدينة، حيث غادرنا معاً الغرفة الرسمية لذاك الحاكم الذي لم يكن مسروراً البتة لانتصار الحق وشعوره بالمذلة أمام الناس.

هل يُدهش القارئ لكوني أمتلك العديد من الأصدقاء في بلاد العرب؟ النذر اليسير منهم كانوا في الحقيقة الأصدقاء الذين ارتبط معهم إسماعيل المسكين بعري صداقة

حقيقة في حياته، وهم، على غرار بقية الناس في البلدان الأخرى، يقدرون اللطف والكياسة ويتجاوبون معها.

في صباح اليوم التالي جرى استدعاءي للقاء المسؤول الغاضب الذي خاطبني قائلاً: «أيها المستر فوردر Forder، إذا كان أفراد جماعتك غير فخورين بك، فهم محقون في ذلك؛ إذ لم يسبق لأيّ شخص قط أن قابلني بالطريقة التي قابلتني بها. يؤسفني أنك رجل إنكليزي، فأنت تصلح أكثر كرجل تركي. البارحة كسبت الجولة، لكنني سأكسب أخرى اليوم، كونه لن يهدأ لي بال حتى أحملك على الرحيل عن هذه البلاد».

ثم تلت فترة من المحاكمات والإذلال والاضطهاد والتربّب والقلق قلائل كانوا قادرين على تحملها. لقد لفق ذلك الحاكم اتهاماتٍ باطلةً في حقي وحق جماعتي وقنصلنا في دمشق.

كان العسكر يتبعبون كل حركة وكل سكتة تصدر عنّي وعن زوجتي، حيثما حلّلنا وحيثما نزلنا؛ وكانت أبوابنا موضوعةً تحت الحراسة منذ بزوغ الفجر وحتى آخر الليل، ولم يكن يُسمح لأيّ كان أن يأتينا ب الطعام أو بأشياء أخرى يبيعنا إياها. وكانت الرسائل تصلنا تباعاً بأننا ما لم نبرح المكان في غضون ساعات معدودة، فإنّ العسكر سيأتي لإخراجنا بالقوة وتحطيم منزلنا. لم نعر بالاً لكل ذلك؛ بل «فوضينا أمرنا للله، وعليه توكلنا، فهو من يهدينا سبيل الرّشاد».

قد نحتاج لمجلد بحاله للتتحدث بالتفصيل عن صنوف المعاناة التي لقينها على مدى ما يقرب من ثلاث سنوات على يد ذاك الحكم التركي، ولكن يجب عدم التطرق إليه على هذه الصفحات. يكفي القول بأنه تمادى في تصرفاته إلى درجة أنه تفوق على نفسه. وأخيراً ونتيجة لشكاؤانا المتكررة وطلبات قنصلنا النشيط في دمشق، تمت إزاحته وإنفاس رتبته، الأمر الذي بعث السرور والبهجة في نفوس الأهالي والعديد من صغار الموظفين.

كنت طوال هذه الفترة من العرقلة والإحباط أتحرك شيئاً فشيئاً على صعيد الأبنية

الجديدة. وهكذا، وفي الوقت الذي أزيح فيه الطاغية المستبد، كانت هنالك خمسة منازل فسيحة على أتم الاستعداد لبدء عملنا، وجميعها فوق مستوى الأرض، بنوادف وأعمدة هوائية للتهوية وأرضيات مبلطة، وكذلك مستوصف وغرفة استشارات وقاعة اجتماعات كبيرة، يجتمع فيها الناس اليوم للاستماع إلى الرسالة الإنجيلية قبل أن تتم معالجتهم من قبل المبشر الطبي.

مع رحيل الحاكم توقفت العرقلة والإجراءات القاسية وأخذت تباشير الأيام السعيدة تلوح في الأفق.

لم يكن مجيء الأتراك إلى مؤاب مجرد مرحلة كارثية لنا وحسب، وإنما للعرب أيضاً. مصيّتان اثنتان أعقبتا مجيء القوات الغازية تمثّلت بكارثة الجراد التي أفضت إلى ما يشبه المجاعة في أنحاء البلاد. وفي خضم هذه الحالة من الشك والحيرة والارتباك وقعت بعض الأحداث الطريفة المسلية لتكسر رتابة الأوضاع السائدة.

ففي إحدى المناسبات كنا قد وجّهنا الدعوة لعدد كبير من النساء والأطفال للمشاركة في وجبة ساخنة. استجاب المدعوون والمدعوات للدعوة بكل سرور، على الرغم من أوامر الحاكم التي كانت تحظر على أيّ كان دخول المساقن التي كنا نقيم فيها.

وفي الوقت الذي كانوا فيه منشغلين بتناول الطعام، سمعَ قرعُ صاحب على الباب المغلق. كان الواقفون في الخارج مجموعة من العسكريين أرسلوا لاعتقال النسوة والأطفال الذين كانوا يسكنون غلواء جوعهم على حسابنا، والزج بهم في السجن. رفضت السماح للعسكر بالدخول، وهكذا قرّروا التريث بانتظار انصراف الضيوف المذكورون المساكين.

وعند انتهاء الوليمة، قمت بمساعدة النسوة والأطفال على المغادرة عن طريق سلّم يفضي إلى أسطح المبني. وتمكن العديد منهم من المغادرة دون أن يتبنّه إليه أحد، إلا أن آخر من تبقى منهم ضُبطوا وهم يهمّون بالمغادرة، حيث لحق بهم العسكر وجرى اعتقالهم.

لم تمثل بنات مؤاب للأوامر بالاصطفاف في رتل أحادي والسير إلى السجن. بل عمدن عوضاً عن ذلك إلى الجلوس في الشارع قائلاتٍ للعسكر يتهكم: «إذا كتم تریدوننا في السجن، فاحملونا إليه، وإلا فلن نصل إلى هناك».

في الوقت الذي كان يجري فيه حدوث هذا المشهد الفاقع، أمام بهجة ودهشة حتى أكثر العرب وقاراً وازاناً، كنت أجري لقاءً عاصفاً مع الحاكم في غرفته. وما يبعث على السخرية أنني كنت أهزاً منه بكلمات وعبارات مثل: «حكومة السلطان كانت تصرف بشكل سيء في الحقيقة، عندما لم يجد ممثلوها ما يفعلونه أكثر من الرجّ بالنساء والأطفال في السجن عقاباً لهم على تسكين غائلة جوعهم. هل وصل الأمر بكم إلى حد سجن النساء في بلادِ إمبراطوريةٍ تُعدّ النساء فيها إلى حدّ ما متحرراتٍ من تدخل الرجال؟».

مثل هذه المناظرات والنقاشات جرت بالفعل وصدرت الأوامر بوجوب تحرير النساء والأطفال وعدم التعرض لهم مرة أخرى.

ومثل هذه المحاكمات والتجارب التي كانت تجري لفترات غير محدّدة دون أن يدرى بها أحد، لها تأثيرها على الطبيعة البشرية.

شعرنا بالإجهاد الحادّ المزمن، وغمرتنا السعادة بعد خلاصنا منه. ولم يكدر أحد فضول المعاناة ينقضى حتى جاء فصل آخر من ناحية غير متوقعة.

لقد كنا نستمدّ العون لبعض الوقت من قبل الجمعية الرسولية للكنيسة الأسقفية البروتستانتية Episcopal Church Missionary Society التي كنا نعمل معها بمودة وبطريقة مناسبة، عندما أثير السؤال المتعلّق بوضعنا ومكانتنا الطائفية.

كنت قد تربّيت وتدرّبت في الكنيسة الإصلاحية الوسليّة<sup>(1)</sup> الميثودية Wesleyan

(1) الكنيسة الوسليّة Wesleyan Church نشأت في عام 1843 على يد كاهن يدعى جون وسلي John Wesley وهو مؤسس الكنيسة الميثوديّة إحدى فروع الكنيسة البروتستانتية، فنشأت من تعاليمه الكنيسة الميثوديّة الوسليّة Wesleyan Methodist Church.

Church of England .Church of England State Methodist Church و بت الآن موظفاً لدى الكنيسة الرسمية في إنكلترا

كل شيء كان على ما يرام بالنسبة لاستمراري كمبشر لتلك الطائفة باستثناء نقطة واحدة، وهي أنه لم يسبق لي أن منحت الحقّ الديني للتبني، فالعوائق الشعائرية والدينية استثنى تبنيي رسمياً كمبشر للجامعة الأسقفية البروتستانتية Episcopal Society.

وهكذا، وجدت نفسي أمام خيارين لا ثالث لهما: الأول، أن أكون مثباً وأغدو أسقفيّاً أصيلاً متمتعاً بكمال حقوقه وأبقى حيث أنا. والثاني: أن أبقي على معتقدات وتعاليم أيامي الأولى والتزامي الأخلاقي، وأقطع علاقتي بالجامعة التي كنت أخدمها.

كان الإغراء بالبقاء قوياً، لكن الغلبة كانت للعامل الأخلاقي. رفضي لأن أصبح أسقفيّاً كان يعني عملياً بدء الحياة مرة أخرى، لكن الله منحني الشجاعة والهداية للوقوف إلى جانب قناعاتي.

وهكذا، وبعد عدة أشهر رحلنا عن الأرض والأحبة، وكلاهما كان في سويدة القلب منا وكنا على استعداد للتضحية بأرواحنا في سبيلهم. لقد كان الفراق أليماً، فالناس لم تستوعب أبداً السبب الذي حدا بنا لفرارهم مفسحين المجال أمام آخرين ليحلوا محلنا.

لقد شاء الله ألا يحسّوا مطلقاً بمشاعر الغيرة التي تمنع الناس الذين يمجّدون اسم ربّ من التوحد تحت ذلك الاسم!

مع بزوع فجر أحد الأيام غادرنا بهدوء موطننا الجبلي في مؤاب مدفوعين خارجاً، ليس على يد الأعراب أنصاف الحضر أو الأتراك المتشدّدين والمتعصّبين، وإنما على يد أولئك الذين قدّموا المتطلبات الشعائرية والاحتفالية والطائفية على المؤهلات الحقيقة والجدارة، ورغبة أولئك الراغبين بالتضحية بحياتهم في سبيل الخير.



### خان شرقي

توجد هذه الملاجئ المؤقتة في جميع المدن الشرقية. يمكن أن يأوي إليه الإنسان والحيوان ويحصل على الشراب بمبلغ حوالي ستة سنتات لليلة واحدة. والسبيل الموجود في وسط الفناء المسيّح هو مورد المياه العذبة.



### صانع القهوة

القهوة هي المشروب الوحيد للعرب، بعد تحميص البذور يسحقونها بواسطة هاون كبير، والزعيم دائمًا يشرب أولاً ثم يقدمها للضيوف. لا يضاف إليها الحليب أو السكر، ولا يُسمح للنساء بصنعها.

غادرتُ الْكَرَكَ Kerak مقتنعاً بأنني لم أدخل جهداً في تقديم ما بوسعي تقديمه لكل شخص حاولت خدمته، سواء أبناء مؤاب في مديتها، أو البدو الرُّحل في صحرائهم.

العامل المشجع كان على الأقل معرفة أن أولئك الذين أفارقهم اليوم كانوا مقتنعين بالطريقة التي كنت أخدمهم بها، حتى تكرّروا علي بالتقدير التالي:

«لقد عمل السيد آرتشيبولد فوردر Archibald Forder في مهمة تبشيرية في إقليم الْكَرَكَ شرق الأردن لمدة خمس سنوات ونصف، ثلاثة منها كانت مكرّسة للعمل فيما يتصل بشؤون الجماعة التبشيرية للكنيسة Missionary Society. إن السيد آرتشيبولد فوردر مسيحيٌ مخلص للغاية وعامل نشيط، والوضع الحالي الواعد لعمل الإرسالية في الْكَرَكَ يدين بكثير من الفضل لحماسه ومبادراته المكللة بالرّعاية الإلهية.

«كان العمل خلال السنتين أو الثلاث الأولى من عمل المستر فوردر في الْكَرَكَ شاقاً ومحفوفاً بالمخاطر نتيجة الطبيعة الفجة وغير المتحضرة للناس. لقد كانوا في ذلك الوقت خارجين عن سيطرة حتى الحكومة التركية، وكل واحد منهم يتصرف على هواه وحسبما يراه مناسباً.

والفضل الأعظم يعود للسيد فوردر وللبادة والكياسة التي كان يتعامل بهما مع الناس، وهو ما سخرهُ الإله لفتح الأبواب أمام نشر رسالة الله بطرق لا حصر لها.

يؤسفنا جميعاً خسارة المستر فوردر لأحد أفراد بعثتنا التبشيرية، لكننا نتضرّع إلى ربّ أن يعهد إليه بأسرع ما يمكن بمهمة جليلة أخرى من المهام الإلهية ويؤمنَ عليه ببركات فوق بركاته يوم كان في الْكَرَكَ.

حيثما كانت مهمة المستر فوردر فإن بعثة C.M.S. التبشيرية في فلسطين ستعدّه على الدوام واحداً من أفرادها. Palestine

“J. R. Longley Hall”

«في 17 فبراير 1897»

وهكذا ولأسباب طائفية فقط دُفعَ بمجموعةٍ من العمال المهرة والمتعرّسين من ذوي الخبرات المتميزة والقدرة العالية على التأقلم إلى مهمة من أشق المهام وأصعبها. لكن الاحتمالات الأكبر لم يحنْ أوانها بعد، رغم أن السبل والوسائل لازالت مطلوبة لتكوين قضية ناجحة منها بالشكل الملائم.

\* \* \*

## الفصل الثاني عشر

### نحو مناطق جديدة، بين قوم من المتشدّدين

بعد مغادرتنا الـكـرك رجعنا إلى القدس وببدأنا بإعداد خطط للمستقبل. كان أمامنا عددٌ من المسائل الحساسة والهامة التي علينا مواجهتها والإجابة عنها.

هل سيتأثر العرب جرّاء مغادرتنا مؤاب؟

هل سنمرّ بأوامر الرّب حول «كل العالم» و «كل مخلوق» مرور الكرام دون أن نعيّرها اهتماماً، مع إدراكنا لحاجة جزيرة العرب وأهلها؟

هل يجدر بنا أن نسمح لأفعال وتصرفات أولئك الذين أسدلنا لهم خدماتنا بشيننا عن المضي قدماً لتبلغ كلمة الرّب؟

ليس هنالك إلا جواب واحد لكل هذه الأسئلة – ألا وهو «كلا».

كانت رغبتي تمثل بالمضي قدماً بما أوتيت من خبرات وإلمام باللغة. وسرعان ما استجاب الرّب لدعواتي وصبري، وانفتحت الأبواب وتقاطر المدد لتمكيني من شق طريقي نحو مناطق جديدة والوصول إلى شعوب وقبائل لم يسبق لها أن تلقت أيّ وعظ أو تبشير.

لل وهلة الأولى، شدّ انتباхи تلك المناطق القرية من القدس التي لم يسبق لها أن عرفت أية بعثات تبشيرية من قبل، وسوف أتطرق في هذا الفصل إلى الحديث عن الزيارات التي قمت بها إلى هذه المناطق.

قد يتساءل البعض لماذا لم أبق في مؤاب وأقوم بعمل مستقل وسط الناس الذين عرفتهم جيداً. فكرنا بهذا الاحتمال، لكننا تخلينا عنه أخيراً، لأننا رأينا، كما العديد من صفوته أصدقائنا، أن مهمّة مغايرة ستثير في أوساط الناس البسطاء الكثير من التساؤلات التي يصعب الإجابة عنها، كما أنها لن نقدم على القيام بأي عمل قد يخبر به العرب، علمًاً أن هنالك بين البروتستانت خلافات طائفية حادة بما فيه الكفاية لحمل أحد أجنحة الكنيسة لمعاملة الجناح الآخر كما سبق وأن عمّلت.

ولكن بالعودة إلى قصتي، فقد أمضيت ثلاثة أسابيع بين القرى وحول جبل الشيخ (حرمون) Beersheba ومع البدو في فلاة بئر السبع Hermon.

للمرة الأولى في رحلاتي بين العرب كنت أستخدم خيمة؛ وكان أحد الأصدقاء قد أعطاني بعض المال لهذا الغرض، كما أبني ومن خلال بعض الأعمال البسيطة التي كنت أقوم بها بنفسي في أوقات فراغي تمكنت من جمع المبلغ المطلوب لشرائها.

لقد قدّمت لي تلك الخيمة خدمات جمة وكانت بمثابة نعمة كبرى بالنسبة لي. لقد شكلت مكاناً لأولئك الراغبين بزيارتي، لدرجة أنها باتت وعلى الدوام محجّة دائمة لحشود المؤمنين وطالبي الهدایة.

لا شك بأن الحياة داخل خيمة في هذه الأرض حياة قاسية - النوم على الأرض، دائمًا تحت أشعة الشمس الحارقة، وبعيدًا عن الأصدقاء، ما خلا العرب.

غالبًاً ما كانت أشعر بالتعب والإعياء وأتوق إلى الفراش الوثير وأسباب الراحة المنزليّة. لكنها كانت الطريقة الوحيدة للوصول إلى هؤلاء الناس؛ لذلك فأنا ممتن للعافية والقوّة واللغة التي مكتنني من التفاهم مع الناس.

غادرت الخليل Hebron صباح أحد الأيام حوالي التاسعة، أمتعتي على بغل وأنا على حمار، ومالك الحيوانات ماشيًا. وبعد حوالي أربع ساعات من صعود تلةٍ ونزول وادٍ وصلنا إلى قرية كبيرة تدعى الدّوايمه<sup>(1)</sup>.

(1) قرية ذات أصول كنعانية قديمة تبعد عن مدينة الخليل نحو 27 كم، عرفت بالدّوايمه في القرن

لدى وصولنا سألتُ عن بيت الضيافة، ثم ذهبتنا إلى هناك ووجدت الكثير من الرجال فيها. وبعد أن جلسْتُ قُدْمَ إِلَيْ بعض القهوة دون أن يحتفي بي أحد وتبين لي أنني أمّا قَدَرْ عسيراً على التعامل معه.

وبعد حوالي الساعة ستحت لي الفرصة للتتحدث عن الخطيبة، ممّا قادني إلى الحديث عن يسوع. وفي الحال قال لي أحدهم: «هل تعلم بأنك تبشر في مسجدنا، وأنت نصراني كافر، وواحد من المشركين؟ قبل مجرّد مدة وجية قتلنا اثنين من اليهود هنا، وأنت وحيد هنا بكل ما في الكلمة من معنى!» ثم نهضوا وخرجوا جميعاً وهم في غاية الغضب.

كنت مستغرقاً بالتفكير فيما ينبغي لي فعله، عندما دخل عليّ رجل وطلب مني مرفقته إلى منزله لقضاء ليلتي عنده. «الناس أشرار للغاية هنا»، خاطبني قائلاً؛ وهكذا ذهبت معه. أنزلني في أحد أركان باحة الدار، وحين أزف موعد الغروب تناولتْعشائي.

بعدها حضر مضيفي وعمّه وجلسا معي، ثم بدأت أحدهما عن يسوع المخلص. أصغى إليّ بانتباه شديد لمدة ساعتين وطراحا على العديد من الأسئلة. استمرّ حديثنا حتى وقت متاخر من الليل. قالا لي: «لم نكن نعرف هذه الأمور من قبل على الإطلاق، والآن لا عذر لنا. لقد سرّنا قدوتك، لا سيل للخلاص سوى يسوع»<sup>(1)</sup>.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي اضطجعتُ في وضعية توحّي بأنّي كنت نائماً وسمعتهما يخبران الآخرين عن كل ما أخبرتهما إياه، وهكذا لم تكن زيارتي بلا جدوى.

غادرتُ ضحى ذلك اليوم وأنا مسرور كون البعض كان على الأقل راغباً بسماعي.

---

الرابع عشر الميلادي نسبة إلى ذريّة رجل صالح أقام بها يدعى علي بن عبد الدايم بن أحمد الغماري، الذي يرجع نسبة إلى العالم الجليل عبد السلام بن مشيش.

(1) يا لذكاء فوردر الشديد، هل يتظر من القارئ أن يصدقه بكل هذه البساطة؟

وبعد مسير ما يقرب من ساعتين ونصف لمحٌ شخصاً داخل أحد الكهوف قرب الطريق. ونظراً لأن الوقت كان وقت الظهيرة والجو قائظ الحرارة، فقد قصده.

استقبلني الرجل بالترحاب ودعاني للدخول، ثم قدّم إليّ طعاماً وخبزاً وبعض الزيت والماء الآسن. بعد ذلك بوقت قصير حضر رجلان آخران كانوا ينزلان معه في نفس الكهف. كانوا هناك يقومان بأعمال الحصاد. بدأت أحدهما عن يسوع، وأصغيا طويلاً لحديثي. ثم أخبرني أحدهما بأنه قادر على القراءة، وتمّنّى لو أن بحوزتي كتاباً أعطيه إياه. وهكذا قدمت إليه نسخة من إنجيل متى وتركته يقرأه على أصحابه. من هنا وصلت إلى أحد مضارب البدو الرّحّل حيث أقمت خيمتي؛ وسرعان ما تحلق حولي حشدٌ من الناس يحدّقون بي باستغراب. ونظراً للجبلة التي كانوا يحدثونها، فقد أغلقت باب خيمتي وتوجهت إلى خيمة الضيوف. ولم تسنح لي أية فرصة خلال النهار للحديث عن يسوع.

ذلك لأنّ القوم كان لديهم بعض الزوار، وكانوا منشغلين بتسوية بعض الأمور، لذلك اكتفيت بتناول وجبة عشاء قوامها البصل والماء، وبعد ذلك وعندما هدأت الأمور قمت وترّبعت على الأرض وسط اثنين عشر أو أربعة عشر شخصاً.

وعلى اعتبارها كانت ليلة قمراء، فقد أمكنني تبيّن ملامحهم جميعاً بشكل واضح. وعندما أفصحت لهم عن رغبتي بالتحدث إليهم، طلبوا مني الشروع بالحديث على الفور وعدم التردد في ذلك. وعندما وصلت إلى المقطع الذي يتحدث عن موت يسوع، بدأ أحد الرجال بالعزف على الربابة، لكن الآخرين طلبوا إليه التوقف عن ذلك في الحال كيما يتّسنى لهم سماعي بوضوح.

وهكذا، هنا أيضاً، تحدثت إليهم حتى وقت متأخر من الليل ووافقوني بأن كل ما أخبرتهم إياه كان جيداً وصحيحاً<sup>(1)</sup>.

(1) بمجرد جلسة لمدة ساعات والاستماع إلى رجل غريب لا يجيد العربية، سيغيّر الناس قناعاتهم وتراث آبائهم وأجدادهم؟ أرى أن الناس استمعوا إلى كلامه كفاسيل من سير الأنبياء، فأثروا عليه مما جعله يظنّ أنهم قد تبنّوا فكره الشيولوجي بالكامل! أي ساذج هو.

في اليوم التالي توجهت إلى بئر السبع، موطن الآباء القدامى ومخيمهم المفضل. آلاف البدو يتجمعون هناك من كافة أرجاء الصحراء الرملية لتأمين الماء لقطعان أغنامهم وإبلهم.

لا تزال بئر السبع مثلما كانت عليه أيام سيدنا إبراهيم. والآبار السبعة التي حفرها «أبو المؤمنين» The Father of the Faithful ما زالت على حالها، ولا يزال الماء يستخرج من بعضها.

في أثناء أولى زياتي إلى هناك، أشار بدوي عجوز جاهل أسمر ونصف عار إلى أحد الآبار باعتزاز وأخبرني مغبظاً بأن أباهم إبراهيم كان قد حفرها وسقى قطعane منها.

الحجارة القديمة التي أبلتها الحبال وخلفت فيها أخداد غائرة من كثرة الاحتكاك، كانت بمثابة شهادة دامجة على قدم عهد هذه الملاذات المانحة للحياة في هذه الصحراء القاحلة والمنعزة المعروفة بالنقب .Negeb



### سحب المياه في بئر السبع

مرفاع بدائي يديره الجمل لسحب المياه من الآبار في بئر السبع. وهذه الإنشاءات حديثة تماماً على الرغم من أن المياه يجري سحبها من البئر منذ قرون. وجميع أشغال الخشب من صنع النجارين المحليين.



### بئر هاجر في صحراء بئر السبع

يعتقد العرب بأن هذه هي بئر المياه التي أخذت منها هاجر لتسقي إسماعيل (GEN. 21:19) وقد سبّبت حبال الرعيان تأكل الحجر وتكون ثغرات فيها أثناء سحبهم للماء، مما يثبت قدم هذا البئر. ويبلغ قطر الفتحة حوالي عشرة أقدام وعمقها مئة قدم.

لم يكن من الصعب استدراج هؤلاء الأعراب إلى نقاش حول الدين، وبالنسبة لأولئك القادرين على القراءة، فقد وزعت عليهم نسخاً من الكتاب المقدس مرفقة بدعاء على القاريء يستمد منها العون.

في حالات كثيرة لا بدّ من مواجهة الجهلة والسفهاء ومداراتهم وأخذهم بالحسنى، وقد وقع لي العديد من الحوادث المنغصنة التي كان يمكن أن يكون لها عواقب أليمة لو لا تقدير العناية الإلهية التي تحيل نعمة العبد وغضبه إلى نعمة ورضا تغدقها عليه.

لم أكتف بزيارة بئر السبع وحسب، بل أوغلت أبعد من ذلك إلى تلك البقعة الموحشة في عمق الصحراء. لقد استوّعت أكثر من أيّ وقت مضى قصة الولد الذي أصبح رامي سهام archer وسكن تلك البرية بالذات. وقد تضاعفت مصداقية القصة وإثارتها عندما وقفت أمام البئر المكسوفة في الصحراء واستمعت من أحد رعاة البدو إلى قصة إسماعيل Ishmael وأمه المحزونة هاجر Hagar، التي لازال البئر يحمل اسمها.

لم يستقي هؤلاء البدو والرحل هذه الحقائق التاريخية من أيّة مصادر مكتوبة، وإنما وصلت إليهم بالتواتر جيلاً بعد جيل مع قدر طفيف من التحوير.

منعتُ من المكوث طويلاً قرب بئر هاجر، كيلا يؤدي وجودي إلى جفاف الماء. وكانت البنادق والهراوات جاهزة للاستخدام في حال إصراري على المكوث طويلاً.

ساقتني الأقدار للقاء أحد شيوخ القبائل الكرام، حيث رافقته إلى مضاربِه المكونة من حوالي متى خيمة أو ما يسمى «بيت شعر» House of hair. لقد كان رجاله قوماً جلفاً غلاماً وعرین، ولو لا كرم مضييفي وطبيته لکنت رحلت لتُرثي عن هذا المكان.

مكثت لعدة أيام مع هؤلاء الناس في فلة بئر السبع، ثم أقنعت شيخ العشيرة بمرافقتي إلى موقع قادش Kadesh-Barnea التاريخي. بعض الرجال الذين راعهم وجود أجنبي في هذا المكان حاولوا منعي من المتابعة، لكن ولّي أمرِي المؤقت كان

لديه من الحظوة والنفوذ في تلك الأماكن ما يكفي لإيصاله بأمان إلى الواحة ذات الصلة الوثيقة بـ «تيهبني إسرائيل» *wanderings of the Israelites*.

لم يلق وجودي في قادش Kadesh-Barnea القديمة ارتياحاً من جانب أبناء المنطقة المؤمنين بالخرافات الذين التقى بهم هناك والذين عارضوا هذا الوجود بشدة. جلّهم كان من الرعاة الذين يخشون «العين اللائمة» أو عين السوء والحسد، ومجيء أيّ شخص ذي صفات غامضة إلى مناطقهم قد يتسبب بجفاف الينابيع وبوار الأرض. كانت البنادق مُعَمِّرة كتحذيرٍ لي في حال أقدمت على أيّ من الألعيبين الساحرة؛ ولكن لم يكن هنالك ثمة من مناسبة لاستخدامها، حيث أنه لم يقدر مني أيّ تصرف يشير إلى الريّبة.

لكن تسرب قطرة من الشاي البارد من قارورة كنت أحملها وسقوطها على الأرض قرب أحد الينابيع أثار قدرًا كبيراً من الريّبة والانفعال لأنني كنت بالتأكيد أحاول منع تدفق الماء، الأمر الذي كان يعني الكثير بالنسبة لأولئك الجهلة المنعزلين من أبناء الصحراء.

انهال التعنيف والكلام الجارح بحرية وبلا ضوابط على صديقي العربي، الذي رأى أن من الصواب الرحيل عن المكان وترك غيره انه الجهلة بانتظار مصيبة ما تنزل بهم في أعقاب زيارتنا.

لكن ما أثار دهشة واستغراب أولئك الرّعاع أن آية نذر شر لم تتأتَ عن قدومي وتلحق الأذى بينابيعهم أو قطعانهم أو أنفسهم، الأمر الذي حدا بهم إلى استقبالي بقدر أكبر من الكرم والترحاب في زياراتي التالية.

لم تشتدّ اهتمامي أرض آباء الأنبياء وحسب، بل أيضًا تلك البقاع جنوب مؤاب، المنتهية في مدينة البتراء (پترا) المحفورة في الصخر، بوديانها وشعابها الضيقة الشديدة الانحدار، وأثارها الرائعة التي ظلتتها الطبيعة بألوان وأشكال أخاذة تأسر الألباب.

قلائل أولئك الذين سبروا أغوار هذه الأماكن النائية المنعزلة. فالطبيعة غير

المتحضرة لأبناء البدو والغياب الظاهر لأي عون بشري وقت الحاجة دفعاً بالكثيرين إلى الإحجام عن المغامرة بزيارة هذه المدينة المحفورة بالصخر والزاخرة بالسحر والإثارة.

لقد مكتنني معرفتي بالأرض وسكانها من القيام بعدة زيارات إلى هناك، خرجت منها بنتائج طيبة.

ففي أول زيارة لي تعلمت من مجموعة من المتعصبين الجهلة أنني كنت في أرض محروسةٍ بغيرة وحمية ذاكرةٍ وفطرةٍ دينية مقدسة، وأن وجودَ شخصٍ مسيحي فيها أمرٌ غير مرحب به وغير مستحب.

من خلال التحقيق والاستقصاء المتأني والدبلوماسي، علمت من عرب البتراء أن ما يسمونه بقبر هارون Tomb of Aaron يقع على قمة جبل هور Mount Hor في مكان ليس بعيد.

ومن خلال الاستنتاج الدقيق والمتأني علمت منهم تاريخ وأصل الكاهن الأكبر الأول لبني إسرائيل والفصل الأخير المأساوي المتصل ب حياته.

بعد استماعي لهم، تلوت عليهم مقاطع من الكتاب المقدس حول هارون وما يتصل بموته فوق جبل هور Hor في إدوم Edom كما هي مدونة في الأسفار . XX-23 من أسفار النبي موسى.



### الضريح المقام على قبر هارون في إدوم

على قمة جبل هور في إدوم على مسافة شهادية أيام إلى الجنوب من القدس، يقع قبر هارون أول كاهن كبير لدى أسرة إسرائيل. والشجب الذي يحيى وأصواته يرتفع على القبر القديم المؤود في داخل كهف بالأسفل. والعرب يعودون واحداً من أهم منازلهم المقدسية، ويفقدونه لتقدير الأراضي وطلب المون من النبي. والحراف العبرية تدل على أن اليهود في زمن مضى كانت ملكية القبر، ولقد زار المستر فوردر هذا المكان أربع مرات، وهذه الصورة نادرة للفيديو.

كانوا في غاية الاهتمام، وأكدوا لي أن القبر القديم فوق قمة الجبل هو تحت حراسهم وأنه لازال سليماً وآمناً من أي خطر أو أذى.

أعربت لهم عن رغبتي بزيارة مكان على هذا القدر من الأهمية، لكن الحمية والعصبية الدينية طغت على ما سواها، حيث أكدوا لي أن أي محاولة من جانبي لسلق الجبل والاقتراب من القبر ستكلعني حياتي.

لقد كانوا مستعدين لحماية المثوى الأخير والأبدى لهارون حتى لو اضطربوا ذلك إلى قتلي.

لم يسبق لأي مسيحي قط أن اقترب من المكان، إذ أن مثل هذا الفعل سيثير سخط المتوفى ويستجلب الخراب والكوارث على المنطقة برمتها.

لقد توصلت إلى فناعة راسخة مفادها أنه بوجود مثل هؤلاء الجهلة المتهورين من أعراب البتراء والانتشار السريع للأسلحة النارية، فإن أية محاولة للقيام بزيارة قسرية قد تنتهي بكارثة. وهكذا خادرت تلك البقاع مكرهاً حزيناً، وإنما أكثر حكمة.

لكن الخبرة والإحساس الأفضل والمعرفة الأعمق بهؤلاء العرب هناك مكتتبني منذ ذلك الحين من تسلق الجبل الوعر والاطلاع بأم العين ودون أدنى شك على القبر العتيق وال حقيقي لهارون أخي موسى.

اعتبر نفسي محظوظاً كوني أول من نجح بالتقاط صور فوتوغرافية لهذا المزار الهام المحروس والمحفوظ بعناية في هذه الأصقاع الصخرية النائية من جبل سعير .Mount Seir

جرى القيام بالعديد من الرحلات من وقت لآخر إلى أماكن لم تطأها قدم بشر من قبل، وزارات متمرة للغاية تم القيام بها برفقة أبناء المدن والقرى أو البدو. ولا بدّ من تكريس أكثر من مجلد لوصف وتأريخ ما جرى معى من أحداث خلال الزيارات الأولى لأماكن جديدة.

مع ذلك، فإن قصب السبق لن يكون في النهاية إلا للصبر والمثابرة، وأولئك الذين

كابروا وعاندوا وآثروا الجفاء في البداية، باتوااليوم في صفي وإلى جنبي.

ستبرز لنا الفصول التالية أحداثاً ومواقف أكثر إثارة كليلتها العناية الإلهية أكثر مما هو مدون في هذه الصفحات. وأنا هنا أدين بخلاصي ونجاتي من كل المواقف والأخطار المحدقة التي ألمت بي إلى الواحد الأحد الذي لا ينقض عهداً ولا يخلف ميعاداً، وليس هو القائل:

«فلتعلم يا ابن آدم أنني معك وملازمك على الدّوام حتى إلى نهاية العالم».

\* \* \*

## الفصل الثالث عشر

### جزيرة العرب صحراء البحر

لقد عَزَّ التنقل والتجوال الدائم بين الأعراب في البراري وفي المنطقة الممتدة جنوب وجنوب شرق القدس من درجة اهتمامي بالتعرف إلى ما هو أبعد من ذلك. غالباً ما كنت أستمع من زائر عابر لأحد مضارب البدو أو البلدات إلى حكايات وأخبار عن مدن وبلدات ومضارب جزيرة العرب الممتدة عبر السهول الرملية التي غالباً ما كانتأتاملها خلال فترة وجودي في مؤاب. بعد أن أثار فضولي ذلك الاتساع الممتد جنوب شرق القدس، اتّقدت في نفسي الرغبة في استكشاف الصحراء والوقوف على الإمكانيات الميسّرة لشخص راغب بسبر أغوار تلك المناطق، وهو يجاهر بنفسه على أنه مسيحي.

والمؤلفات القليلة جداً التي كتبها رجال من أمثال پالغريف Palgrave أو داوتي Doughty أو بُرتون Burton حول جزيرة العرب لم تكن توحّي أو تبشر بالأمان لأيّ شخص اختلط بهؤلاء الأعراب أبناء شبه الجزيرة.

لكن ما شجعني على المضي قدماً في مهمتي أناسٌ مهتمون بالعمل التبشيري في المناطق المتعطشة لهكذا تبشير، وهكذا فقد أعددت العدة للذهاب والوصول إن أمكن إلى عاصمة شبه الجزيرة، وهي مدينة يقال لها حائل Hayel، ولقاء الحاكم المستقل لتلك البلاد، عبد العزيز بن رشيد<sup>(1)</sup>.

---

(1) هو الأمير عبد العزيز بن متعب بن عبد الله بن رشيد، سادس حكام إمارة آل الرّشيد في حائل

آثرت في هذا الفصل إعطاء لمحة موجزة عن البلاد التي أنا بقصد التوجه إليها بهدف تعريف القارئ بموقعها وتاريخها وأحوالها.

### جزيرة العرب - الموقع

تعد شبه الجزيرة المعروفة هذه الأيام بجزيرة العرب واحدةً من أقدم مناطق العالم. وقبل نزول أبناء يعقوب Jacob إلى مصر بزمن بعيد كان أبناء إسماعيل قد استوطناوا هذه الأرض التي أقطعهم إياها الله. وقد جرى تعين حدود جزيرة العرب منذ أن ذكرها الكتاب المقدس في سفر التكوانين، 18. XXV.

مما لا شك فيه أن فلسطين وسوريا وشبه جزيرة سيناء Sinai Peninsula كانت تشكل قبل قرون عديدة أجزاءً مهمة من جزيرة العرب. يتحدث إشعياء Isaiah عنها بقوله «جزيرة البحر» (xxi. 1).\*

وعندما ينظر إليها المرء على أنها أراضٌ صحراوية بمعظمها، ومحاطة بالماء من جميع جهاتها تقريباً، نستنتج أن النبي الله إشعياء لم يجانب الصواب في وصفه لهذه البلاد. تقع جزيرة العرب بين مصر وفارس، وعلى نطاق أوسع، بين الهند وأوروبا، ولها شريط ساحلي بطول حوالي أربعة آلاف ميل.

يحدّ جزيرة العرب من الشرق الخليج العربي وخليج عُمان، ومن الجنوب المحيط الهندي، ومن الغرب البحر الأحمر وخليج العقبة، بينما تمتد شمالاً منها صحراء متراصة الأطراف<sup>(1)</sup> غير محددة المعالم نكاد لا نعرف لها حداً مميزاً.

---

بين 1897-1906. تولى الحكم بعد وفاة عمّه محمد بن عبد الله الرشيد، الذي لم يعقب ذكوراً، وتزوجت ابنته نورة من ابن أخيه عبد العزيز.

(1) هي صحراء النفود وإلى منكبها الشرقي صحراء الدهناء. وسنرى في هذا الكتاب أدناه كيف سيتوّجه المؤلف إلى الجوف بأكناف النفود، لكنه لم يجاوز تلك الناحية.

تغطي جزيرة العرب مساحة من الأرض تقدر بحوالي الألف ميل طولاً والسبعين ميل عرضاً. وهي أكبر من فرنسا بأربعة مرات وأكبر من الولايات المتحدة شرق المحيط الهادئ.

### التقسيمات الجغرافية

تُقسم جزيرة العرب إلى ثلاثة أجزاء رئيسية وهي: العربية السعيدة Arabia Felix في القسم الجنوبي الغربي من البلاد؛ والعربية الصخرية Arabia Petrea في طرفها الشمالي الغربي؛ والعربية الصحراوية Arabia Deserta، وتضم الصحاري الداخلية الكبرى والأراضي المرتفعة.

تُقسم هذه الأجزاء الرئيسية الثلاث من جزيرة العرب إلى أقاليم تعرف باليمَن، ومن ضمنها حضرموت وعمان ونجران، إلى جانب بعض المناطق الأصغر، كالحجاز على الساحل الغربي الذي يضم ضمن حدوده المدينتين المكرمتين بال نسبة لاتباع محمد: مكة، مسقط رأس نبيهم، والمدينة، المكان الذي توفي ودفن فيه؛ ونجد، المركز العظيم، الذي يمتد إلى أقصى الشمال وأقصى الشرق، متناهياً عند تخوم العراق والأحساء Arag and Hassa، وجبل شمر Jebel Shomer على الحدود الشامية والذي يشكل فعلياً جزءاً من نجد.



### جزء من (السيق) في العربية الصخرية

تبعد العربية الصخرية عن جنوب القدس رحلة عشرة أيام، وتشتهر بمدينة بتراء الرائعة المنحوتة في الصخر. يتم الدخول إلى هذه المدينة عبر خانق طويل يطلق عليه العرب اسم «السيق». ويطلون الصخر على الطرفين بعدة ألوان، وهو في عدة مواضع مغطى بالسرخس والنباتات المتسلقة. يبلغ طول الخانق حوالي ميل واحد وينتهي إلى واجهة هيكل مدخل منحوت في الصخر.

## المدن الرئيسية

في اليمَن هنالك صنعاء العاصمة والْجُدِيدَة الميناء الرئيسي، إلى جانب العديد من البلدات الأصغر غير ذات شأن. لا يمكن أن نطلق على عَدَن تسمية المدينة، رغم أنها مكان لا يستهان به، بل هي في الحقيقة قلعة تحرس الطريق إلى الهند.

تشمل مدن الحجاز الرئيسية مكة والمدينة وأيضاً الطائف Tayf، التي لا تبعد كثيراً عن مكة. ميناء الحجاز هو جدّة، أما يَبْع Yambo فُيستخدم في فصول معينة من العام. وعاصمة نَجَد هي حائل. أما الرِّيَاض وعنيزة وبُرْيَة والدُّرْعَيَّة فهي عبارة عن مراكز سكانية كبيرة تابعة لنجد وملحقة بها.

يضم إقليم العراق Arag العديد من المدن والبلدات وأهمها بغداد. أما الكويت والهفوف Hofoof فتشكلان الوجه المشرق للأحساء Hassa. وفي كل هذه التقسيمات والأقاليم تجد أعداداً لا تحصى من المدن والبلدات التي يضيق المجال عن ذكرها جميعاً في هذا الكتاب.

## السلطة والنفوذ الحكومي

هنالك ثلاُث قوى تحكم بشؤون جزيرة العرب وحركاتها. تقع اليمَن والجاز والأحساء وال伊拉克 بكمالها تقريباً تحت إدارة الحكومة التركية وسيطرتها، كما هي الحال بالنسبة للشطر الشرقي من شبه جزيرة سيناء.

بينما يقع ساحل الخليج العربي وجزء لا يأس به من المناطق المحيطة بعَدَن تحت السيطرة البريطانية؛ أما نَجَد، البر الداخلي العظيم، فلها حاكمها الخاص المستقل عن أيٍّ من القوى العظمى، حتى جارته تركية.

وعلى الرّغم من محاولات عديدة لضم نجد إلى جانب مصر بل حتى تركية، فإن تلك الهضبة المنبسطة لازالت حرّة ومستقلة. وقد لا يطول الزمن حتى تحكم جزيرة

العرب حكومة أكثر حزماً وتنوراً وتستخدمها كجسر يربط بين الشرق والغرب، ما يختصر المسافة المكانية والزمنية بينهما.

من ستكون تلك القوة وكيف سيكون حالها، هذا ما سنعرفه مستقبلاً<sup>(1)</sup>.

## السكان واللغة

في بلاد مغمورة إلى هذا الحد كجزيرة العرب لم تعرف يوماً إحصاءً لسكانها، يكون من الصعوبة بمكان حتى تقدير عدد سكانها على وجه التقرير.

ثمة تقديرات متفاوتة لعدد سكانها كانت تجري من وقت لآخر خلال القرن الماضي من قبل أولئك الذين أقدموا على سبر أغوار هذه البلاد. فقدر البعض العدد الإجمالي لسكان جزيرة العرب بثمانية ملايين نسمة، والبعض الآخر قدر العدد بأربعة عشر مليون نسمة. لكن من المتفق عليه عموماً أن أحد عشر مليوناً هو رقم منصف للتقسيمات الثلاثة الكبرى التي تشتمل عليها جزيرة العرب.

وكائناً ما كان عدد ملايين جزيرة العرب، فقد حققنا بها الوعود المكرر أربع مرات والمتعلق بإسماعيل: «سيصبح أمة عظيمة لا يحدّها حد ولا يحوطها عدد».

واللغة التي يتحدثها كافة أبناء جزيرة العرب هي العربية، بلهجات ولكنات ومفردات مختلفة تبعاً لأقاليمها المختلفة. لكن أنقى أشكال اللغة العربية وأكثرها صفاءً نسمعها في نجد، ولعل السبب يعود إلى عزلتها وعدم اخلاقطها باللغات الأخرى. والجدير

(1) صدق فوردر، ففي مطلع القرن العشرين ستقوم الدولة السعودية الثالثة، على يد عبد العزيز ابن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، وتحول إلى مملكة. أمّا العراق والجهاز فسيستقلان عن تركية في عام 1918 م بعد قيام الثورة العربية الكبرى بقيادة شريف مكة حسين بن علي ومؤازرة الإنكليز. وأما منطقة الخليج العربي فقد قامت فيها إمارات ودول مستقلة تحت الوصاية البريطانية منذ معاهدة الصلح الدائم عام 1853 وستثال استقلالها الناجز في مطلع عقد الستينيات من القرن العشرين.

بالذكر أن اللغة العربية هي من أصعب اللغات على التعلم.

قبل الانطلاق نحو الميدان تلقى الكاتب معلومةً من قبل أحد علماء العربية المخضرمين يقول: «لقد درست العربية على مدى أكثر من أربعين عاماً،وها أنا بالكاد بدأت أفهمها».

والآن اسمحوا لي أن أستشهد بما كتبه آيون كيث فالكونر Ion Keith Falconer من مصر بعد نيله درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف في اللغات السامية Semitic Languages Tripos من جامعة كامبردج واتباعه لدورة خاصة باللغة العربية في Leipzig :  
لأپتنیغ

«أنا أبلّي بلاءً حسناً في اللغة العربية، لكنها لغة صعبةٌ إلى درجة مرّوعة».

وبعد خمس سنوات كتب من عَدَن قائلاً: «أنا أتعلم التحدث بالعربية بشكل جيد تماماً، ولكن سيمضي علي وقت طويل قبل أن أغدو قادرًا على خوض حوارات حقيقة».

إن تحقيق تقدّم حقيقي على صعيد تعلم العربية يعني سنوات من الدأب المضني والاجتهد الذي لا ينتهي. والعربية لأغراض التبشير لا يمكن تلقيها كيما اتفق.

### ديانات جزيرة العرب

لطالما كانت جزيرة العرب أرض العقائد والديانات، ولطالما كان لهذه الديانات والعقائد أتباعها ومعتنقوها خلال مراحل مختلفة من التاريخ، ومن ضمنها اليهودية وال المسيحية الأولى، وحتى الوثنية التي أفسحت المجال أمام أكثر الممارسات الدينية قسوةً وانحطاطاً وبشاعةً.

وعبدة النجوم والشمس والنار، جميعهم ناصروا معتقداتهم وأشكال عباداتهم وقربانيتهم ودافعوا عنها في جزيرة العرب، لكنها ظلت بالنسبة لأنصار الصحراء العظام

بمثابة البوقة التي جمعت أبناء «صحراء البحر» تحت لواء واحد، ودفعتهم في النهاية إلى الإيمان بالله الواحد الأحد وبمحمد رسول الله.

على مدى ألف وثلاثمائة عام، لا يزال أبناء جزيرة العرب متمسكون بقوه بتعاليم الفتى المكّي، وهم يُعرفون اليوم بال المسلمين أو المحمدّيين.

وما زال آلاف اليهود يعيشون في اليمن والعراق وسواحل الخليج العربي محاطين بقدر من التسامح وحسن المعاملة من جانب المسلمين، إلى جانب الخدمات والجزية والمنافع التي ينالونها منهم من وقت لآخر.

لا يَكُن الفرعان الرئيسيان لسلالة إبراهيم في جزيرة العرب أية مودة أو حتى احترام بعضهما البعض الآخر، رغم عجبهم الشديد بأنفسهم وزهوهم وتکبرهم على أبناء عمومهم وعصبهم. وستطرّق في فصل آخر إلى وصف عقيدة الوقت الحاضر للعرب.

### منتجات جزيرة العرب

لا يمكن توقع الكثير من مثل هذه الأرض القاحلة، ومع ذلك فهنالك سفن بخارية تجارية مختلفة تمخّر عباب البحر ناقلة شحنات البضائع المختلفة لاستخدامها في بلاد أخرى.

تصدر اليمن كمياتٍ كبيرةً من البُنّ وجلود الحيوانات والستاناميكي والبخور، بينما تصدر شواطئ الخليج العربي والأراضي الداخلية المحاذية لها التّمور إلى كافة أنحاء المعمورة. أما إقليم نجد، الجوهرة الداخلية غير المسكتشفة لجزيرة العرب، فترتّد الجيش البريطاني بآلاف الجمال والخيول.

والمراکز السكانية الكبرى في فلسطين وسوريا، وحتى مصر، لديها مواردها من اللحوم، إذ تغذيها عشرات الآلاف من رؤوس الغنم والماعز التي تربى في جبال وواحاتِ جزيرة العرب.

## الحيوانات البرية والداجنة

نظرًا لطبيعتها الصحراوية، ليس لدى جزيرة العرب الكثير لتقدمه على هذا الصعيد. تشمل الحياة البرية لجزيرة العرب على تشكيلة من الحيوانات، منها الذئب والخنزير البري وابن آوى والضبع والثعلب والمها الوحشى (وهي بحجم الحمار) والغزال والأرنب. أما الحيوانات الداجنة، فهي رغم قلّتها تتمتع بأهمية كبيرة نظرًا لمنافعها العظيمة.

تشمل الحيوانات الداجنة الجمال والخيول والبغال والحمير والبقر والغنم والماعز. أما الكلاب فهي متواجدة في كل مكان، وهي في الصحراء تقوم بمهام الحراسة والحماية والتنبيه لوجود أغرباب. وهنالك أيضًا عدد من الطيور والزواحف، وهي عديمة الفائدة عموماً، باستثناء النعام.

## وسائل النقل

لم تكن الطرق حتى عهدٍ قريب معروفةً في جزيرة العرب. حتى في أيامنا هذه، هنالك طريق واحدة فقد قيد الإنشاء. وهنالك سكة حديد يجري إنشاؤها بين دمشق ومكة برعاية الحكومة التركية، حيث جرى جمع الموارد المالية لها من كافة أرجاء العالم الإسلامي.

إذا ما قُدرَ لهذا المشروع أن يُنجز بنجاح، فسيكون بمثابة معجزة من معجزات العصر الحديث، ويسهم بلا أدنى شك في سبر أغوار تلك البلاد وافتتاحها على العالم ومساعدة الرحلة الباحثين والمستكشفين في الوصول إلى مكة.

لكن الزمن وحده كفيل بالإجابة على هذا السؤال: «هل سينجز هذا المشروع؟»<sup>(1)</sup>.

(1) نعم، تم إنجازه في أيام السلطان عبد الحميد الثاني، الذي كان أكبر مشجع له، وكان المشروع يعرف بالخط الحديدي الحجازي Hicaz Demir Yolu وأنجز بالاستعانة بخبرات ألمانية. وتم افتتاحه رسمياً في عام 1908، لكنه لم يعمر سوى عشرة أعوام فقط، إذ راح العقيد البريطاني

في الجبال، حيث يمكن الحصول على الماء مرة واحدة في اليوم، يمكن اكتراء البغل أو الحصان أو الحمار للقيام برحلة لقاء دريهمات معدودة.

إذا ما رغب المرء في عبور الصحراء آخذًا ندرة الماء بعين الاعتبار، فالجمل، رغم افتقاره للحسن والجاذبية، هو الضالة المنشودة.

بفضل خفة الإسفنجي وعنقه الطويل وبصره الحاد، وقدرته على احتمال العطش لعشرة أيام، يعد الجمل حيواناً مجهزاً بشكل مثالياً للرحلات الصحراوية. وإذا ما عوّل بلطف وُعلف بانتظام فسيؤدي هذا الحيوان الصبور والمظلوم إلى حدّ كبير خدمات جلّى ويحمل راكبه مئات الأميال إلى أصقاع لم يكن بالغها إلا بشق النفس.

أما المركبات ذات العجلات فهي غير معروفة عملياً في جزيرة العرب، باستثناء الشريط الساحلي.

ما الذي يجري إعداده للتبيير في جزيرة العرب؟ القليل فقط؛ لكننا نحمد الله على هذا القليل.

هناك بعثة تبشيرية صغيرة في عَدَن تهتم بالاحتياجات المادية والبدنية لأبناء المنطقة، كما أن تعاليم الكتاب المقدس التبشيرية تتلى بإخلاص على الناس في مستوصف المدينة يومياً<sup>١)</sup>. وهذا العباء يقع على عاتق رجل واحد هناك.

---

لورنس يدمّر خطوطه من الحجاز إلى العقبة ومعان، ولم يجر إصلاحه إلا بعد عقود طويلة. انظر حوله ما نشرناه في هذه السلسلة من رحلة البريطاني آرثر جون وافل (1908) والألمانية دوروثيا فون لينكه، أي الكونتيسة مالمينياتي (عام 1914).

(1) ينبغي الإشارة إلى أن الباب الذي حاول منه المبشرون الإنكليز والأميركيون دخول مجتمعات جزيرة العرب كان تحديداً إقامة المستوصفات والمشافي، وأكبر دليل على ذلك مشفى الإرسالية الأميركي في البصرة (1891)، والبحرين (1893)، ومسقط (1913)، والكويت (1913). وكذلك عندما وضع الإنكليز موطئ قدم لهم رسميًّا في مسقط، قاموا هم أيضاً باستخدام الطبابة لصالحهم، وبعد المعاهدة التي أبرمت ما بين ضابط المستعمرات الإنكليزي الكاپتن جون مالكوم John Malcolm وحاكم عُمان سلطان بن أحمد في عام 1800 م، تولّى طيب جراح مسؤولية أول بعثة دبلوماسية إلى مسقط. وكان في الوقت ذاته الطبيب الخاص للإمام.

هناك مقرٌّ خاص بجزيرة العرب للبعثة التبشيرية للكنيسة الإصلاحية الهولندية في أميركا The Dutch Reformed Church of America على جزر البحرين في الخليج العربي. وهنالك عدد من المحطات على امتداد الساحل، وهي، على غرار ميلاتها، بانتظار الوقت الذي يتهيأ لها فيه المدد البشري والمادي للانتقال إلى داخل البلاد. عجل الله حلول هذا الوقت!

هذا المعنى، إضافة لمعنى الكاتب، تمثلاً كل ما هو متيسر حالياً للتبشير في جزيرة العرب وخلاص إسماعيل<sup>(1)</sup>.

يُعد المؤلف أول مبشر مسيحي يسبر أغوار جزيرة العرب التي ستواfin الفصول التالية بشرح مفصل عنها.

تحتاج جزيرة العرب على الفور إلى:

البعثة التبشيرية التمهيدية The Pioneer Missionary

البعثة التبشيرية الطبية The Medical Missionary

البعثة التبشيرية التبشيرية The Evangelizing Missionary

البعثة التبشيرية التعليمية The Teaching Missionary

هل يبادر بعض قراء هذه الصفحات إلى التبرع بالمال لمساعدة البعثة التبشيرية في التبشير بجزيرة العرب، مثلما يبادر أثرياء نيويورك إلى التبرع لتمويلبعثات الاستكشافية للقطب الشمالي، مستجلين الفضل والمفخرة والرفة لبلادهم جراء مثل هذه الأعمال؟!

(1) وكانبني إسماعيل كانوا مثلاً ضائعين! حقاً إن هذا المبشر الشاب على قدر وافٍ من السذاجة. من الواضح تماماً أنه لم يُتع له قراءة شيء من التراث الديني والعلمي والفلسفـي والأدبي العظيم للإسلام، على غرار معاصره الأميركي ألكساندر رسـل وب Alexander Russell Webb الذي اعتنق الإسلام في عام 1888 وراح ينشره في أميركا. انظر حوله كتاب: رحلات المغامر العربي الحاج عبد الله ولـيمـسون.

هل بوسعنا نحن أصحاب النفوس النيرة  
بفضل الحكمة الإلهية التي من الله بها علينا  
أن ننكر على من يعمهون في عتمة الزيف والضلال  
نور الهدایة الذي يعينهم على تلمس سبيل الخلاص؟  
بناء على تجربتي في جزيرة العرب، يبدو أن بوسعنا ذلك<sup>(1)</sup>.

\* \* \*

---

(1) وبناءً على تقييم رحلات فوردر التبشيرية ومن بعده زويمر، من البديهي أن نقول إن فشلهما كان هائلاً ومدوياً.

## الفصل الرابع عشر

### محاولات لدخول جزيرة العرب تنتهي باعتقال وسجن وظام مكسرة

لقد أسمم الفصل السابق في تعريف القارئ بجزيرة العرب، حيث أن رغبتي كانت بارتيادها وتهيئتها للعمليات التبشيرية. وكلما كانت رغبتي تزداد كانت المصاعب تتفاقم وتتراكم، وقد عمد أولئك المهتمون برحلاتي وعملي إلى ثنيي وبقوه على عدم الإقدام على القيام بهذه الرحلة لوحدي.

لقد كانت فكرة اصطحاب رفيق فكرًّا صائبة؛ وقد تم طلب متطوعين لهذه المهمة، فانبرى لها اثنان من الشباب بادرًا إلى عرض خدماتهما، وكل منهما يعتقد في قرارة نفسه أنه الفتى المناسب لهكذا مهمة.

وقد تم كما هو متوقع تأمين الموارد المالية لهذه الرحلة بشكل كامل، ولم يعد ينقصني سوى وصول الرفيق.

وانقضت الشهور وكانت الأعذار تتوالى الواحد تلو الآخر لتأخير الانطلاق. وفي نهاية المطاف قرر المتطوعان كلاهما الإقلاع عن هذا المشروع جملة وتفصيلاً، الأول كونه آثر البقاء مع عروسه الجديدة، والثاني بسبب افتقاره إلى الإيمان والشجاعة اللازمة للقيام بمثل هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، دون التعويل على مساعدة أحد.

منذ ذلك الحين وأنا ممتن لله على انسحاب الشابين من هذا المشروع، لأن الفصول

التالية ستكتشف عن هول المصاعب والأخطار التي كانت بانتظارنا، والأرجح أن هذين المتطوعين كانوا سيشكلان عائداً أكثر منه عوناً لي في هذه المهمة.

الآن برب السؤال التالي: «هل كان من الصواب تأجيل الرحلة، أم كان من الأجدى الانطلاق بها وحدي؟».. فآثرتُ الخيار الثاني. وهكذا شرعت بالاستعداد للرحلة، وخلال فترة وجيزة كنت جاهزاً للانطلاق. نسخ الكتاب المقدس، حاجياتي الخاصة، بعض العقاقير العلاجية والملابس، جميعها جرى تحضيرها وحزمها استعداداً لبدء الرحلة.

وأخيراً، تم اكتراء الدواب والرجال لنقلني إلى تخوم الصحراء على الجانب الشرقي من القدس. وجهتي الأولى في هذه الرحلة كانت بلدةً تدعى مَعَان Maan، وهي تتالف من بلدتين مزدوجتين عند الطرف الشمالي لصحراء جزيرة العرب، وهي تبعد حوالي مئتي ميل عن القدس، ومن تلك البلدة المزدوجة كنت متيناً من العثور على أحد مضارب البدو أو الالتحاق بإحدى القوافل العابرة التي ستقلنني إلى أول امتدادات الصحراء التي يتوجب على عبورها.

كانت بداية انطلاقي في هذه الرحلة حوالي نهاية العام 1899 برفقة ثلاثة رجال معروفيين من قبلي. كانت حقائبِي محمّلة على زوج من البغال؛ بينما خصّصت بغالاً ثالثاً لركوبِي.

كان كل شيء على مدى أربعة أيام يسير على ما يرام. ثم طرأ ما أعاد تقدمنا، وكان أمراً متوقعاً.

كنا قد وصلنا إلى أحد مضارب البدو عند الطرف الشرقي لسهول مؤاب الشاسعة. الناس هناك كانوا قد شاهدوني من قبل، وفي الحقيقة، فقد سبق لي أن عالجت أحدهم بعد معركة شرسة مع إحدى القبائل المعادية. لذلك فقد استقبلت بحفاوةٍ بالغة وعوملت بأحسن ما تكون المعاملة كضيفٍ معزّزٍ مكرّم.

نهضت باكراً في صباح اليوم التالي وأنا على أتم الاستعداد للشروع في المرحلة

الثانية من رحلتي، لكن مُضيّفَي أصرّوا على استبقاءي لقضاء اليوم معهم، فوافقتهم.

قضيت شطراً من ذلك اليوم في خيمة الضيف، حيث اجتمع العديد من الرجال للتسامر وشرب القهوة، لكنهم وافقوا بسرور على الاستماع إلى وأنا أقرأ لهم مقاطع من الكتاب المقدس وأحدثهم عن المخلص و حاجتهم لتكفيره عن آثامهم.

ووجدت عدداً من الرجال القادرين على القراءة، حيث قمت بإهدائهم نسخاً من الكتاب المقدس وبعض النصوص الدينية التي تتلى أيام الصوم، فتقبلوها شاكرين.

لقد هيأت لي الزيارات المتكررة إلى الخيم الفرصة للتتحدث إلى الناس أو إسداء بعض النصائح اللطيفة للنسوة المنشغلات ببعض واجباتهن العديدة.

وحلّ المساء، وما إن انتهينا من تناول طعام العشاء وبدء التحضير لقهوة ما بعد العشاء، حتى تناهى إلى سمعنا وقع حوافر خيل على الأرض الصلبة، يخالفه صليل السلاسل وقعقعة السلاح.

انطلقت الكلمة «العسكر» من شفاه عديدة. ولم يكادوا ينطقوا بهذه الكلمة حتى تقدم ستة من جنود الخيالة الأتراك بإمرة ضابط وتوقفوا عند باب الخيمة الطويلة السوداء. وبعد أن ترجلوا وعقلوا جيادهم بجانب الخيمة أو أتواها، دخلوا إلى الخيمة ثم سألوا بنبرة حادة: «أين هو ذاك الرّحالَة الذي تستضيفونه هنا؟» ساد الصمت لبرهة، ولم يجرؤ أحد من أصدقائي المذعورين أن ينبس ببنت شفة. وحيث أني كنت مرتدياً لزي التقليدي لأنباء المنطقة، لم يتبنه أحد لوجودي وسط الجمع.

نهضت وتوجهت إلى الضابط الفظّ وأخبرته بأنني أنا الشخص الذي يستفسرون عنه، وسألته عما يريد مني. أخبرني أنه قد أرسل لاعتقالِي وأخذني إلى الحاكم التركي في مكان يبعد حوالي ثلاثين ميلاً.

اقترح عليهم شيخ القبيلة أن يمضوا الليل هنا في مضاربه، لكنهم رفضوا، ثم طلبوا إحضار دوائي وأمتعتي، فأحضرت على الفور، وفي غضون دقائق كنا في طريقنا إلى الحاكم، أنا في وسط الجنود، والأمتعة والدواب في الخلف يقودها بعض الأعراب،

الذين أرغموا على غير إرادة منهم على القيام بهذا المسير الليلي.

سرنا لحوالي ثلاث ساعات، لم نتفوه خلالها سوى ببعض الكلمات. في إحدى المرات، عمد الضابط الفظ إلى شتمي ونعتي بالكلب، كوني السبب وراء إرسالهم في هذه المهمة على جناح السرعة وتجشمهم هذا العناء لاعتقاله.

ثم تفوه بأشياء أخرى في أثناء مسیرنا كوني تمادي معه في الكلام ونبهته إلى أن من غير اللائق ولا في صالحه أن ينعت رجلاً إنكليزياً بالكلب.

تلقي الرجل تعنيفي وتحذيري له على محمل الجد، وأعتقد بأنه بات أكثر تعلاً وحذرًا، أو على الأقل بات أكثر هدوءاً بالتأكيد.

في حوالي الساعة العاشرة لمحنا نيران المعسكر، ثم ترجلنا على الفور عند باب خيمة الزوار. كان الناس يعرفونني وأسفوا الرؤيتي قيد الاعتقال. ثم لم يتربّدوا في إخبار العسكر عن مساعدتي إياهم أوقات الشدة، حتى أن أحد هم شمر عن ساعده ليريحهم أثراً جرح جراء طعنة رمح كان قد تلقاها وقامت بخياطته له.

أمضيت تلك الليلة في عهدة من أسروني، ثم أيقظوني صباح اليوم التالي لمتابعة المسير.

وبعد حوالي أربع ساعات وصلنا إلى المكان الذي كان العسكر قد قدموا منه. أخذوني إلى دار السّرايا وسلموني للضابط المناوب هناك. لم يجد في الضابط ذاك الصيد الشمرين، وأخبرني بوجوب الرجوع إلى القدس تحت الحراسة حيث أن الأوامر تقضي بعدم السماح لأيّ حالة بسلوك ذلك الطريق دون إذن خاص من القسطنطينية. مكثت أسبوعاً في تلك المدينة العربية، حيث تخلصت من معظم كتابي ثم أرسلت إلى القدس تحت حراسة ثلاثة جنود.

رغم أن أولى محاولاتي انتهت بفشل واضح، إلا أنني اكتسبت منها قدرًا لا بأس به من الخبرة والمعرفة التي أفادت منها فيما بعد، وقد صدق في القول بأنَّ رُبَّ ضارة نافعة.

في أوائل الربيع التالي<sup>(1)</sup>، انطلقت مرة أخرى، وهذه المرة بصحبة أحد السادة المحترمين<sup>(2)</sup> الذي كان لأغراض البحث الجغرافي والعلمي في زيارة لإدوم في طريقه إلى معان.

بما أنه كان قد استحصل على إذن حكومي، فقد وصلنا في الوقت المحدد إلى المكان الذي كنت قد انطلقت باتجاهه في رحلتي السابقة ولم أفلح في الوصول إليه. بعد بضعة أيام أمضيناها في معان، رجع صديقي من رحلته تاركاً إياي وحيداً، على أمل استكمال مسيري شرقاً.

هنا في معان أيضاً التقى بناس يعرفونني من خلال عمل جراحي أو مساعدة طبية كنت قد قدمتها لهم قبل سنوات عندما كنت في الكرك.

لأنه يعرف قيمة البعثة الطبية كوسيلة لاستكشاف وسبر أغوار بلاد جديدة؛ هذا مثال من عدة أمثلة أخرى من بلاد أخرى. لا أحد يجدر به أن يستهين أو يستخف بعمل البعثة الطبية.

وضعوا منزلاً بتصرفي أو دعت فيه كتبى حاجياتي. وكان سريري عبارة عن كيس ممدود على الأرض القاسية، ودثارى في الليل لم يكن سوى عباءتى التقليدية الفضفاضة.

كل شيء سار على ما يرام في خلال الأيام الثلاثة الأولى. ومقابل نسخ الكتاب المقدس كانوا يعطونني البيض والخبز والفاكهه، وكانت أجلب الماء من ينبوع قريب لأغراض الشرب وغسيل الثياب.

في عصر اليوم الثالث، حضر أحد العسكر إلى باب منزلي ومعه أمر بمثولي حالاً

(1) يقصد ربيع عام 1900 م.

(2) أظنه يعني الآثاري الأميركي الشهير هاورد كروسبى بتلر Howard Crosby Butler (1872-1922) الذي قام بثلاث بعثات أثرية في الصحراء السورية وجنوب بلاد الشام، وله مؤلفات عديدة مهمة.

أمام الحكم المحلي. كان أحد الذين أسهموا بدور أساسي في مجزرة الأرمن قبل مدة، وقد كوفئ من قبل الحكومة التركية بتعيينه حاكماً لمعان.

ذهبت إليه، حيث بدأ بترويعي وإخافتي، ثم أمرني بمعادرة المكان خلال ساعة واحدة. أخبرته بأنني مخول بالتوارد هناك بحكم القانون، وأبرزت له جواز سفرى التركى . سخر من ذلك وقال أن بوسعي التصرف على هواه بصفته الحاكم هنا. ثم أمر بحجزي داخل إحدى الغرف الصغيرة حتى الصباح ريثما يتم بإعادى عن المكان تحت الحراسة.

وهكذا، فقد تم وضعى رهن الاحتجاز مع اثنين آخرين طيلة تلك الليلة. وفي صباح اليوم التالي حضر إلينا اثنان من العسكر ومعهما بغل لتحميل أمتعتى. أمرت بالركوب، ثم قدموا لي كسرتين من الخبز اليابس حيث جرى بإعادى عن معان تحت حراسة اثنين من العسكر، مديرًا ظهرى لجزيرة العرب للمرة الثانية، تملؤنى العزيمة والتصميم أكثر من أيّ وقت مضى على عدم الاستسلام للفشل.

ولكوني جربت الطريق الجنوبي مرتين وفشلت في كلتا المحاولات، فقد قررت أن أجرب الطريق الشمالي وأحاول الالتحاق بإحدى القوافل المتوجهة إلى جزيرة العرب من دمشق.

بعد مكوثي لعدة أيام في البيت، مضيت في انطلاقه جديدة، في اتجاه آخر مغاير تماماً هذه المرة.

في اليوم الرابع من انطلاقتي، وبينما كنت نسير الهوينى في طريق متعرجة، انتاب الحصان الذي أمامي حالة من الهياج المفاجئ وشرع بالرُّفس والركل، وقبل أن أتبه لما حدث، وجدت نفسي ملقى على الأرض أسفل حصاني علي عند حافة المنحر الحاد وساقي اليسرى مكسورة.

بقيت ممدداً هناك لعدة ساعات، بينما هرع أحد الرجال عائداً إلى أقرب نقطة مأهولة لتأمين طبيب. وبعد أن عاد الرجل حملت إلى منزل الطبيب بساق مثبتة إلى دعامة خشبية.

كان العظم قد تشظى بشدة، ما اضطرني إلى الاستلقاء في الفراش لأسابيع وساقتني الجبيرة. وأخيراً تم نقلني إلى بيتي في القدس ومن ثم أبلغتُ بأنني لن أتمكن من استخدام ساقي بعد اليوم كون العظم جُبْر بطريقة خطأة. أملِي الوحيد كان في الذهاب إلى المستشفى لإعادة فتح الساق وكسر العظم واستخراج بعض الشظايا ومن ثم إجادة تجبيه من جديد بالشكل المناسب.

فعلتُ ما أشير علي به، وفي غضون بضعة أسابيع كان بمقدوسي التحرك على عكازين. وبعد مدة بالاتكاء على عصا، ثم بات بإمكانني التحرك بحرية دون الاستعانة بشيء، الأمر الذي أشعرني بالسرور والبهجة.

مرة أخرى تأخر دخولنا لجزيرة العرب، وكان قد جرى ما فيه الكفاية لتبسيط أيّة رغبة أو حماسة مزعومة لدى للقيام بذلك، هذا إن كان مثل هذا الشيء له وجود أساساً، وفي مطلق الأحوال بالنسبة لحالتي أنا لم يكن له وجود.

لكن هذه المعوقات وخيبات الأمل المتالية جعلتني أكثر تصميماً على تنفيذ ما كنت عازماً على تفزيذه، لاعتقادي بأنها رغبة زرعها الإله في نفسي.

نصحني البعض بالتخلي عن هذه الفكرة من أساسها، لأن القدر بلا شك كان ضدّي في ذلك. لكنني لم أكن أرى أن طريقي كانت سالكة في هذا الاتجاه، لأن هداية إسماعيل Ishmael وخلاص جزيرة العرب the Redemption of Arabia لا يمكن أن يبقى في خطر، ولا ينبغي لأيّ من هذين الأمرين أن يتم من دون عثرات وإخفاقات ومحاولات دؤوبة قدّرها حكيم لا يخطيء، يجعل للمتّقى مخرجاً من حيث لا يحتسب.

كان يمكن للاعتقال والأسر أن يُحبطا من عزيمتي، والساقا المكسورة أن تفسّر على أنها فأل سيء، لكن اليسر تمُّحض من كل ذلك العسر بفضل المعاناة والمعرفة والإيمان الأشد رسوحاً والرؤى الأعمق، وعلى رأس ذلك كله بالنجاح الذي أسهم الكثيرون في التمهيد له والإيمان به ولو طال الزمن به ليتحقق.

كانت حلاوة النجاح أللذ طعمًاً ومشاعر الغبطة والسرور أقوى وأعمق، لأن ماتحقق تحقق بعد سلسلة من المعوقات وخيبات الأمل المريمة. والफصول القادمة ستخبركم عن أيام أفضل وعن وصولي إلى تخوم الصحراء.

\* \* \*



### امرأة مسيحية من مؤاب

هذه المرأة من سكان الكرك عاصمة مؤاب، وهي تنتمي إلى عائلة الشيفخ هناك. قارنها بالنسوة الثلاث الواردات صورتهن أعلاه ترى الاختلاف واضحًا تماماً. وأسرتها مشهورة جداً بين العرب لحسن ضيافها، وهذه المرأة وزوجها دائمًا يكرمان المستر فوردر أثناء زيارته إلى بلدتهم، مقابل الخدمات التي أسدوا لها خلال مدة الطويلة من المرض والمتاعب.

## الفصل الخامس عشر

### مغامرة رابعة تحملني إلى تخوم الصحراء

لم تُبْطِلِ الإحباطات وخيبات الأمل السابقة من عزيمتي إلى الحد الذي يحملني على التخلّي عن فكرة الوصول إلى إقليم وبلدة الجوف Jowf، أهم وأكبر بلدات شمال جزيرة العرب<sup>(1)</sup>.

بالرغم من المصاعب والأخطار والمعوقات التي واجهتني والتي يمكن أن تواجهني، فإن توعّي لهذه المصاعب والأخطار والمعوقات وتوجسي منها قبل وقوعها كان كفياً لأن يؤدي إلى الإحباط.

العديد من أصدقائي رأوا بأنّ قدر الله قد حان للقيام بمحاولة أخرى للوصول إلى ما وراء مَرْأَبٍ وإدوم. كنا قد أملنا بأن مراقباً رحالة كان، حتى آذاك، في طريقه إلينا، لكننا لم نحظ بأيّ متقطع. وبالتالي، وبقدر من التردد، سمحـت لي جماعتي الصغيرة بالذهاب لوحدي.

في صباح يوم الخميس الثالث عشر من ديسمبر 1900، حضر عدد من الأصدقاء إلى منزلنا في القدس، وفي أثناء تلاوتنا للصلوة، سلّم كلّ منا الآخر لرعاية الله وحفظه، دون أن ندرّي كم سيطول بنا الفراق قبل أن تتحلّق ثانية حول العرش الإلهي. وفي هذه الأثناء، كان يجري تحميل زوج من خيول التحميل في الخارج.

(1) نحيل القارئ على رحلة الرحالة الإيطالي كارلو غوارمانى عام 1864، والرحلة البريطانية الليدي آن بلنت وزوجها عام 1879.

كانت أربعة حقائب من نسخ الإنجيل والنصوص المقدسة والمنشورات وبعض الاحتياجات الضرورية للرحلة، إضافة لمرافق واحد خلال الأيام القليلة الأولى من رحلتي، كافيةً لبدء التحرك في أول رحلة تبشيرية إلى جزيرة العرب من جهة الشمال.

رافقني عدد من الأصدقاء لمسافة قصيرة، ثم أزفت ساعة الوداع.

لم يكن من الصعب قول كلمة «وداعاً» للكبار، لكن الشعرة التي قصمت ظهر تجلّدي ومكابرتي جاءت من طفلي الصغير ذي الأعوام الأربع، الذي، لدى انحنائي إليه لتقبيله، قال لي بصوته الطفولي البريء: «هل سيطول غيابك عنا يا أبي؟».

كان سؤالاً لا يمكن لأحد أن يجيب عليه. فالغيب في علم الله وحده.

امتنع قمة أحد الحملين وانطلقت في طريقي متسائلاً متى سأكحل عيني برؤيه هؤلاء الأصدقاء والأحبة ثانية، ومتفكراً طوال الطريق بمَ ستتأتى هذه الرحلة البسيطة الهداثة والمتواضعة صوب موطن ومسقط رأس الخصم العظيم المواجه لل المسيحية، ألا وهو الإسلام.

سرعان ما خلّفتُ ورائي خارج أسوار المدينة تمثّل السيد المسيح على الصليب وجبل الزيتون إلى جهة الشرق؛ ورمقتُ القدس بنظرة أخيرة من طريق بيت عانيا Bethany ، ثم سرعان ما تجاوزت هذه القرية الصغيرة الوادعة بالذات، وصدى صرخات أطفالها الصغار من ورائي طلباً للبقشيش ما زال يتردّد في ذنبي.

وصلنا أسفل الوادي عند خان السامرائيِّ الطيب Good Samaritan's Inn، حيث التمسنا شربة ماء من ذاك الشاغل الوحيد لهذا النزل المُبَجَّل الذي يتدبّر أمر حياته هنا من خلال بيته لبعض المشروبات وتقديم فناجينَ من القهوة أعدّت على عجل للعبارين.

سرعان ما وصلنا إلى أريحا Jericho، حيث استقبلنا صاحب فندق الأردن Jordan Hotel الطيب القلب بالترحاب. هنا التقى بصديق الرحالة الودود الذي يرافعهم إلى الأرض المقدسة، سعادة قنصل الولايات المتحدة في القدس سِلاه ميريل<sup>(1)</sup> Selah Mirell

(1) سِلاه ميريل (1837-1909) قسٌ بروتستانتيٌّ أميركيٌّ ومُربٌّ وعالمٌ آثارٍ يتبع الجمعية الأميركيَّة

Merill، الذي كان هناك مع أخيه لقضاء فترة من الراحة والاستجمام في مدينة أريحا ذات الجو الهادئ والهواء العليل.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، انطلقنا مجدداً سالكين طريقاً عبر سهول الأردن وعبرنا نهر الأردن إلى السهول المقابلة في طريقنا نحو جبال جلعاد Gilead.

حوالي المساء وصلنا إلى إحدى القرى الشركسية عند رأس وادي السير Wady Seir، وعبّاً حاولنا إيجاد ملاذ يقيينا العاصفة المرتقبة. لكن أبناء الشركس في تلك المناطق لا يكتنون أيّة مودة للغرباء، وأخذوا يصدّونا ويردوننا عن أبوابهم الواحد تلو الآخر، إلى أن قررنا أخيراً قضاء ليتنا في العراء، حتى لو اقتضى منا ذلك السهر والتربّق طوال الليل.

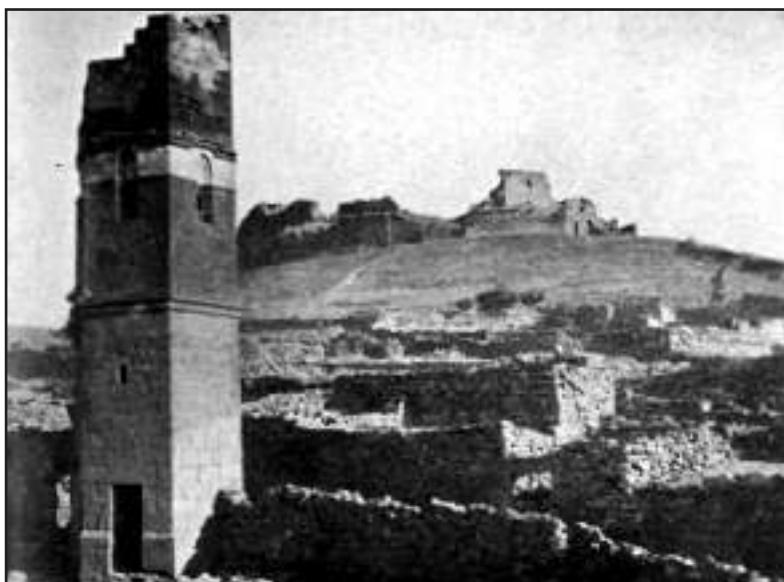
---

لاستكشاف فلسطين American Palestine Exploration Society، كما كان دبلوماسيًّا وشغل منصب قنصل الولايات المتحدة في القدس بين 1882-1885 ثم 1891-1893 ثم 1898-1907. قام بحفريات أثرية في القدس الشريف في أسوار المدينة، وفي موقع الجُلْجُلة فيها. أما اسمه Selah فليس مأخوذاً عن العربية (صلاح)، بل هو عبارة عبرية ترد في التوراة في سفر المزامير خصوصاً، ومعناها: فتفكر.



### الجُلْجُلة خارج السور

التل الموجود على اليسار هو الجُلْجُلة أي موضع الجميجمة. وعلى اليمين السور الشمالي للقدس. هذا الطريق يؤدي إلى أريحا ولقد اجتازه المستر فوردر عندما حاول الدخول إلى جزيرة العرب.



### برج قديم وقلعة في صلخد

هذه البقايا الأثرية العتيقة من العصر الحجري تقع على حافة الصحراء جنوب شرقى دمشق. ويرد أدناه في الكتاب كيف اجتاز المستر فوردر بهذا المكان في الصباب. وال حاجز التركى يمنع للمسافرين المعاصرین من زيارة هذه الآثار المهمة.

هناك عند أطراف القرية التقينا بأمرأة صرخت في وجهنا مستفسرة بطريقة عفوية تفتقر إلى اللباقة: «إلى أين أنتم ذاهبون في مثل هذا الوقت؟ نحن الآن في وقت الغروب وسرعان ما سيرخي الليل بسده». فأجبناها بقولنا: «لقد جهدنا للعثور على غرفة لم يبيت الأغراب، لكن كل الأبواب أغلقت في وجهنا». فكان جوابها: «إن بيتي مفتوح للجميع، هيا، هلموا معي لقضاء ليتلكم معنا».

وهكذا وبعد أن أجبناها إلى دعوتها وأطعنا أوامرها، سرعان ما ألفينا أنفسنا داخل تلك الفسحة الضيقة المحدودة المساحة التي يطلق عليها اسم الدار. كذلك سرعان ما تبين لنا أنها لسنا الوحيدين بين تلك الجدران الأربع. فقد اتسعت إحدى أركان المنزل ليس فقط لزوج الأحصنة خاصتنا، وإنما لحاجيات صاحبة البيت أيضاً في الممر الذي تسلكه دوابها: بغل وحماران وزوج من ثيران الحراثة وبعض الخراف والماعز، إضافة لمجموعة الديوك والدجاج الاعتيادية. أضف إلى ذلك مضيقنا ومضيقتنا وأربعةأطفال صغار لم يمسَ جلدُهم الماء منذ أمد بعيد، اكتملت بهم الحلقة.

لا حاجة بي للتطرق إلى ذكر تلك المجموعة التي لا تعد ولا تحصى من الوثابين jumpers الذين ما برحوا بجهودهم الملحة في تناول الطعام بهم يذكرونني بوجودهم.

قدّمت لنا وجبة العشاء المكونة من الخبز والبيض المقلي واعتذرنا عن تقديم القهوة لعدم توفرها. بعدها جلسنا نتجاذب أطراف حديثٍ، سرعان ما انتقلت به إلى وجهة دينية. وبعد أن قدّمت لهم الكتاب المقدس أمضينا وقتاً في القراءة والتحدث عن الخلاص Salvation، ما أثار اهتمامـ، بل أنا متّيقن مما أقول، أسمـهم في الخير الأبدي لهؤلاء الناس البسطاء<sup>(1)</sup>.

وبعد أن أخذ التعب منا كل مأخذ، استلقينا على الأرض الطينية مدثرين بعباءاتنا التقليدية في محاولة منا لأخذ قسط من الراحة، ولكن آتـى لنا ذلك.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي كنا نهمـ بالتحرك. عرضت علينا المرأة الطيبة

(1) يلقي فوردر الكلام جزاً وكان علينا أن نصدق أنه نجح في مهمته الفاشلة.

أن تقدّم لنا ربطه من الخبر الطازج لو تريثنا قليلاً ريشما تنتهي من خبزه، وهو ما فعلناه.

بعد يومين وصلنا إلى بلدة السلط Salt-Gilead ثم راموت جلعاد ...

ومن ثم جرش Gerash في طريقنا إلى إزرع Edrei في باشان Bashan.

التقيت في طرقي عددًا من أصدقائي من أبناء الكرك في طريق عودتهم من دمشق حيث كانوا قد أرغموا على الذهاب يحملون بضائع للحكومة التركية.

اليوم التالي، وهو اليوم السادس على انطلاقتنا، بدأ غائماً و العاصفاً، لكننا تابعنا مسيرنا على أمل تحسن الطقس. كان قد مضى على مسيرنا نحو أربع ساعات في وجه رياح شرقية باردة عندما بدأت تمطر، ثم بدأ تساقط البرد وسرعان ما أخذنا ن قطر ماء.

الملاذ الوحيد الذي تراءى أمامنا كان مدينة بصرى الأثرية، إحدى كبريات مدن باشان، بقلعتها الضخمة وأثارها الرائعة. كان قصداً تجنب هذا المكان وتحاشي احتمالات القبض علينا من قبل المسؤولين الأتراك وإعادتنا إلى الوطن تحت الحراسة كما في المرات السابقة في الجنوب. على أية حال، ومع استمرار العاصفة، وجدنا أنفسنا مرغمين على دخول البلدة.

قررنا اللجوء إلى بيت الضيافة في أبعد أحياء المدينة عن القلعة، مكان تمركز العسكر والضباط. ولكن أنت تريد وأنا أريد، والله يفعل ما يريد، لكي ييرهن للإنسان بأنه وحده صاحب الأمر وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

دخلنا المدينة من جهتها الشمالية، نتبخرط بين البيوت الخربة والجدران المتداعية. فقصدنا أول بيت صادفناه في طريقنا، لنجد أن ردهة الضيافة كانت مليئة عن آخرها. مضينا صعوداً ونزولاً في الأزقة الضيقة الموحلة، على أمل العثور على مأوى، لكن الجواب ذاته كان يتناهى إلى مسامعنا في كل مرة: «لم يتبق لدينا موطن قدم بسبب العاصفة المفاجئة، عليكم أن تبحثوا في مكان آخر».

أخبرنا أحد الرجال بأنه قد قدم لتتوه من بيت الحاكم وأن دار الضيافة الكبيرة هناك خالية تماماً. فغادرنا المكان ثانية وطفقنا نسوق الدواب أمامنا عبر زقاق طويلة ضيقة

عندما التقينا وجهاً لوجه ب الرجل يبدو من لباسه أنه من أبناء الحكومة.

توقف الرجل وسألنا من نكون ومن أين قدمنا وأين وجهتنا، فأجبناه على كل أسئلته. وبمجرد أن عرف بأننا كنا نبحث عن مأوى، قال لنا: «لا عليكم، اتبعوني وسأجد لكم ولدوا بكم مأوى في منزل الحاكم».

لم يكن بوسعنا إلا الإذعان لعرضه واللحاق به. وخلال دقائق قليلة كنا داخل الباحة الكبيرة لدار الحاكم عند عتبة باب غرفة الضيافة.

رحب بنا الخدم، في غياب سيدهم، ثم نقلوا أمتاعنا إلى الغرفة الكبيرة؛ أما دوابنا فأخذت إلى الإصطبل.

كان موقد الحطب الكبير وسط الغرفة ينشر الحرارة في أنحاء المكان. جلسنا نلتمس الدفء لأنفسنا قرب النار، ممتنين لهذا الملجأ الذي وقانا وطأة البرد القارس والمطر في الخارج. كان موظف الحكومة الذي أتى بنا إلى هنا قد مضى لحال سبيله وتركنا هنا.

أشغلت الرجال القلائل بالحديث، وسرّني معرفة أن الحاكم لم يكن تركياً، بل عربياً من أبناء المنطقة. كان ذلك أمراً مشجعاً، حيث أني كنت أتطلع إلى معاملة أفضل من مثل هذا الشخص، أكثر منه من حاكم غريب عن الوطن.

وبعد قليل رجع موظف الحكومة وهو بكامل لباسه ومتقدلاً سيفه، للدلالة على سمو مرتبته.

وما هي لحظات حتى بادرني قائلاً: «إنّ عملي كمفتش يقتضي مني تفحص كافة الحقائب والأمتعة التي أحضرت إلى هذا المكان؛ هيا انهض وافتح حقائبك لكي أطلع على محتوياتها». كان ردّي عليه مقتضباً، وإنما لاذعاً: «أبداً، فهذا ليس مركز جمارك». في البدء، سلك معي سبيل الإنقاض، ثم لجا إلى التهديد والوعيد لحملي على فتح الحقائب. لكن لم يكن لدي سوى جواب واحد وهو: «كلا». وأخيراً قال لي: «إذا لم تفتح حقائبك فأنا سأفعل». قلت له: «هيا إذاً، ماذا تنتظر».

كنت قد أخبرته عن محتويات الحقائب، لكنه اتهمني بالكذب. قال لي: «فيها بنا دق

وبارود، بهدف تسليح العرب وحملهم على الانتفاضة في وجه الحكومة». مع ذلك، فقد كان الرجل من التعقل بحيث أنه لم يقدم على لمس حاجيتي، ثم حاول سلوك سبيل الحسني من جديد. وأخيراً قلت له: «الدي شرطان قبل أن أفتح الحقائب للافتيش. الأول، أن تأتيني من القنصل البريطاني، وأيضاً من الحكم التركي في دمشق - التي تبعد مسيرة ثلاثة أيام - بأوامر خطية بوجوب القيام بذلك، أو، ثانياً، أن ترافقني إلى دمشق؛ وهناك، وبحضور القنصل البريطاني، أقوم بفتح الحقائب، إذا ما أمر بذلك، كي تتولى تفتيتها». عندها غادر المفتش المكان متوجهاً حسب زعمه للقاء الرئيس المسؤول.

وبعد أن انتهينا من تناولنا طعام العشاء، حضر الرئيس المسؤول ليجتمع بنا. فطرح علي العديد من الأسئلة التي أجبته عليها؛ ثم طلب الاطلاع على جواز سفرى التركي، فقدمته له. وبعد تفحص جواز السفر أعاده إلي قائلاً بأن كل شيء كان على مایرام. أخبرني بعدها أن أوامر الحكومة تقضي بعدم السماح لأيّ أوروبي بارتياد تلك المناطق، وأن لديه أوامر بإبعاد كل من يحاول دخولها تحت الحراسة. «ولكن»، قال لي «كونك تبدو عليك ملامح العرب، وأنك ذاهب إلى دمشق، فبحفظ الله ورعايته». لم يكن لديه أدنى فكرة حول كم سيستغرق مني ذلك، أو ما هي المسافات التي يتوجب علي قطعها لبلوغ دمشق.

جلسنا لتحدث. أخبرته عن المفتش المتطرف، فطلب مني ألا أقتفي إليه بالاً. عندها تدخل طالباً أن يُمنَح الإذن من قبل الرئيس المسؤول هنا - يقصد مضيفي - لفتح الحقائب. فكان الجواب: «هذا الرجل هو ضيفي الليلة، وعليه فعلن أسمح لك بلمسه أو لمس حقائبه طالما هو في بيتي. غداً صباحاً عندما ييرح منزلي بوسعك أن تفعل ما يحلو لك، ولكن طالما هو تحت حمايتي، فعلن أسمح لأحد بالتدخل في شؤونه أو لمس أمتعته؛ فنحن نحترم ونحمي كل من يلوذ بنا أو يدوس بساطنا».

بعدها، غادر الرجل ولم أعرف عنه شيئاً بعد ذلك. ثم أخرجت العهد الجديد وجلسنا حتى العاشرة والنصف نتسامر ونتحدث عن يسوع. وعندما هم بالانسحاب إلى جناحه، قدّمت له نسخة بالعربية من العهد الجديد، فتقبلها شاكراً.

استيقظنا صباح اليوم التالي على نهار غائم وضبابي. قررنا أن نشد الرحال آملين بتحسين الطقس. وعندما أشرفنا على ظاهر المدينة ويمينا وجوهنا شرقاً، وجهة سيرنا المقصودة، تراءت لنا على بعد، على مسافة تقرب من عشرين ميلاً، قلعة صلخد Sulkhad العريقة والذائعة الصيت. كانت رغبتنا أن نتجاوز ذلك المكان ونبت ليلتنا في عرمان<sup>(1)</sup>, إحدى البلدات الدرزية الكبيرة، حيث كان على أن أتخلى عن مرافقي ودوابي كي يعودوا إلى القدس.

كان طريقنا يمتد عبر سهل فسيح منبسط في درب ضيقة صخرية وعرة تفرضها طبيعة الأرض.

حوالى الظهيرة، وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى الغصم El-Ghusm؛ كان علينا أن نمرّ من وسطها. لفت انتباхи هنا عدد من الأبواب الأثرية الجميلة التي هي عبارة عن مسطوحات صلدة من البازلت تدور حول خواصير (مفصلات) من الحجر ذاته متوضعة داخل تجاويف أونقرات. كنت محظوظاً لتمكنني من التقاط عدد من الصور الجميلة لهذه الأبواب الحجرية.

بعد مغادرتنا لهذا المكان، تلبدت السماء بالغيوم وبدأت عاصفة أخرى بالهبوط. الرياح والمطر والبرد جعل من المستحيل بالنسبة لنا أن نرفع رؤوسنا وننطلع إلى الأمام. حتى دوابنا لوت أعناقها بعكس الريح وانحرفت عن مسارها؛ وسرعان ما تبيّن لنا بأننا قد ضللنا الطريق.

تبينت من البوصلة التي كنت أحملها بأننا كنا متوجهين جنوباً بدل الاتجاه شرقاً. حاولنا أن نسلك طريقنا شرقاً مرة أخرى، ولكن من غير طائل. واظبنا على محاولاتنا على مدى ساعات ولكن دون أن نحقق أي تقدم. ثم تكافث الضباب إلى أن حجب عنا مرأى القلعة الأثرية التي كان علينا أن نمرّ بها. كنا نرتجف من البرد والبلل، ثم تراءى لنا أننا قد نُرغم على قضاء ليتنا في العراء لأن الليل كان قد بدأ بإرخاء سدوله علينا.

(1) عرمان قرية معروفة تقع إلى الشرق من مدينة السويداء، أي من قرى المقرن الشرقي. يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر 1380 متراً.



### الأبواب الحجرية في باشان

هذه البقايا المثيرة للعصر الحجري توجد في شرق الأردن في ديرة الدروز. وهذه الأبواب عبارة عن الواح من البازلت الأسود، تمفصل على محور مندور بفتحات في العتبات العلوية والسفلى. وعندما تدق فهي ترنّ بوضوح كالجرس. وبعض الأبواب التي ما زالت قيد الاستعمال يبلغ طولها تسعة أقدام وعرضها ستة. ومع الأسف يجري تدمير هذه الآثار القديمة لتحل محلّها تجهيزات أحدث.

في هذه اللحظة لمح مرافقي، محمد، دخاناً يتصاعد على البُعد. كم كانت سعادتنا غامرة بذلك، حيث سرعان ما ترجلنا عن الدواب ميمّين شطر ذلك المكان.

تبينَا بأن الدّخان كان يتصاعد من قرية صغيرة تتالف من حوالي ثلاثة بيتاً. قصدنا أول تلك البيوت ولقينا ترحاً حاراً من قبل شاغليه. لم نكن قد اخترنا المكان لجماله وجاذبيته؛ وإنما نظر اللظروف التي كنا فيها. لقد كان من دواعي سرورنا إيجاد ملادٍ يُؤونا، كائناً ما كان.

جرى نقل أمتعتنا إلى الداخل وركنها في إحدى زوايا الدار. ثم دُعينا إلى الجلوس فوق بعض الحصائر العتيقة حول الموقد. تم إحضار بعض الوقود العضوي المكون من روث الحيوانات المجففة<sup>(1)</sup>، ثم جرت محاولة لإشعال النار، لكن حصيلتها كانت دخاناً أكثر منه لهباً أو حرارة، مما أسأل دموعاً منهمرةً من ماقٍ تتلوى ألمًا، لا من حرقة الفراق، وإنما من سفع الدخان الخانق.

قدموا لنا بعض الخبز ونوعاً من الشراب اللزج يقال له «دبس» نغمى فيه الخبز. ولقد جعل الجوع القارص وجنتنا مقبولة ومستساغة. عندما سألنا عن المكان الذي نحن فيه تبيّن لنا أننا على مسافة ساعتين تقريباً من الطريق الذي كنا نسلكه، وعلى مسافة ما يقرب من ساعتين ونصف ركوباً من القلعة. اقتراحي كان أن نمر بالقلعة مع الغسق لكي نتحاشى رقابة العسكر التركي المتمرد هناك. ولكن خططي تم التخلّي عنها مجدداً لكي أتعلم من تجاري بأنني إذا «ما سلمت أمري لله وتوكلت عليه فسيهديني للطريق القويم».

هذا ما تعلمته في اليوم التالي.

بعد العشاء اجتمع رجال تلك القرية الصغيرة التي كنا فيها والتي كان اسمها المُنيدرة<sup>(2)</sup> Moonaythree للتسامر واحتساء القهوة معنا. سرعان ما انكشفت طبيعة

(1) يسمى ذلك الوقود في اللهجة المحلية: الجلة.

(2) من قرى المقرن الجنوبي جنوبى مدينة السويداء على سفح سلسلة جبل العرب.

مهتمي للجميع، ولم أتوان عن تقديم نسخ الكتاب المقدس والنصوص الدينية. بعض الرجال كان قادرًا على القراءة، وما أثار دهشتي، القراءة بحكمة وتدبر. ابتعث مني بعض الرجال عدداً من النسخ ودفعوا لي ثمنها، تيناً مجففاً وطحيناً أو بيضاً. وعندما حان وقت النوم، أدى ثرثعباءة شخص آخر نظراً لأن عباءتي كانت مبللة ومعلقة كي تجف وسط الدخان، ثم تكونت فوق الأرض الصلبة. وعلى الرغم من الصحبة المتواضعة والبرد وتيارات الهواء، فإني سرعان ما استسلمت لرقاد لذيد في حضن الطبيعة الهانئ.

سوف يستنتج القارئ من هذه التوثيقات أن العمل التبشيري ليس بالعمل السهل ولا المريح على الإطلاق. ليستذكر قارئ هذه الصفحات بشكل يومي رجال الله هؤلاء الذي يمثلون كنيسة الوطن بسبرهم أغوار مجاهل جديدة ومخالطة أقوام جدد لكي يتعرف عدد منهم على الأقل إلى مخلصهم من الخطيئة.

في صباح اليوم التالي، ساق إلى القدر رجلاً دفعته العاصفة إلينا، وأقام في منزل لا يبعد عنا كثيراً. كان قد سمع عن الكتب التي بحوزتي وأراد الحصول على بعض منها كي يحملها إلى بلدته التي تبعد عنا مسافة قليلة إلى الشمال الشرقي.

قدمت له ثمانية نسخ، ستةً من العهد الجديد واثنتين من العهد القديم - وقدّمت له أيضاً مجموعة متنوعة من النصوص والمنشورات الدينية. وقد وصلتني بعد بضعة أشهر أنباءً عن الانطابع الطيب الذي خلفته هذه الكتب والنصوص في نفوس قارئيها وأنها كانت تقرأ بقدر كبير من الاهتمام<sup>(1)</sup>.

حيث أن الطقس كان جميلاً، لم نمكث طويلاً؛ وبعد أن تلقينا بعض الإرشادات المتعلقة بكيفية استعادة طريقنا، انطلقنا في رحلتنا برعاية الله وحفظه.

بعد خروجنا من حالة الإحباط التي استحوذت علينا الليلة الماضية، تراءت أمامنا القلعة الأثرية، نقطة علامنا بالأمس. كنت متيقناً من أننا إذا ما أفلحنا في تخطي القلعة،

---

(1) مجرد كلام لا دليل عليه ويخالف ما هو متوقع من مجتمع محافظ على دينه.

فلن تواجهنا أية معوقات من جانب الحكومة، لأن نفوذها وسلطتها ما وراء ذلك المكان محدودة للغاية. لكن المهم في الأمر هو المرور دون أن يلحظنا أحد، وحيث أن الطريق كان يمر أسفل القلعة، فقد بدا أن من المستحيل المرور دون أن يتبنّه إلينا أحد.

كان بوسعنا رؤية العسكر وهم يتحرّكون جيئة وذهاباً فوق أسوار القلعة، وعندما اقتربنا أكثر من الجهة الشمالية بتنا أكثر انكشافاً لأعين الحرس اليقظة، حيث أن الحراسة كانت مشدّدة للغاية في ذلك الموقع. تملّك مراقي خوفٌ شديد وأيقن أنهم سيقبضون عليه لامحالٍ ويعيدونه من حيث أتى. حاولت أن أشجعه بتذكيره كيف نجينا من الاعتقال في بصرى ومؤكداً له بأن الله معنا.

وما أن بتنا على مسافة قريبة للغاية من التلة المؤدية إلى القلعة، حتى ظللتنا غماماً كثيفة من الضباب، وهو أمر غير مألوف إطلاقاً في تلك الأنسنة.

وهكذا، وتحت جُنح الضباب الكثيف مضينا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى عقدة متشرّبة من المسالك تقود إلى اتجاهات مختلفة. لو كان الجو صحواً لتبيّنت طرقتي بسهولة، كونه سبق لي المرور بهذه المناطق من قبل.

سلكنا الاتجاه الخطأ، وسرعان ما ضللنا الطريق، لكننا لم نكن قادرين على تصحح مسارنا بسبب الضباب الكثيف. قلت لمحمد: «ليت الضباب ينقشع للحظةٍ فقط، فأتبيّن موقع القلعة وأحدّد وجهتنا الصحيحة».

لم أكُد أتفوه بهذه الكلمات حتى انقض الضباب للحظات، ما مكّنني من استرافق نظره عاجلة على القلعة كانت كافية لتحديد موقعها في الزاوية الشمالية الشرقية. ترجلت عن حصاني وقللت به راجعاً حيث سرعان ما تعرّفت إلى المسار الصحيح مرة أخرى.

وهكذا، وتحت أستار الضباب الكثيف، مضينا وعبرنا وألقينا التحية على حارس لم نره ولم يرنا أمام دار السرايا، إلى أن وجدنا أنفسنا نضرب بأمان في الأرض العراء

خارج حدود المدينة وقلعتها. وبعد خمس دقائق على تجاوزنا المكان، انقضع الضباب وسطعت الشمس وأمكننا رؤية القلعة والمنزل الذي كان يئوي مندوبي حكومةٍ معارضة لكافحة الحركات التبشيرية.

لقد تعرّفت من خلال هذا الخلاص المُبين الثاني إلى أن يد الله كانت معى، مما شجعني على المضي قدماً وأنا على يقين من أن الله سيكلاً هذه الرحلة باتجاه جزيرة العرب بعين الحفظ والرعاية.

بعد انقضاء ساعة على مرورنا بهذا المكان، وصلنا إلى بلدة عرمان<sup>(1)</sup> Orman. الدّرزيّة المتوضعة عند تخوم السهول الرملية الممتدة باتجاه إقليم الجوف Jowf. كانت هذه هي المرحلة الأولى من رحلتنا، وعلى الرغم من العثرات والعراقيل التي واجهتنا في بعض مراحلها، فإنني كنت أشعر بأن يد الله كانت دائمًا إلى جانبي، مما ولد في نفسي الإيمان بأن المرحلة التالية من رحلتنا ستتكلّل بال توفيق بمشيّئته وتقديره.

نزلنا في غرفة كبيرة للضيافة عند أطراف البلدة. مضيفونا كانوا ثلاثة أشقاء، جميعهم تعاملوا معى بلطف وتهذيب. لقد صدق معى هنا المثل العربي القائل: «لا يمكن لجبل أن يتلقى جبالاً قط، ولكن يمكن لإنسان أن يتلقى أخاه الإنسان». أحد الأخوة كان يعرفني، كوننا سبق أن التقينا في دمشق قبل سنتين.

جرى ترتيب أمتعتي في مكان بعيد عن الأنظار، وجرى إعداد كل شيء بطريقة تشعرني وكأنني في بيتي. وهكذا، وفي العشرين من ديسمبر تسلّمت مكان إقامتي بين هؤلاء الناس الغرباء الدروز، بعقيدتهم الباطنية.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، غادرني محمد آخذًا معه الجياد. رجاني أن أعود معه إلى القدس، مذكراً إياي بالأخطار والمشاق التي سيتوجب علي تحملها إذا ما ذهبت أبعد من ذلك.

شعرت بعد رحيل محمد بأن رباطاً آخر من الأربطة قد انقطع، الأمر الذي كان له أن

(1) ذكرناها أعلى، قرية من قرى المقرن الشرقي، إلى الشرق من مدينة السويدة.

يتحول بياني وبين تحقيق حلم العمر.

تملّكتني رغبة شديدة بالتخلي عن المشروع من أساسه والعودة من حيث قدمت، لكن فكرة الوعود في المزמור □ Psalm cxxi 71 □ جعلتني أحزم أمري بالمضي قدماً. لم يكن لدى أدنى فكرة عما ماهو مخبأ لي في علم الغيب؛ لترك ذلك لالفصل التالي.

\* \* \*



### الشيخ الدروز

يعيش الدروز في جنوب شرقى دمشق، دينهم باطنى وهم يتعبدون فى الليل. من حيث العادات والتقاليد هم كالبدو، وعمائهم البيضاء تميّزهم عن العرب. وهذا الثناء استضاف المُسْتَر فوردر في طريقه إلى الجزيرة.



### الاستعداد لنقل بيت الشعر

ينتقل البدو كل بضعة أيام، وأعمال نقض الخيم ونصبها تقوم بها النساء. لاحظ الطفل المعلق على حامل ثلاثة القوام بينما تستعد الأم للرحيل. والصباح الباكر هو الوقت الذي يُستخدم عادةً لنقل المضارب.

## الفصل السادس عشر

### تجربتي في الصحراء بين الدروز والعرب

لقد وفرت لي إقامتي المطولة في عرمان فرصة جيدة لممارسة العمل التبشيري بين أناس لم يسبق لأيّ مبشر، على حد علمي، أن زارهم من قبل، ولم يسبق لأيّ نسخة من الكتاب المقدس أن وصلت إليهم، وإن حدث ذلك، فإن أحداً لم يعد منها على عين ولا أثر.

أمضيت أيامي القليلة الأولى في زيارات كنت أقوم بها للناس في بيوتهم. استوضحت منهم عن نسخ الكتاب المقدس، ولكنني لم أقع لها على أثر. كانت لدى الفرصة بشكل يومي للاجتماع بالناس والتحدث إليهم عن الخلاص والمخلص.

كنت أمضي ساعتين عادة بعد العشاء مع الضيوف الوافدين للمبيت. كان الجميع يصغي بانتباه شديد إلى كل ما أقول، ولطالما كانت هذه الاجتماعات المسائية تفضي أحياناً إلى بيع عدد من الأنجليل والنصوص الدينية، التي كانت تُحمل إلى أماكن مختلفة على يد أصحابها عند ارتحالهم إلى مواطنهم في اليوم التالي.

في عرمان بالذات تركت خمسين نسخة من العهد الجديد حيث بيع العديد منها لشبان يافعين يجيدون القراءة تماماً<sup>(1)</sup>.

كان أحد الأصدقاء المخلصين قد أرسل لي من إنكلترا قبل فترة خمسين نسخة عن

(1) والسبب الوحيد في ذلك هو انعدام الكتب والمطبوعات في الأرياف آنذاك.

حياة يوسف Joseph وإنجيل يوحنا Gospel of John مجموعه معًا في مجلد واحد، وقد وجدتها مفيدة للغاية وموضع تقبّل بالغ بين هؤلاء الناس.

في أحد الأيام قمت بزيارة أحد البيوت فوجدت كاهناً من الروم جالساً على الأرض قرب النار. استدرجه إلى الحديث، وسرعان ما تبيّنت بأنه على غرار المئات من أمثاله جاهل تماماً بمسألة الخلاص عن طريق الإيمان بالمسيح؛ كما أخبرني بأنه لم يسبق له أن اقتنى إنجيلاً قط.

وبما أنه كان يجيد القراءة، فقد قدمت له نسخة عربية من النسخ الإضافية ذات النوعية الجيدة من الإنجيل التي أعطاني إياها أصدقائي في أمريكا. تقبلها بعد تردد شديد، لاعتقاده بأنه غير جدير بمثل هذا التكريم. شاهدته في اليوم التالي في طريقه إلى القرية التي يعيش فيها ويمارس فيها واجباته الدينية يحمل معه هديته التي حظي بها مؤخرًا ملفوفة داخل منديل ومحفوظة داخل عبّه.

كانت الأيام التي قضيتها في عرمان أيامًا صعبة ومضنية. لقد كان الجو ممطرًا أو مثلجاً معظم الوقت والطرق تموّج بالوحل، أو الوحل الممترز بالجليد. الوقود الوحيد كان الوقود العضوي المعدّ من روث الحيوانات المجفف<sup>(١)</sup>. وكم كنت أفضل تحمل البرد القارس على سحابة الدخان الكثيف الخانق برائحته التتنة المنبعث من كتلة الروث المحترقة وسط الغرفة.

كان عليّ في أثناء الليل افتراسُ الأرض القاسية ولا شيء تحتي سوى حصيرة بالية، مدثراً بقطاء يعجّ بشتى أنواع الهوام، وغنيّ عن القول أنني لم أستعمله إلا في الليلة الأولى.

لقد كان الناس في غاية اللطف في دعوتي لبيوتهم لتناول وجبة من الطعام المكون في الغالب من حبات الفول الكبيرة البيضاء المسلوقة والمدمّسة بالزيت أو السمن العربي المُساح. هذه الوجبات التي دائمًا ما كانت تقدم ساخنة كانت مستساغة تماماً

(١) أي الجلة كما أسلفنا من قبل.

وتمدني بالدفء والحرارة، وكم كنت ممتناً لله على هذه النعمة.

ونظراً لافتقار المكان لأية دكاكين أو محال تجارية، لم يكن بوسعي شراء أية طعمة، ونادراً ما يقدم العرب على بيع الطعام لضيف أو غريب.

لن أنسى ما حيت مناسبة عيد الميلاد التي أمضيتها في ذلك المكان. فقد شهد ذلك اليوم هطولاتٍ ثلجية كثيفة أعقبتها أمطار غزيرة، مما أحال المكان برمه إلى بركة من الوحل. كان البرد قارساً، ونظراً للتعذر تأمين أي نوع من أنواع الوقود بسبب الثلوج والمطر، كان عليّ أن أقعد طوال النهار صابراً على البرد والرطوبة. وبما أن أسطح المنازل كانت مكونة من الطين فقط، فقد كان المطر يتسرّب منها بسهولة إلى داخل البيت. وعلى هذه الحال أمضينا يوم عيد الميلاد، فقد كان المطر يقطر من حوالي ثمانية مواضع في السقف وكان من المتعدد العثور على أيّة بقعة جافة حتى داخل المنزل.

بعد قدومي لعمان بوقت قصير شرعت بطرح أسئلة تتعلق بإمكانية بلوغي المكان التالي الذي كنت أريد الوصول إليه - وهو موقع على الخارطة باسم كاف Kaf.

قدّرتُ بأنها مسيرة حوالي ستة أيام باتجاه الجنوب الشرقي، والأراضي الواقعة بينهما كانت أرضاً فاحلة جرداء وخطرة جداً على المسافر نظراً للوجود عصابات من قطاع الطرق تجوب المكان على الدوام بحثاً عن أيّ عابر سهل.

لم يكن أهالي عمان معتادين كثيراً على اسم «كاف» Kaf. وقد لفت نظري شيء مشترك في كل أحاديثهم ألا وهو اسم القرىتين<sup>(1)</sup> "Kurrey-ya-tayn" ، أو أحياناً كانوا يتحدثون عنهما باسم ديرة الملح "Deree-el-milh" حيث أن مهنة عرب ذلك المكان كان جمع الملح الذي يبيعونه للقوافل القادمة بغرض الحصول على هذه السلعة.

عندما أفصحت لهم عن رغبتي بزيارة منطقة كاف، هزّ الناس رؤوسهم وقالوا:

---

(1) بل الصواب: القرىات، أو قريات الملح.

«لا تفعل، فعرب تلك المنطقة قوم أشرار؛ عندما نذهب إلى هناك بأعداد كبيرة لاند奴 البنادق تبارح أيدينا مطلقاً». ونظرًا لكوني من النوع الملتحاح من البشر، فقد أكد لي مضيفي بأنه سيحاول أن يعثر لي على بدوي ينقلني إلى هناك.

كان مثل هؤلاء الجنوبيين يتربّدون إلى عرمان من وقت لآخر، وتحت إغراء المال يقومون بنقل المسافرين عبر الصحراء؛ ونظرًا لمعرفتهم الوثيقة باماكن تواجدهم في الصحراء، فقد كانوا مؤهلين تماماً للعمل كأدلة وإيصال زبونهم بأمان إلى كاف<sup>(1)</sup>.

أسعدتنا الحظ في العثور على اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الرجال، ولكن بمجرد أن عرفوا بأن المسافر المقصود كان مسيحيًا، قالوا بأن لا حول ولا قوة لهم مع مثل هؤلاء القوم، حيث أن عقيدتهم جعلتهم أعداء الله وأتباع محمد. ثم سرعان ما تبيّن لي بأنني على أن أنتظر وقتاً طويلاً قبل العثور على بدوي يوافق على نقلني إلى هناك. وهكذا، فقد رجوت من مضيفي أن يقطع لي عهداً بذلك.

قطع لي مضيفي العديد من الوعود المؤكدة، لكنه لم يفِ بأي منها. وبعد أن أحضرت كل المحاولات، وتبيّن لي أن من غير المرجح المضي قدماً في رحلتي، عمدت إلى عرض قضيتي على الشيخ - شيخ العشيرة - وطلبت منه مساعدتي. كان عجوزاً لطيفاً رءوفاً، لكنه نصحني بعدم الذهاب. ومرة أخرى تداعت إلى مخيلتي مخاطر الصحراء ومتاعب السفر واحتمالات الموت من العطش أو على يد أحد أعراب كاف Kaf المتعصبين.

أخبرت الشيخ بأنني على استعداد لمواجهة كل هذه التحديات وأن اتكالي هو على الله في حمايتي وحفظي، ولا أعتقد بأنه سيخذلني. وبعد أن قطعت على نفسي عهداً بإعفاء الشيخ من أية مسؤولية إن هو ساعدني على القيام بهذه الرحلة، وعدني أخيراً بأنه سيعد الترتيبات للانطلاق في رحلتي في اليوم التالي.

(1) ينبغي هنا المقارنة برحالة الليدي آن بلنت وزوجها من صلخد إلى الجوف، ومرافقتهما لدليل درزي من المنطقة ذاتها.

عدت إلى مكان إقامتي وأعدت حزم كتبني وأمتعتي وعمدت إلى خياطة بعض من أموالي داخل نطاق سروالي، ثم أعطيت الباقى لمضيفي كي يسققها معه لحين عودتى في وقت غير معلوم من المستقبل. إنَّ الأموال التي تُدفع بهذه الطريقة على سبيل الأمانة تكون في أمان تام، حتى في عهدة شخص غريب.

ذهبت في صباح اليوم التالي إلى لقاء الشيخ الذى بادرنى بالأعذار والمبَررات لعدم تمكنه من تأمين سفري في الموعد المحدد، واستعرض لي كل ما كنت قد سمعته منه سابقاً، في محاولة جديـد منه لإقناعـي بالعدول عن فكرة السفر. ذكرـه بوعده وقلـت له بأنه يجدر به كـشيخ عـشيرة أن يـفي بـوعده، لا أن يـخلفـ بهـ.

لامس هذا الكلام مكامن المروءة والحميـة لدى الشـيخ لـقبول التـحدـي، فـقام على الفور باستدعاء أحد الرجال وطلب منه إحضار جـمل وتحمـيلـ أمـتعـيـ، مـفـسـحاـ ليـ المـجالـ لـاعتـلاءـ ظـهـرـ الـحملـ، ثمـ أـخـذـنـيـ خـارـجاـ وـسـلـمـنـيـ إـلـىـ صـاحـبـ أـوـلـ خـيمـةـ عـرـبـيةـ قـدـمـنـاـ إـلـيـهـاـ. جـرـىـ إـطـاعـةـ الـأـمـرـ عـلـىـ الفـورـ، وـانـطـلـقـنـاـ عـلـىـ بـرـكـةـ اللـهـ.

واصلـناـ مـسـيرـنـاـ لـحـينـ غـرـوبـ الشـمـسـ، لـكـنـنـاـ لـمـ نـصـادـفـ أـيـةـ خـيـامـ فـيـ طـرـيقـنـاـ، فـأـمـضـيـنـاـ لـلـيـلـتـنـاـ فـيـ العـرـاءـ. وـفـيـ صـبـاحـ الـيـوـمـ التـالـيـ تـابـعـنـاـ مـسـيرـنـاـ مـنـ جـدـيدـ. وـعـنـدـ العـصـرـ لـمـ حـنـاـ بـعـضـ الـخـيـامـ عـلـىـ الـبـعـدـ وـانـطـلـقـنـاـ بـاتـجـاهـهـاـ.

لم يتسم استقبالـناـ بـذـلـكـ الـقـدـرـ مـنـ الـحـفـاوـةـ، وـشـعـرـتـ بـأـنـيـ لـمـ أـكـنـ مـوـضـعـ تـرـحـيبـ. دـُعـيـنـاـ لـلـدـخـولـ وـأـخـذـتـ أـمـتعـيـ حـيـثـ جـرـىـ تـكـدىـسـهـاـ بـعـضـهـاـ فـوـقـ بـعـضـ فـيـ أـحـدـ أـرـكـانـ الـخـيـمـةـ. أـخـبـرـ مـرـافـقـيـ الـذـيـ كـانـ قـدـ جـاءـ مـعـيـ الرـجـالـ دـاـخـلـ الـخـيـمـةـ عـنـ وـجـهـتـيـ الـمـقـصـودـةـ، فـتـلـقـوـاـ هـذـاـ الـخـبـرـ بـاـقـبـاضـ وـتـجـهـمـ بـالـغـ. ثـمـ قـالـ بـأـنـهـ يـرـيدـ الـعـوـدـةـ إـلـىـ عـرـمـانـ. لـكـنـيـ أـلـفـيـتـ نـفـسـيـ مـكـرـهـاـ عـلـىـ الـطـلـبـ إـلـيـهـ قـضـاءـ الـلـيـلـةـ مـعـيـ وـهـوـ مـاـ أـجـابـنـيـ إـلـيـهـ عـنـ طـيـبـ خـاطـرـ.

تناولـنـاـ الـعـشـاءـ مـتـحـلـقـيـنـ جـمـيـعاـ حـوـلـ نـفـسـ الـطـبـقـ وـمـسـتـخـدـمـيـنـ أـصـابـعـنـاـ عـوـضاـًـ عـنـ الـمـلاـعـقـ.

وتحت وطأه التعب والإرهاق الشديد، سرعان ما أسلستُ قيادي لنوم عميق لم أصح منه حتى صباح اليوم التالي حيث وجدت بأن هيكل الخيمة قد تداعى وسقط فرقبي.

زحفت خارجاً من تحت الخيمة ولمحت النسوة وهن يقمن بإنزال الخيمة قبيل التحرك. وعندما استوضحت منهم عن سبب القيام بذلك في هذا الوقت المبكر، أجبتني بأن الرجال قد أصدروا أوامرهم بالارتحال إلى مكان آخر، فهم يتوجسون خيفة من إيواء نصرياني من المحتمل أن يستجلب علينا المتاعب.

وما هي إلا لحظات حتى كانت الخيمة وما تحتها من متاع محمّلة على ظهور الدواب استعداداً للرحيل. بالنسبة للديوك والدجاجات فقد تم ربطها وتعليقها على ظهر الحمل، أما قطيعهم المتواضع من خرافٍ وما عز فقد جرى سوقه وترحيله في وقت مبكر من الصباح.

سرعان ما غابت هذه المجموعة الرعوية الصغيرة عن الأنظار تاركة إيانا أنا ومرافقي الذي صحبني أمس وحيدين في هذه الفلاة الموحشة.

اقتراح عليّ مرافقي أن يتمطي الجمل ويطوف المنطقة بحثاً عن خيام أخرى ويعود إلى ثانيةً. وكان عليّ أن أجثم فوق حمل الأمتعة متربقاً عودته. لم أوافقه إلى افتراضه، حيث أني كنت مدركاً لأنّه في حال مضى بالجمل بعيداً فاحتمال رؤيتني له ثانية سيكون احتمالاً شبه معدوم.

وهكذا فقد قلت له: «اترك الجمل معك واذهب للبحث عن خيام أخرى». فوافق على ذلك، ثم انطلق في مهمته حوالي السابعة صباحاً، تاركاً إيانا أنا وحيداً بانتظار رجوعه.

حلّ وقت الظهيرة ولم يعد، وانتظرت حتى قرابة الرابعة عصراً ولم يعد. بدأت الشك يساورني بأنه قد تركني فعلاً عندما لمحته قادماً باتجاهي.

كان قد وقع على إحدى الخيام في مكان ليس بعيداً وأمضى نهاره يتحدث مع

الرجال ويتناول الطعام ويحتسي القهوة، غير عابئ لتركه إياي وحيداً في العراء أتلوي جوحاً وعطشاً تحت أشعة الشمس الحارقة.

ومرة أخرى شددنا الرجال ويممنا شطر الخيمة المذكورة التي وصلناها خلال ساعة تقريباً. جلست وتناولت بعض الخبر. وسرّني من خلال تجاذبى لأطراف الحديث مع هؤلاء الرجال معرفتي أن قافلة كبيرة من المتوقع مرورها بالمكان تلك الليلة في طريقها إلى كاف للحصول على الملح.

وبعد العشاء جلسنا نتسامر، واتفقنا على محاولة الانضمام للقافلة والوصول إلى كاف بصحبتها. كان القمر بدرأً، وكنا متخلّقين حول النار عند باب الخيمة، عندما حضر أحد الرجال وقال إن بوسعه سماع أجراس الإبل وأنها كانت القافلة.

ما هي إلا لحظات قليلة حتى كانت أمتعي محمّلة على أحد الجمال، ثم اعتليت ظهر الحمل وقام مضيفي الجديد بقيادتنا إلى جوف الصحراء باتجاه طريق عبور القافلة. تمكّنْتُ في ضوء القمر من تمييز كتلة داكنة ضخمة تتقدم باتجاهنا، لقد كانت القافلة.

سرنا حوالي ربع ساعة، ثم توقفنا بانتظار وصول القافلة. وما هي إلا لحظات حتى كان بعض الفرسان ينطلقون باتجاهنا ثم سألونا بصوت مرتفع: «من أنتم، وماذا تريدون؟» وسرعان ما أجبناهم على أسئلتهم. ثم قدمت المجموعة الأولى من القافلة الضخمة المكونة من حوالي أربعين جمل؛ تلتها المجموعة الثانية، فالثالثة، ثم الأخيرة. كانت كل واحدة من هذه المجموعات تحت حراسة حوالي خمسين فارساً مسلحين برماح طويلة وبندق وسیوف وطبنجات revolvers.

وعند مرورهم بقربنا أخذ الرجل الذي معي ينادي على بعض الرجال الذين كان يعتقد بوجودهم في القافلة بأسمائهم. مرت المجموعات الثلاث الأولى من تلك القافلة المهولة التي كانت مؤلفة من ستمائة جمل ولم يردد أحد على نداء الرجل. وفي المجموعة الأخيرة تم التعرّف إلى بعض منهم، ومن خلال شرح مقتضب حول هويتي ووجهتي، جرى نقل أمتعتي وحاجياتي وتحميلها على جمل آخر على جناح السرعة،

وماهي إلا هنichات حتى كنت في قمة النشاط والقوة للمضي قدماً كأحد أفراد تلك الكتلة الهائلة المتحركة في طريقنا إلى كاف.

لم يجر هناك أي تفاوض بشأن أجرة الجمل الذي كنت أمتطيه أو أي تفاوض بشأن الطعام والشراب. التحقت بالقافلة عند التاسعة إلا ربع مساءً، وكان من المقدر لرحلتنا أن تستغرق أربعة أيام ونصف للوصول إلى كاف.

كنت خلال مسirنا أتجاذب أطراف الحديث مع بعض الرجال إلى جانبي. فأخبروني بأنه سيتوجب علينا قطع المسافة على مراحل، حيث أن الجمال التي كانت محملة بالقمح والشعير لمقاييسها بالملح والتمور لم تكن قادرة على قطع مسافات طويلة دون استراحة.

لكني سرعان ما تبيّنت بأنهم كانوا فقط يكذبون علي، وهو ما أفصحتوا لي عنه عندما قلت لهم لا حقاً بأنه «لا يجدر بي السّفر بقلب منقبض».

ووصلنا مسirنا طوال تلك الليلة حتى السادسة والنصف من صباح اليوم التالي، حيث أنينا رحلنا لأنّه قسط من الراحة. قالوا لي: «إذا كنت ترغب بأخذ قسط من النوم، فلا تتردد، لأننا سنرتاح لساعتين فقط». اضطجعت على الرمال مدثراً بعباءتي التقليدية وسرعان ما كنت أغطّ في نوم عميق.

لكن القوم أيقظوني بعد ربع ساعة فقط قائلين: «هيا انهض، لقد تحركت القافلة». وهذا ما كان؛ فقد كان معظمهم قد تحرك تقريراً. وهكذا فقد وثبت فوق جملي ثانية لألحق بالركب بعد عشرين دقيقة فقط من إنناخة رحلنا.

انطلقنا في مسirنا من دون توقف حتى الخامسة والنصف عصراً. ثم عمد القوم إلى إنناخة الجمال وسرّت شائعة بأن استراحتنا ستتمتد لساعات. وبينما كان الرجال بقصد إزالة الحمولة، صاح مُنادٍ بأن الأعراب كانوا على مقربة منا.

باستطلاعي للمنطقة المحيطة، لمحت على تلة مشرفة على مكان وجودنا مجموعة من الرجال على صهوات الجياد - كانوا حوالي عشرة رجال.

هُبّ عدد من رجالنا إلى صهوات جيادهم وكرّوا باتجاههم كالليوث الهائجة، فما كان من الدخلاء الجدد إلا أن لروا عنق جيادهم ثم ولّوا الأدبار مبتعدين عن المكان. بالرغم من انطلاقتهم بأقصى سرعة ممكنة، فقد عمد رجالنا إلى إطلاق نيران بنادقهم باتجاه المطلوبين فأصابوا واحداً منهم في ذراعه، مما حمله على إلقاء رمحه.

قمت باعتلاء تلة قرية مني وأخذت أراقب المشهد.

كانت الغلبة لرجالنا الذين عادوا بهم في الحال. لقد كان رجالنا يفوقونهم عدداً، وهو ما حدا بالهاربين إلى إلقاء أسلحتهم والاستسلام. لقد كانوا من إحدى القبائل الكبيرة المتمرزة على مسافة ميل تقريباً من مكان وجودنا. ولقد أرغمنهم رجالنا على العودة معهم.

صدرت الأوامر بتحميل الجمال وبدء المسير. وهكذا وخلال خمس عشرة دقيقة فقط كنا نتابع مسيرنا ثانية. دفع أحد الرجال بقطعة من الخبز القاسي في يديأخذت أقدّ منها بضع لقيمات أثناء تحرّكنا.

أُرغم الأعراّبُ الأسرى على الذهاب معنا ووضعوا في وسط القافلة بهدف منعهم من العودة إلى مضاربهم واستدعاء الآخرين، الذي كانوا سيتحرّشون بالقافلة طوال الليل. ونظراً لأن الرمال كانت متصلة في تلك البقاع فقد آثرت المشي لمسافة لا بأس بها لسبعين اثنين: الأول، كي أبقى مستيقظاً، والثاني كي لا أحس بالبرد.

بنغ فجر اليوم التالي دون أن تتوقف القافلة. سُمح للأسرى بالعودة، حيث أنهم لم يعودوا هم وقومهم يشكلون أيّ خطر علينا.

وأشرقت الشمس، ومع ذلك فقد واصلنا مسيرنا. وفي حوالي الساعة العاشرة نادى على بعض الرجال قائلين: «انظر إلى بساتين النخيل ذيّاك، إنها تعود لمنطقة كاف؛ ها نحن أولاء قد شارفنا على الوصول».

حوالي الساعة الحادية عشرة انطلقنا باتجاه المكان، وفي الفسحة المربعة التي شكلتها الجياد قمنا بإناحة الجمال وإنزال الأحمال، ثم قُدِّم لنا الطعام.

كان المسير قد استغرق منا ثمانية وثلاثين ساعة، لم يتخللها سوى استراحة نصف ساعة فقط. بينما استغرقت رحلة العودة منا ستة أيام.

غني عن القول أنني كنت في حالة من التعب والجوع والعطش، لكن مجرد شعوري بأنني قد وصلت فعلاً إلى كاف وحققت أمنية العمر، جعل تعب الرحلة يتلاشى أمام متعة وجودي هناك.

تركّت جلبة إنارة الجمال وإنزال الأحمال داخل الفسحة المربعة التي شكلتها الجياد، وانزويت بعيداً أمّتن النفس وأرُوّح عنها وسط بساتين النخيل القريبة، ثم شرعت أترنّم بتسبيبة شكر لله رب السماوات على وفائه بالوعود والمعاهد التي أودعتها لديه، كما هو مدوّن في المزمور 121.

قصدتُ بعد ذلك أحد الينابيع الكبريتية للاستحمام، ثم رجعت إلى نقطة التجمع. أخذوني إلى منزل طيني في الجوار كان صاحبه معروفاً من قبلهم. قدموا لنا طبقاً من التمر، أكلنا منه قدر ما نستطيع. وحيث أن التعب والإعياء كان قد أخذ مني كل مأخذ نتيجة مسیرنا الطويل والمرهق، فقد اضجعت على الأرض، اتكأْت برأسِي على سرج حصاني، ثم أسلمت نفسي لنوم عميق.

عندها صحوت كانت الساعة تقارب الخامسة، والشمس بدأت تميل نحو الغيب. خرجمتُ من البيت والتقيت بعده من الرجال الذين كنت أعرفهم. قال لي أحدهم: « تعال لآخذك إلى دار شيخ العشيرة<sup>(1)</sup> وأطلب منه أن يوليك عناية خاصة ». توجّهت معه إلى القرية المجاورة.

كان الشيخ جالساً في الخارج مع مجموعة من الرجال، لكنه حال روئيته إلينا نهض وأقبل نحوِي لاستقبالِي.

---

(1) المعروف أنَّ شيخ كاف آنذاك كان الشيخ عبد الله بن خميس، وآل ابن خميس من السُّرَّحان هم شيوخ كاف على الدّوام، إلا أنَّ فور درأدناه يذكر الشيخ باسم محمد البادي، وهذا أمرٌ غير مفهوم . وعندما أضاف صورة الشيخ الشاب لم يصرّح باسمه.



### استراحة القافلة بعد الرحلة

تبين هذه الصورة الجمال وقد أنزلت عنها أحمالها الثقيلة بعد رحلة دامت ثمانية وثلاثين ساعة عبر الصحراء. ومن النادر إزالة الشدائد الثقيلة. يخشى العرب أن تبرد الجمال إذا تعرضت للهواء أكثر مما ينبغي، فالحيوان سريع التأثر بالبرد.



### شيخ كاف

أظهر هذا الرجل للسيد فوردر طيبة باللغة خلال إقامته لديه. والعرب الذين يحكمهم يقدرونهم ملياً بسبب شجاعتهم. وكاف التي يقيم فيها عبارة عن بلدة مزدوجة تتوارى في وسط رياض نخيل جميلة.

وبعد أن أحيط علماً بشأنى، قال بأنه يفضل إحضار كافة أمتعتي وإيادعها في غرفة الضيافة خاصة، كما أن بوسعي أن أقيم هناك أيضاً. ثم نادى على أحد الفتى وطلب منه أن يأخذ الحمار ويدهب لإحضار أمتعي.

تنهى إلى سمعي في تلك اللحظة صوت طلق ناري، تبيّن فيما بعد أنها إشارة للقافلة بوجوب تحمل الجمال والاستعداد لبدء رحلة العودة.

حضر الرجال الذين كنت قد سافرت معهم لتوديعي وإنفاسعي بالعودة معهم. قالوا لي: «مالذي يحملك على المكوث مع هؤلاء الناس العُتَّا؟». «إنهم سيقتلونك لا محالة لأنك شخص مسيحي». وأخيراً تركوني وغادروا وأناأتأمل القافلة وهي تتبع شيئاً فشيئاً وتحفي عن ناظري وراء الكثبان الرملية.

كان الإغراء باللحاق بها شديداً، لكن العناية الإلهية كانت أقوى من دافع الإغراء، فعدت أدراجي إلى منزلشيخ العشيرة.

لن أنسى ما حاكيت ذلك الشعور بالوحدة والوحشة الذي انتابني، حين اتكأت بظهرى إلى جدار تلك الغرفة. كل من حولي كانوا أغراياً - ليس فقط على صعيد الانتماء القومي، وإنما الدينى أيضاً، وكما كنت أعلم يقيناً، من الصنف غير المحبب بالسبة للمسيحيين. لقد كان تصور أني المسيحي الوحيد في كل تلك المنطقة، شيئاً أعجز عن وصفه.

\* \* \*

## الفصل السابع عشر

### شيخ كرام ورعايا لئام

كاف هي عبارة عن قرية كبيرة من جزئين يفصل كل منهما عن الآخر بساتين النخيل. البيوت مبنية من الطوب المصنوع من الطين وهي منسقة بطريقة بارعة تمكّن أبناءها من الذود عن قريتهم في حال التعرّض لهجوم من الخارج.

تشرف الواجهة الأمامية لهذه البيوت على ساحة واسعة مربعة الشكل تمثل سوقاً عامرة بالنشاط لإدارة الشؤون التجارية للقوافل، وهو ما شاهدته ولمسته خلال مكوث إحدى القوافل. يأيها التجار من سوريا محملين بالقمح والشعير لمقاييسه بالملح الخشن.

يستحصل أبناء كاف على الملح الخشن عن طريق تبخير المياه شديدة الملوحة من الينابيع الكثيرة التي لا تنضب أبداً الموجودة بالقرب من المكان. تتمتع كاف بوفرة كبيرة من مصادر المياه؛ البعض منها هي عبارة عن ينابيع كبريتية ساخنة، وهي تستخدم لأغراض علاجية.

يرتحل الناس معظم أوقات السنة إلى الصّحارى ولا يعودون إلى منازلهم في القرية إلا في موسم جني التمور.

وهو موعد يوافق موعد حصاد الحبوب في المناطق الأخرى. والنساء لسن منعزلات في هذه المناطق ولا يضعن الخمار على وجوههن، إلا أنهن لا يجالسن

الرجال. لديهن حريتهن الخاصة، وهن بذلك أفضل حالاً بكثير من آلاف النساء في بقية أنحاء العالم الإسلامي.

لقد ولدت في أشجار النخيل وبساتين كاف الغناء الواسعة شعوراً لا يوصف بالسعادة والارتياح، وكنت أمضي الساعات الطوال وسط هذا الفردوس بصحبة بعض الرجال الذين كانوا يتصرفون حيالى بكل لطف وودة.

إلى إحدى جهات القرية كان هنالك جبل شاهق حجارته شديدة السواد بمعظمها. وعلى قمة الجبل التي تمت تسويتها، توجد بقايا لما كان في يوم من الأيام قلعة أو حصنًا كبيراً. وسط تحفظ شديد من جانب أبناء المنطقة، قمت بتسلق الجبل واستكشاف هذه الآثار، لكنني مُنعت من تدوين أيّة ملاحظات أو التقاط أيّة صور.

عند مروري بينهم، كان أبناء كاف يتحلقون في جماعات وكانت الكلمة الوحيدة التي أسمعها منهم هي «نصراني»، وهي إحدى الكلمات المعيبة التي تعني عدو الله وال المسلمين. كوني لم أشعر بذلك القدر من الاغتراب وسط هذه الجماعة المنعزلة من أتباع محمد، لم أكن متيقناً من المعاملة التي سأتلقاها من هؤلاء الناس.

لدى وصولي إلى غرفة الشيخ، وجدتُه مع مجموعة من الرجال بانتظاري هناك. تم إحضار العشاء في وعاء معدني كبير. تناولت حصتي من الطعام دون إدراك مني لنوعية ذلك الطعام، ولغاية اليوم لا أعرف ما الذي تناولته في وجبة العشاء تلك.

كل ما أعرفه هو أنه كان ساخناً جداً، ذاقوا لزوج، كثير الدسم، وذا طعم لذيد<sup>(1)</sup>، ما جعلني أقبل على تناوله بشهية.

تحلقنا بعد العشاء حول الموقد المكشوف وبدأت عملية إعداد القهوة العربية، أو المرأة.

تبّأ العملية بتحميص حبات البن الخضراء على النار ثم تُدقّ في جرن خشبي كبير يسمى «المهباج» إلى أن تغدو ناعمة بما فيه الكفاية، ثم توضع في الماء المغلي، تصفى

(1) أظنه كان يأكل «البكيلة»، إحدى أصناف الطعام الشائع هناك.

بعدها القهوة وتسكب في إناء نحاسي يسمونه المصَبُّ. بعد ذلك يجري تفويرها بسرعة لبضع دقائق ثم تركن جانباً لتخمر. أحياناً، ونزو لاً عند رغبة الضيوف، يجري دق بعض التوابل وإضافتها إلى القهوة لإعطائها نكهة متميزة.

بعد ركناها لبضعة دقائق، يجري سكب كمية ضئيلة من القهوة تعادل ملعقة طعام تقريباً في فنجان أملس دون مقبض وتدار على الحاضرين. تقضي التقاليد بأن يتذوق المضيف القهوة أولاً قبل تقديمها للضيوف. أربع أوقيات من البن تضاف عادة إلى ما يزيد قليلاً عن نصف لتر من الماء، ما يجعل منها شراباً قوياً جداً بلون أسود داكن يتم ارتشافه دون حليب أو سكر.

تُعد كمية القهوة التي يسكنها المضيف لضيوفه معياراً لكرم المُضيف. ومن العبارات الشائعة والمحببة التي تستخدم للتعبير عن كرم المُضيف القول بأن «دلال قهوته لا تنزل عن النار أبداً».

القهوة هي التراثُ الوحيد الذي يمتلكه هؤلاء الأعراب؛ حيث أن المُسکرات والمشروبات الكحولية لم تعرف طريقها إليهم بعد، وليس لديهم أية مشروبات محلية الصنع تحل محل المشروبات الكحولية، وقد يطول بهم الزمن وهم على هذه الحال! في الوقت الذي كانت فيه ضيافة القهوة جارية على قدم وساق، كنا منشغلين بالحديث عن إمكانيات سبرى لأغوار مناطق أبعد من البلاد. كانت الآراء منقسمة؛ البعض رأى أن بوسعي القيام بذلك بأمان، بينما رأى البعض الآخر أن مثل هذه العملية ستكون محفوفة بقدر كبير من المخاطر، ناهيك عن التعب والمشاق. نصحني شيخ العشيرة بالعودة إلى عرمان Orman، لكنه لم يهتم إلى وسيلة تضمن مثل هذه العودة.

وفجأة دخل علينا أحد الرجال وقال بأن مجموعة من الأعراب كانت قد وصلت للتو وأنها بقصد المغادرة في الصباح الباكر باتجاه الجوف Jowf، وهي بلدة كبيرة على مسيرة حوالي أحد عشر يوماً باتجاه الجنوب الشرقي.

كنت عازماً، إذا ما كان طريقي ميسراً، على الوصول إلى تلك البلدة، كونها الأكبر والأهم في شمال جزيرة العرب. ولعله يجدر بي أن أشير هنا إلى أن كاف، المكان الذي كنت فيه آنذاك، كانت واقعة تحت سيطرة حكومة ابن رشيد<sup>(1)</sup>، سلطان جزيرة العرب، المقيم في حائل.

أرسل شيخ العشيرة المدعو محمد البادي<sup>(2)</sup> Mohammed el-Bady في طلب الرجل المسؤول عن القافلة وأخبره برغبتي في مرافقتهم إلى الجوف. هل سيقدمون لي جملًا ويسمحون لي بمرافقتهم في هذه الرحلة؟ سرعان ما تنبه الرجل إلى كوني مسيحيًا وأعطى رده: «إذا ما نقلت نصرانياً إلى الجوف، أخشى أن يعمد جوهر Johar - شيخ العشيرة<sup>(3)</sup> هناك - إلى قتلي على هذه الفعلة، لذلك فأنا أعتذر عن القيام بمثل هذه المهمة».

جرى استدعاء رجال آخرين، لكن جوابهم جميعاً كان واحداً تقريباً. قال لي أحدهم: «إذا ما كنت مصرًا على زيارة الجوف، فعليك بدخول الإسلام، حيث أنه يحظر على أي مسيحي التواجد هناك لأكثر من بضعة أيام». كان ذلك في الحقيقة أمراً محبطاً، لكن شيخ العشيرة طلب مني «المحافظة على رباطة جأشي» واعداً إياي بالمحاولة مجددًا صباح الغد قبل رحيل القافلة؛ وهنا أغلقنا الحديث في هذا الموضوع وقدّمت لهم الإنجيل.

بصفته قارئاً جيداً، تناول أحد الحاضرين الإنجيل من يدي وشرع في قراءته. أرشدته إلى الفصل الثالث من إنجيل يوحنا؛ وكانت كلما تلا آيةً من آياته أتوى التعليق عليها

(1) كما ذكر فوردر أعلاه، كان حاكم جبل شمر في حائل آنذاك الأمير عبد العزيز بن متعب آل الرشيد (حكم 1897-1906) بعد عمّه الرهيب محمد.

(2)المعروف أنَّ شيخ كاف آنذاك كان الشيخ عبد الله بن خميس، وآل ابن خميس من السُّرحان هم شيوخ كاف المعروفون، ومن الغريب أنَّ فوردر هنا يذكر الشِّيخ باسم محمد البادي.

(3) لم يكن جوهر أبداً شيخ عشيرة، فهو رجل زنجي كان حاكماً للجوف لصالح آل الرشيد، انظر التفاصيل الوافية عنه في رحلة الليدي آن بلنت بكتابها «حج إلى نجد»، سيصدر قريباً في هذه السلسلة.

وتفسيرها. كنت أعمد أحياناً إلى تكليف رجل آخر بالقراءة كي يقتنع السامعون بأن ما يُتلى عليهم هو مدوّن فعلاً في الكتاب الذي يرونـه أمامهم. إذ لطالما اتهمـني الأعراب باختلاـق بعض من الأشيـاء التي كنت أتلـوها علـيـهم، ولكن بوجـود واحدـ منهمـ بالذـات يـقوم بعملـية القرـاءـة، فقد تمـ دـحضـ تلكـ المـقولـةـ الـزـائـفةـ.

كان الرجال المحـتشـدونـ هناكـ شـديـديـ الـاهتمامـ بـكـلـ ماـ كـنـتـ أـقـولـهـ.ـ لـقـدـ كانـ شـيـئـاًـ جـديـداًـ تـمامـاًـ بـالـنـسـبـةـ لـهـمـ.

طـرـحـواـ عـلـيـهـ العـدـيدـ مـنـ الـأـسـئـلةـ حـوـلـ عـقـيـدـةـ الـمـسـيـحـيـينـ وـعـادـاتـهـمـ،ـ وـكـانـواـ يـشـفـقـونـ عـلـيـنـاـ لـاقـصـارـنـاـ عـلـىـ زـوـجـةـ وـاحـدـةـ فـقـطـ فـيـ حـيـاتـنـاـ،ـ وـكـذـلـكـ لـعـدـمـ وـجـودـ أـشـجـارـ نـخـيلـ فـيـ بـلـادـنـاـ.

قبل أن نفترق للذهاب إلى النوم، طلب مني الرجل الذي كان يقرأ من الإنجيل أن أقدم له نسخة من الكتاب. قلت له بأن عليه أن يشتريه، فأجاب أن بوسعه أن يسدّد ثمنه تمرة، إذا ما وافقت على هذه المقايسة، فوافقتـهـ عـلـىـ ذـلـكـ.ـ وـهـكـذـاـ،ـ أـحـضـرـلـيـ صـبـاحـ الـيـوـمـ التـالـيـ كـمـيـةـ مـنـ التـمـرـ وـأـعـطـيـهـ الـكـتـابـ.

لقد أفضـتـ هـذـهـ الصـفـقـةـ إـلـىـ بـيـعـ ثـمـانـيـ أوـ تـسـعـ نـسـخـ أـخـرـىـ،ـ إـمـاـ مـنـ سـفـرـ الـمـازـامـيرـ Psalmsـ وـإـنـجـيلـ لـوـقاـ Lukeـ فـيـ نـسـخـةـ وـاحـدـةـ،ـ أـوـ سـفـرـ التـكـوـينـ وـإـنـجـيلـ يـوـحـناـ.

نهضـتـ فـيـ الصـبـاحـ الـبـاكـرـ وـخـرـجـتـ مـعـ الشـيـخـ،ـ الذـيـ بـذـلـ ماـ فـيـ وـسـعـهـ لـحملـ الرـجـالـ الـمـغـادـرـينـ عـلـىـ اـصـطـحـابـيـ معـهـمـ،ـ لـكـنـهـمـ كـانـواـ جـازـمـينـ فـيـ رـفـضـهـمـ.ـ وـهـكـذـاـ الـمـ يـكـنـ بـوـسـعـيـ أـكـثـرـ مـنـ مـرـاقـبـتـهـمـ وـهـمـ يـحـمـلـونـ حـوـائـجـهـمـ وـيـهـمـّونـ بـالـمـغـادـرـةـ،ـ يـتـمـلـكـنـيـ شـعـورـ بـأـنـ إـمـكـانـيـةـ مـرـاقـبـتـهـمـ بـاتـ ضـيـلـةـ لـلـغاـيـةـ.

أمضـيـتـ ذـلـكـ النـهـارـ فـيـ مـنـازـلـ الـقـوـمـ وـحـدـائـقـهـمـ،ـ الذـيـنـ كـانـواـ يـعـاملـونـيـ بـطـرـيـقـةـ لـطـيفـةـ لمـ يـكـنـ يـعـكـرـ صـفـوـهـاـ سـوـىـ اـنـقـادـاتـهـمـ الـمـسـتـمـرـةـ لـيـ كـمـسـيـحـيـ.

فـيـ تـلـكـ اللـيـلـةـ بـالـذـاتـ،ـ نـزـلـتـ بـأـرـضـ كـافـ قـافـلـةـ أـخـرـىـ مـنـ الرـجـالـ لـقـضـاءـ اللـيـلـةـ هـنـاكـ.ـ حـاـوـلـ مـضـيـفـيـ عـبـاـءـاـ إـقـنـاعـهـمـ بـاصـطـحـابـيـ معـهـمـ،ـ لـكـنـ الـجـوابـ كـانـ نـفـسـ جـوابـ

الليلة السابقة. شاهدتهم وهم يغادرون في صباح اليوم التالي وتساءلت إذا كان سيُقدّر لي مغادرة هذا المكان.

بعد رحيل القافلة، دنا مني مضيفي محمد قائلًا: «بما أن أحداً منهم لن يوافق على اصطحابك، فأنا سأذهب معك إلى وجهتك التالية المسمّاة إثرة Ithera، ولعله سيكون بمقدورك أن تنتقل من هناك إلى الجوف». وحوالي الظهرة قام باستدعاء أحد خدمه لإحضار جمل وحصان، وبدأتنا نتهيأ لبدء الرحلة. وبعد أن أجزنا مهمّة تحميل الأمتعة قمت باعتلاء ظهر الجمل وقام هو بامتناع جواده. ولكننا لم نكن نصل إلى خارج البوابة التي تقودنا إلى البلدة، حتى التقينا بحوالي اثنين عشر رجلاً قادمين باتجاهنا على ظهور الجمال.

كانوا شيوخ عشائر من قبيلة متمركزة في الجوار وقد حضروا لزيارة مضيفي. وهكذا عدنا أدراجنا وأنا أمام خيارين: إما البقاء لبضعة أيام أخرى، أو أن يتم إرسالي برفقة اثنين من رجال الشيخ. فآثرت الخيار الثاني.

قاموا بتحميل الجمل وأعطوني حصاناً لركوبه، ثم انطلقنا من جديد. وحوالي المغيب لاحظنا على بعد أشجار نخيل إثرة؛ كانت تفصل بين الموضعين حوالي أربعة فراسخ على ظهور الخيل. لاحظت بأن الرجلين كانوا من وقت لآخر يتراجلان عن الجمل حيث قاما بإناخته مرتين، فيما بدا لي على أنه محاولة منها لموازنة الحمل. لكنني تبيّنت لاحقاً أنهما قاما باقتناص بعض حاجياتي ودفنهما في الرمال.

عندما رجعت بعد حوالي ثلاثة أشهر تقريباً، قام شيخ العشيرة بتسليمي الأغراض التي كان الرجالان قد سلباني إليها. كانا قد أخبرا أبناء بلدتهم عما فعلاه بي، ولدى تناهي الخبر إلى مسامع الشيخ، عمد إلى حمل الرجلين على إعادة أشيائي المقتنصة ثم قام بجلدهما عقباً لهم على معاملتهما السيئة لضيفه<sup>(1)</sup>.

(1) والله ما قصر الشيخ، فهذا ضيف لا تجوز معاملته إلا بكل خير، وتبقى عوائدنا العربية أرقى من أن تُمسَّ بسوء.

تعدّ إثرة Ithera قرية أصغر بكثير من كاف ولها شيخ عشيرتها الخاص بها<sup>(١)</sup>. يقدّر عدد سكان إثرة بحوالي ستمائة إلى ثمانمائة نسمة، آخذين كل شيء بعين الاعتبار. والمكان، على غرار مثيلاته في جبل شمر Jebel Shomer، عبارة عن منازل مبنية من الطوب الطيني ومحاط بأشجار النخيل. يوجد هنالك نبع ماء وسط القرية يمدّ سكانها ودوابها على حد سواء باحتياجاتهم من مياه الشرب.

كافة بيوت القرية مؤلفة من غرفة واحدة كبيرة، والعديد منها من دون أبواب وخالية من الأثاث. لفت نظري وشد انتباهي بقوة أطلالٌ ظاهرة لصراح أثري كبير وسط القرية مشيد بقطع كبيرة من الصخر الأسود اللون المنحوت بشكل غير مقصوق. استجذب بأنه كان في يوم من الأيام مركز حراسة نظراً لوجود فسحة رحبة لإقامة الناس والدواب. بعض الغرف في هذا الصّرح الأثري جرى تحويلها إلى مساكن ومخازن، وهي تفوق بأهميتها الصّروح العصرية. هنا أيضاً لاحظت بأن النسوة كن يتمتعن بقدر كبير من الحرية ويتقلن دون خمار.

كانت غرفة الضيافة الخاصة بشيخ العشيرة في إثرة تقع بجوار المدخل الرئيسي للقرية. بقينا راكبين وتوجّهنا إلى باب الغرفة المتواضعة حيث نزلت مع حاجياتي

(١) وشيخ إثرة هم آل المذهب، من مشاهيرهم الشيخ محمد بن سلطان المذهبن كبير إثرة وشيخ السرحان في القرىات. وسيذكر فوردر أدناه أن اسم الشيخ خويخان، والمقصود خويخان المذهبن (من المبادر من الحباب من السرحان). ولقد قدمت هذه الأسرة من الجوف واستقرت بإثرة منذ أكثر من قرن ونصف وكان منهم (طلال، مانع، متّاع) حيث نزل طلال بدأية الأمر بالمويه شرق القرقر وله قصر هناك، أما مانع ومنّاع فنزلوا في إثرة وحرفوا عن أساس القصر الذي سمّي بقصر المذهبن فيما بعد.

كان لمانع المذهبن 4 أبناء (جروان، ذياب، شهاب، خويخان) وسبب رحيلهم من الجوف سوء تفاهم بينهم وبين ابن رشيد فجلوا إلى إثرة واستقروا بها. وبعد فترة من الزمن تولى جروان مشيخة القرية (وقابلته الزوجان بلنت عام 1879)، ومن بعده آلت إلى أخيه ذياب المذهبن الذي عيّن ابن أخيه جروان شيخاً على القرقر وتولى ابن عمّه نداء على كاف، واستمر لمدة سنتين، تنازل بعدها لأقاربه من الخميس عن مشيخة القرية بناءً على طلب عمّه ذياب المذهبن وأعيد ابن خميس إلى كاف وبقي نداء وأخوه صالح بها حتى عام 1338هـ.

القليلة عند المدخل. دلف الأصغر بين الرجلين اللذين رافقاني من كاف إلى داخل الغرفة، وأخذ ينادي على كافة الرجال الجالسين في الداخل قائلاً: «لقد حضرنا معنا رجلاً نصرانياً، وها نحن أولاً نعهد به إليكم، فافعلوا به ما بدا لكم».

بهذه الطريقة جرى إيداعي في إثرة دون أن يُعهد بي لأي شخصٍ بعينه. وكان يجدر بهما، وفق ما تقتضيه التقاليد، البحث عن شيخ العشيرة وتسليميه إليه شخصياً. وحسبما جرت الأمور، لم يكن هنالك أحد مسؤولًّا عنني.

حملتُ أمتعتي إلى الداخل وركتها في إحدى الزوايا. لم أقل من أحد أيّ بادرة ترحيب ولم يفسح لي أيّ منهم المجال للجلوس.

وهكذا بقيت واقفاً عند عتبة الباب من الداخل. كان المكان رحباً للغاية بطول حوالي ثلاثين قدماً وعرض خمسة عشر قدماً. كان مدخل الغرفة في أحد الجدران الجانبية. لقد كان مكاناً، على غرار مثيلاته، يفتقر إلى أدنى أسباب الراحة. الأرضية كانت مغطاة بالرمل، وكان بداخلها حوالي ثلاثين رجلاً جالسين بوضعية القرفصاء. كان من بينهم رجل أسود اللون بنظرة ثاقبة وسخنة رهيبة جالساً يتعهد أمر القهوة، يقوم بصبّها وتقديمها للحاضرين.

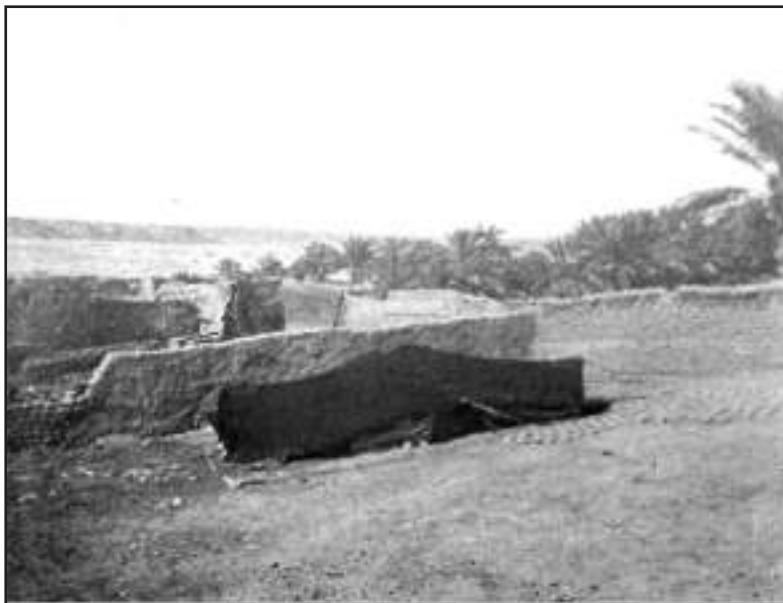
كانت الغرفة مخصصة لاستخدامين أساسيين. الشطر الذي على يمين المدخل منها كان مخصصاً لإقامة الرجال والضيوف، وذاك الذي على الجانب الأيسر كان مخصصاً كإصطبلٍ للدواب، وكان بحالة مزرية من القذارة. وكان هنالك عدد من الخيول والجمال مربوطة في المكان تختص رجال قبيلةبني صخر، الذين كانوا قد حضروا العقد بعض الصفقات التجارية وكان عليهم قضاء ليتهم هناك.

وقفت في مدخل الغرفة بانتظار دعوتي للانضمام إلى جماعة الرجال، الذين كانوا يتساءلون فيما بينهم عن هويتي ومقصدي. كانوا بلا شك يعتقدون بأنني لا أتكلم العربية ولا أفهم بالتالي المواضيع التي كانوا يتحدثون عنها.

أحد الرجال الذين كانوا جالسين بالقرب مني أخبر البقية بأنني نصراني من القدس

وأنه لا بدّ من تجنبـي، كونه سبق له أن زار تلك المدينة واطلع على أحوال المسيحيـين هناك - من غير الپروتستانـت - فهم يعبدون الصور والتماثيل.

لسـوء الحـظ، فإنـ كل ما قالـه الرجل كانـ صحيحاً، ويـ يمكن مشـاهدته في أيـ كـنيـسة من كـنـائـس الطـوـائف الشـرقـية التي تمـثل المـسيـحـية. رـجل آخر من الجـالـسين في الجـانـب الآخر منـ الـحلـقة خـالـفـ الأول فيـ الرـأـيـ، وـتطـوـعـ بالـتصـرـيـحـ بـأـنـيـ «لمـ أـكـنـ نـصـرانـياـ وإنـماـ وـاحـدـ منـ اليـهـودـ».



### مشفى مؤقت في الصحراء

لقد أرسل الكاتب إلى هذه الخيمة لكي يقيم مع رجل عجوز يعاني من مرض مفترز للغاية. كان القوم يأملون أن يلتقط المستر فوردر عدوى المرض ويموت، وبذلك يتوجّبون مغبة قتله.



### زوجة الشيخ خويخان

هذه المرأة تقوم بتحضير وجبة الفطور، فتخبر الخبر على صاح حديدي حار. لقد عاملت هذه المرأة المستر فوردر بلطف خلال إقامته القسرية في بلدتها. وسبب نظرتها المتفاجئة هو اندهاشها لرؤيه الكاميرا.

لكن رجلاً ثالثاً زعم بأنه الأعرف بين الجميع قال بصوت مرتفع: «لا هو بالنصراني ولا باليهودي، وإنما أحد الملحدين الوثنين الذين لا يعرفون الله ولا رسوله محمد، عليه الصلاة والسلام».

مع ذلك، لم تقنع هذه التصريحات باقي أفراد المجموعة، فما كان من أحد الحاضرين إلا أن انبىء قائلاً بجرأة وتحداً: «هذا الرجل ليس بنصراني ولا يهودي ولا وثني، وإنما خنزير قذر».

كل من يعرف أي شيء عن ثقافة المسلمين سيدرك بأن ما قاله هذا الرجل يشكل أكبر إهانة على الإطلاق لأي شخص كان. فأن تنتع شخساً ما بأنه كلب يكفي لخلق عدواء بينكما مدى الحياة، أما أن تشبه شخصاً ما بأنه خنزير، فهذا يتخطى حدود التسامح، وربما أفضى إلى القتل.

قال الرجل ما قالهعني ثم غادر المكان، ربما خوفاً مما نطق به لسانه، ثم دخل علينا شيخ العشيرة في هذه القرية.

سمع الشيخ الكلمات الأخيرة التي تفوّه بها ذلك المتكلم المتواري، وكذلك ما تجرأ على قوله رداً على تلك الانتقادات والإهانات بحقه. كان كل ما قلته لهم هو: «أيها الرجال، أنا لست بخنزير ولا ملحد ولا يهودي؛ أنا مسيحي يعبد الله، الإله نفسه الذي تعبدونه، ولست من أولئك المسيحيين الذين يعبدون الصور والتمايل ويיסجدون لها؛ مثلما هنالك أربع أصابع مختلفة في يدكم، هنالك أربع عقائد مسيحية مختلفة».

عندها، خاطبني الشيخ العجوز قائلاً: «طالما أنك نصراني، إذاً اذهب واتخذ لك مكاناً بين الدواب». امتنعت لما طلبه مني الشيخ وذهبت وجلست على الأرض بين أحد الجمال وفرس عجوز بيضاء اللون.

لم يطل بي المقام في الإصطبل حتى دخل علي رجلٌ بدا من لباسه أنه غريب. وسرعان ما تأكد لي ذلك عندما أقبل نحوه ومد يده إلي مصافحاً. لم يسبق لي قط أن صافحتني يد أكثر دفئاً ومودة من تلك اليدين. لقد عبرت لي بطريقة عفوية بريئة عن

معاني التعاطف والرأفة والمؤاساة. جلس بالقرب مني وبدأ بينما هذا الحوار المقتنص، وبالنسبة لي، التشكيفي:

الغريب: من أنت ومن أين أتيت؟

الجواب: من القدس. أنا مسيحي، مبشر.

الغريب: ما هو مرافقك هنا؟

الجواب: قدمت للتعرف إلى الأرض والناس والبلدات والقرى، وأحمل معى كتاباً للبيع.

الغريب: إذا كنت تقدر قيمة حياتك عليك بمعادرة هذا المكان بأسرع ما يمكن، وإلا فتك بك هؤلاء الرجال، فهم عصبة من الأشرار.

سؤال: من أي نوع من الرجال شيخ العشيرة هذا؟

الغريب: لطيف جداً وله نفوذ كبير؛ وهو يكرم ضيوفه إلى أقصى حدّ.

سؤال: من أنت، وماذا تفعل هنا؟

الغريب: أنا درزي وأدير الدكان الوحيد في هذا المكان. لقد سمحوا لي بالبقاء لأنني أتظاهر بأنني مسلم.

بهذه الكلمات قام وغادر المكان، ولم أره بعد ذلك أبداً خلال فترة إقامتي القصيرة هناك. ثم أرهفت سمعي إلى ما كان يقوله الرجال في الجانب الآخر من الغرفة. سمعتهم يناقشون مع الشيخ خططاً للتخلص مني.

اقتصر أحدهم حزّ عنقي أثناء نومي في تلك الليلة. لكن الشيخ العجوز قال: «لن أسمح بإراقة دم نصراني في بيتي وقريتي». اقترح رجل آخر أن يصار إلى تسميم الطعام الذي سيقدمونه لي على العشاء، فهذا سيوفر عليهم عناء قتلي، حيث أنني سأموت في أثناء النوم، وبعدها يصار إلى دفني. وإذا صادف أن قدم أحد من أهلي أو الحكومة يبحث عنني، وهو ما سيحصل، يمكن أن يطلعوهم على قبري، وإذا ما استدعى الأمر،

يُطلعونهم على جثتي، ولكن من دون ما يدلّ على أنني قضيتُ غيلة.

مع ذلك، فقد اعترض الشيخ على هذا الاقتراح أيضاً، وفي نهاية المطاف تم التوافق على طردي خارج القرية إلى عرض الصحراء لأقضي جوعاً وعطشاً. بعدها، استقرّ الرأي على تركي حتى الصباح، ثم أردف الشيخ العجوز قائلاً: «كلا يحلّ مكروه بدوا بنا جراء وجود نصراوبي بينها، من الأجرد به أن يقضي ليته في البساتين، تحت أشجار النخيل».

ثم أحضر العشاء، وبعد أن انتهى الجميع من تناول عشائهم، دُعيتُ إلى تناول طعامي. جلست قبالة الطبق الضخم المستدير، وتحت وطأة الجوع المستحكم، انهمكت متلذذًا بتناول وجبة مجهولة مكونة من عناصر غذائية لا أعرف عنها شيئاً. كنت أتناول الطعام بأصابعِي عوضاً عن الملعقَة أو الشوكة، وهي أشياء غير معروفة في تلك المناطق؛ وكوني لمحت الآخرين يأكلون من الطعام ذاته، فقد اطمأنيت إلى سلامته.

بعدها، طلب مني الشيخ اللحاق به، ثم انطلق بي خارجاً إلى البساتين القرية. جلستُ تحت إحدى أشجار النخيل الباسقة وتهيأت لقضاء ليلي في العراء. وبعد حوالي نصف ساعة رجع إلى الشيخ قائلاً: «أخشى إن بقيت هنا أن يلحقَ بأشجار نخيلنا مكروه ما ويتصحرّ محصولي من التمور لهذا الموسم؛ لذلك، تعال معِي». مشى الشيخ أمامي وأنا تبعته. كان الظلام قد أرخى سدوله تقربياً عندما وصلنا إلى خارج أسوار القرية.

أرشدني الشيخ إلى خيمة يتيمة قريبة من المكان في ظل بعض الجدران العتيقة ثم قال لي: «ادهب وامكث هناك»، فامتثلت لأمره.

وجدتُ بداخل تلك الخيمة رجلاً عجوزاً يعاني من مرض كريه مثير للاشمئزاز، أشبه بالجذام. كان المريض في حالة يرثى لها وكان منظره منفرّاً إلى أبعد الحدود. قال لي بأنهم لم يعودوا يطيقون وجوده بينهم داخل القرية، وهكذا فقد نبذوه هنا إلى أن

يوا فيه الأجل ويريه مما هو فيه.

لم يسبق أن شعرت في حياتي قط بالحاجة إلى العزيمة والمدد كما كنتأشعر الآن. كنت من خلال قراءاتي المتكررة قد حفظت عن ظهر قلب المزمور المقدس الحادي والعشرين بعد المئة 121st Psalm والتمست العون الإلهي من الآية السابعة كما لم أفعل من قبل.

استيقظت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي متربقاً أحدها النهار. لم يقترب أحد من المكان، ولم يكن لدي أدنى فكرة عن مكان وجود حوائجي. كل ما كان معني هو إنجيل الجيب، وكل ما تمكنت من قراءته فيه هو المزمور الذي سميته للتو، وهو المزمور المقدس الحادي والعشرون بعد المئة 121st Psalm.

لمحت حوالي الظهيرة عدداً من الرجال برفقة الشيخ العجوز وأسمه خويخان<sup>(1)</sup> يعبرون من أمام باب الخيمة، فتبعتهم دون أن يلحظني أحد. بعدها جلسوا يتحدثون وهم غافلين عن وجودي بالقرب منهم أتنصّت على كل ما كانوا يقولونه. استنتجت من حديثهم ثلاثة أشياء:

الأول: أن قافلة كانت ستشدّ رحالها إلى بلدة الجوف نهار الجمعة القادم - وكان اليوم الأربعاء.

الثاني: أن الشيخ العجوز نفسه سيتولى قيادة القافلة.

الثالث: أن المجموعتين اللتين سبق أن شاهدتهما تغادران آخر المحطات، ألا وهي كاف، قد تأخرتا كلتاهم لسبب أو لآخر، وقد تقرر أن تنضمّا للقافلة المغادرة يوم الجمعة.

(1) هنا للمرة الأولى يسمى فوردر الشيخ خويخان، وهو كما قلنا خويخان بن مانع المذهب (من المبادر من الجباب من السرحان). لكن المؤلف كتب الاسم بطريقة عجيبة غريبة لا يُفهم بها أبداً: Khy-Khwan خاي خوان، ولما لم يكن للشيخ خويخان المذهب أخبار مدوّنة في شيخة إثرة، فقد كان من العسير العثور على اسمه، إلا بمتابعة طويلة وشاقة.

سُررتُ أيمًا سرور لسماع هذه الأنباء، وعزمت على مقابلة الشيخ بهذا الخصوص. وبعد مغادرة الرجال عمدت إلى تتبع خطى الشيخ خويخان والتحدث إليه على هذا النحو:

«أنتم ذاهبون إلى الجوف؛ هل اصطحبتموني معكم؟» حدّق بي الرجل بدهشة واستغراب قائلاً:

«لن تربح هذا المكان حيًّا، وإذا ما فعلت ووصلت إلى الجوف، فسوف تُقتل لا محالة. إنها أرض المسلمين؛ ولا يسمح لأيّ مسيحي بدخولها. أنتم أعداؤنا وأعداء الله». فأجبته قائلاً: «سأدفع لك لقاء اصطحابي معكم، وأنا على أتم الاستعداد لمواجهة الجوف بكل أخطارها». فكان جوابه: «هل تعرف كم تبعد الجوف عن هنا؟ إنها مسيرة عشرة أيام. سفر الصحراء ومخاطر قطاع الطرق والجوع والعطش والإعياء ستقضي عليك».

أكّدت للشيخ مجددًا استعدادي لتحمل كل هذه المشاق وأنني لا أخشى منها شيئاً. ثم سألته: «كم تريدين مقابل اصطحابي معكم خلال رحلة الأيام العشرة هذه ذهاباً وإياباً، شرط أن تقدموا لي جمالاً وطعاماً وشراباً وما تستطيعون من مساعدة طيلة فترة مكوثنا في الجوف؟».

كان جوابه حاسماً ومقتضياً: «ليرantan إنكليزيتان لليوم الواحد، أي ما يعادل عشرة دولارات - عشرة أيام ذهاباً وعشرة أيام إياباً، أضاف إلى ذلك مكوثاً لمدة خمسة عشر يوماً، فيكون المجموع خمسة وعشرين يوماً. ادفع لي سبعين قطعة ذهبية إنكليزية، وسوف نقللك معنا».

أخبرته بأن هذا مستحيل، لأنه يفوق كل ما أملك؛ ولا بد من تخفيض المبلغ. أجابني قائلاً: «إذا كنت غير قادر على دفع المبلغ، فُعد إلى مكانك».

وهكذا عدتُ أدراجي إلى الخيمة المنعزلة. لكنني كنت في غاية الطمأنينة لأنها كانت مشيئة الله بقدومي إلى إثرة في التوقيت الذي قدمتُ فيه.

لقد كان العثور على شخص مثل خويخان، الذي هو بصدده قيادة قافلة إلى الجوف، تقديرًا ربانيًا، مثلما كانت حقيقة أن الجماعات المختلفة التي شاهدتها تعادر كاف قد تأثرت في إثرة.

شعرت بأنه قد حان وقت العمل. وهكذا ولدى عودتي إلى الخيمة جلست للتأمل والصلة. لقد وجدت نفسي مرغماً على تقديم عرض مالي للشيخ، ولكن ليس ذلك المبلغ الكبير الذي طلبه مني. كان معه عدد من الناپليونات (الليرات) الذهبية الفرنسية التي تعادل كل منها أربعة دولارات، مخيطة داخل نطاق سروالي. وهكذا قمت باستخراج أربعة منها وخرجت في إثر الشيخ.

ووجده جالساً بمفرده داخل غرفة الضيافة. دنوت منه والنقود في يدي قائلاً: «إذا ما سمحت لي بمرافقكم إلى الجوف وأمنت لي جملًا وطعامًا وشرابًا، فسأعطيك هذه الليرات الذهبية الأربع».

نظر إلى النقود ثم التفت إلي قائلاً: «هاتها الآن وستنطلق بعد غد». قلت له: «لا؛ بل أعطيك إياها على الملاء أمام رجال القرية؛ يجب أن يكونوا شهوداً على اتفاقنا». فلو كنت أعطيته النقود لربما كان أنكر تسلّمها مني.

وهكذا خرجنا معاً إلى ساحة القرية حيث تم تسليمه النقود وإبرام الصفقة بحضور رجال إثرة. سُمح لي في تلك الليلة أن أنام في غرفة الضيافة، بوجود حصان إلى يميني وجمل إلى يسارِي، وجلّ ما كنت أخشاه أن يطأني الحصان وأنا مستلقٍ على الأرض. لكنني أمضيت ليلة مريحة.

عند استيقاظي صباح اليوم التالي وجدت المكان خالياً. قصدت أحد الينابيع القرية لأغسل؛ وهو أول اغتسال لي منذ عدة أيام، ثم طفت أبحث عن بعض الرجال. التقيت امرأة، تبيّن لي فيما بعد أنها زوجة خويخان؛ التي دعتني بلطف للذهاب إلى بيتها، فلبيت الدعوة. قدّمت لي طبقاً من التمر وبعض الخبز الساخن وزبدية من اللبن الرائب، جعلت منها وجبة إفطار دسمة. تحادثت معه مطولاً وتعاطفت معه ورأفت

لحالي كوني ارتحلت عن وطني وقومي وأهلي متخدًا لي ملجأً بين الأعراب. سألتني:  
«أية جريمة ارتكبت، أو من قتلت حتى اضطررت للفرار؟».

أخبرتها عن السبب الحقيقي الذي دفعني للقدوم إلى صحراء جزيرة العرب، لكنها،  
للأسف، لم تستطع أن تصدق أنني أترك زوجتي وأطفالتي وبيتي ووطني وأعيش مثل  
هذه الحياة التي أعيشها لهدف وحيد وهو إخبار الناس عن المخلص.

سألتها عن الرحلة المفترضة، فقالت بأن زوجها يقوم بهذه الرحلة مرة في العام  
وأن هذا هو موعدها. كان يعكف على جبائية الضريبة السنوية من الإقليم والتي بدورها  
تُدفع لشيخ عشائر الجوف الذي يقوم بإرسالها إلى العاصمة، حائل.



### قرب جلدية مملوءة بالماء جاهزة للرحلة

يتم سلخ الجلود من بدن الحيوان قطعة واحدة، وبعد أن يملأوها يستعملونها لحمل السوائل. وهذه الجلود الأربعية الظاهرة المملوءة بالماء مخصصة للمسير فوردر والشيخ الذي رافقه عشرة أيام عبر الصحراء. وعند عدم استخدامها يتم دهنها بزيت الزيتون وفركه على الجلد لمنع جفافه وتشققه وإلا يغدو عديم الفائدة.

أخبرتني السيدة بأن هؤلاء الرجال هم عبارة عن عصبة من «العُتاة»، لكنها شجعني بقولها: «طالما أنك مع خويخان، فإن أحداً غير قادر على إيدائك».

سألتها عن روحها، لكنني تلقيت الرد المعهود: «نحن النساء لسنا بأفضل حال من الجمال أو الحمير؛ نحن النساء لا أرواح لنا؛ وعندما نموت تكون هذه نهايتنا». ثم خرجمتُ من عندها.

في أثناء تجوالي شاهدت الجميع يحملون قرب الماء استعداداً لبدء الرحلة. في إحدى البساتين بالقرب من حوض ماء كانت هناك أربع قربٍ جاهزة لتعليقها على الجمال. أدركتُ أن انطلاقه الرحلة باتت وشيكة، ولم يخب ظني.

\* \* \*

## الفصل الثامن عشر

### عشرة أيام فوق رمال الصحراء

سمعتُ أذان الظهر، وقلتُ عائداً إلى البيت. وفور انتهاء الصلاة بدأ الهرج والمرج.  
دفع إليّ بأحد الجمال وطلب إليّ تحمل أمتعتي بسرعة كون القافلة قد بدأت تحركها.

وضعت حوائجي على الجمل ثم اعتليت ظهر الحِمل وانطلقت خارج القرية.  
وهناك التقى بشيخ العشيرة الذي أرسل رجلاً كي يأتيني بعصاً أهشّ بها على ج ملي،  
الذي لم يكن مزوداً بأي رسن أو حبل.

مع بدء تحركنا، انزلق ح ملي، وأنا كذلك، كونه لم يكن مربوطاً بإحكام. فتم إرسال  
بعض الرجال لتعديله وتبسيته، وسرعان ما كنت أخبط بعييري أمام الركب متباوزاً  
الجميع. تمكنت من إحصاء حوالي مئة وعشرين جملًا وحوالي ثمانين رجلاً في  
القافلة. البعض منهم كانوا غلظاء وشرسين بشكل خاص. كانوا يتحلقون حولي  
مستعرضين خناجرهم وبنادقهم، مكرّرين على مسامعي مرة بعد أخرى أن مثل هذه  
الأشياء كانت مخصصة للنصارى<sup>(١)</sup>. قالوا لي بأنه لا ينبغي لي أن أصل إلى الجوف  
حيّاً، وأنهم سيلقون بجثتي على الرمال.

(١) كان ينبغي لفورد أن يتذكر أفعال قومه الإنكليز في منطقة الخليج العربي، من قصف لعجمان عام 1865 وللقطيف والدمام وصور عام 1866 وإثارة الأعمال العدائية ضد بعض مجتمعات جزيرة العرب، وخاصة الدولة السعودية الثانية في أيام الإمام فيصل بن تركي. فعلى ذلك ليس من المستغرب تحامل الناس على قومه.

بدؤوا بتمجيد عقيدة الإسلام، وطلبوا إلى التحول عن عقيدتي إذا ما كنت راغباً بالعيش في بلادهم. لم تكن الرحلة باتجاه الجوف مشجعة من الناحية الإنسانية، لكنني في قرارة نفسي كنت أشعر بأن الله كان معي، وأن التدابير التي تمكنت من إنجازها لقاء مبلغ زهيد من المال دفعتني إلى الاعتقاد بأن كل شيء سيكون على ما يرام. لم أغفل عن حقيقة وجود مخاطر، لكنني عوّلت على وعدهم لي بأنهم لن يستضعفونني أو يعمدواني إلى إيدئائي.

غادرنا إثرة حوالي الواحدة ظهراً واستمرّ مسيراً حتى المغيب. وحوالي الساعة الخامسة تقريباً سمعنا صيحة من وراءنا: «انظروا وراءكم». وإذ بعصبة من البداهة الشرسين جاذبين في إثرنا بأقصى ما يستطيعون من سرعة؛ لقد كانوا مجموعة من قطاع الطرق.

سرعان ما عمد الرجال، بهدف حماية القافلة، إلى رصّ الجمال جنباً إلى جنب، ثم إلى إناختها على الأرض. اقترب مني شيخ العشيرة قائلاً: «لقد تسبّب وجودك معنا لنا بهذه المتاعب، وفي أول أيام مسيرنا أيضاً». ثم طلب مني الانبطاح أرضياً وإيجاد ملاذ لي وسط الجمال خشية أن تصيبني رصاصة طائشة، كونهم بدؤوا هجومهم علينا.

لم أكتثر أبداً لاتخاذ مثل هذا الموقف المهين الذي اقترح علي خويحان القيام به. قال بأنه يخشى أن أُقتل، ولعن اليوم الذي قدمتُ فيه إليه.

جرت معركة حامية الوطيس بين قطاع الطرق ورجالنا، الذين أبلى بعضهم بلاءً ممتازاً في هذه المواجهة.

هناتهم على شجاعتهم فيما بعد وأصبحنا أكثر وئاماً. ولّى اللصوص أدبارهم، وصدر الأمر بقضاء ليتنا حيث نحن. وبعد أن قدّموا لي وجة العشاء المكونة من التمر والخبز الفطير الساخن غير المختمر، اضطجعت على الرمال وسرعان ما كنت أغطّ في النوم. ظهر اللصوص ثانية بعد حوالي ساعتين، لكنهم رُدّوا على أعقابهم.

في صباح اليوم التالي تحركنا مع شروق الشمس، ووصلنا سريعاً إلى أحد ينابيع المياه المالحة، حيث قمنا بملء القرَب، ثم واصلنا مسيراً على جناح السرعة. لم نكن نتكلّم أبداً حول مصادر المياه، خشية أن يُقبل علينا بعض الأعراب وينشب بيننا شجار، في حال لم

يكونوا من النوع المسلح. إن معظم المواجهات بين البدو والعرب يكون سببها الخلاف على الماء والينابيع والآبار (سفر التكوين - المزمور 18-xxvi). كنا قد أتينا في تلك الليلة على كل الماء الذي حملناه معنا من النبع، على أمل أن نجد المزيد في اليوم التالي. لكننا وعلى مدى خمسة أيام لم نعثر على قطرة ماء واحدة، حيث كاد أن يقتلنا الظمآن.

في عشية اليوم الخامس، حفظت الرجال على البحث عن الماء، فانطلقوا في كل اتجاه للقيام بذلك. وفي الحال لمحنا أحد هم وهو يلوح لنا بعبأته، إشارة إلى نجاحه في مهمته. غذت الإبل السير في اتجاهه؛ وكنت أنا في آخر الركب.

لدى وصولي إلى المكان لمحث عشرةً من الرجال جاثين على ركبهم وهم يحفرون في الرمال، تماماً كما يفعل الكلب. سألتهم عن مكان وجود الماء، فكان الجواب: «مهلاً ولا تكن عديم الصبر، أنت ابن مدينة ولا دراية لك بأمور البراري؛ نحن أبناء الصحراء ونعرف كيف نتعامل معها».

حفر الرجال في الأرض لعمق ثلاثة أو أربعة أو خمسة أقدام، دون أن يظهر للماء أيّ أثر. بعدها، بدأ الحصى يخرج بدللاً من الرمل، ثم أعقبه انبثاق تلك النعمة الإلهية الشمية التي كنا نترقب بلهفة ارتشاف جرعة منها.

بدئ بتوزيع الماء على كل شخص بدوره. وبدافع الرأفة والإشفاق، كنت أول الشاربين، كونهم كانوا على علم بأنني لم أكن معتاداً على مثل هذا الانقطاع الطويل عن الماء<sup>١)</sup>.

كان يجري استخراج الماء بواسطة قلنوسات قدرة لم يسبق لها أن عرفت الصابون يوماً أو حتى الهواء الطلق، كونها تلبس على الرأس مباشرة تحت الكوفية. لم يكن الوقت وقت الالتزام بالرسوميات الاحتفالية، حيث أن الجميع كان متلهفاً لشربة ماء غير عابئين بالكيفية التي ستصل فيها إلى أفواهنا من حوضها الحصوي.

كان يمكن لتأسيي وزبديتي الخزفية أن تؤدي دوراً مفيداً في هذه المناسبة، لولا أنهما سبق أن اقتنصتا من قبل أحد الغيارى الحريصين على إراحة هذا النّصراني من

(١) أين تعليق فوردر الآن على هذا الفعل الطيب؟ أم هو حاذق فقط في الذم؟

مثل هذه الأشياء الزائدة عن لوازم رحلته.

بعد توفر الماء، بات بإمكاننا تناول الخبز على العشاء عوضاً عن التمر. جرى إعداد العجين وخبزه على موقد من الجمر المتقد فوق الرمال.

بعد إخراجه من النار، كان يصار إلى تقطيع قالب الخبز السميكة وتوزيعه فيما بيننا بالتساوي. وفي بعض الأحيان، عندما يكون القائم على التوزيع متخيلاً ضدي، كنت أخرج من القسمة بخفى حنين، اللهم باستثناء قطعة صغيرة من الخبز.

في إحدى المرات، عندما لم يصلني من حقي سوى نذر يسير يكاد لا يسد الرمق، تذكرت بقايا من خبز كنت أحفظ بها في خرج الدابة كانت قد قدّمت لي عندما كنت في عرمان قبل ستة عشر يوماً، فعمدت إلى إخراجها عليها تسد رمقي. وكانت متعفنة وقاسية كالصوان.

إدراكاً مني لمقت العرب رؤية الخبز يرمى به بهدف التخلص منه، فقد عزمت على نقعها وتقديمها للجمل ليأكلها. فأقدمت على ذلك اعتقاداً مني بأن أحداً لم يلحظني. في صباح اليوم التالي جرى إعداد الخبز وتوزيعه كالمعتاد، ولكن دون أن ينالني منه شيء على الإطلاق. لم أطالب بحصتي، فهذا مخالف للأعراف والتقاليد.

وهكذا بدأنا يوماً جديداً، وكم كان ندمي شديداً على تقديمي الخبز القاسي للجمل، فقد كنت أنا أولى به الآن لأنني كنت أتضور جوعاً.

كان بمقدوري غمسه بالماء وتناوله، في محاولة مني لتسكين غائلة هذا الجوع، ولكن فات الأوان. لم يكن ليخطر بباله أن تناول الجمل لتلك القطع الصوانية من الخبز سيحتم علي أن أبقى جائعاً حتى اليوم التالي، ولكن هذا ما كان.

كان بعض الرجال قد لمحني وأنا أبلل بقايا الخبز المتعفن وأقدمها للجمل، فاتهمني بالبطر والتبذير. أوضحت الأمر لشيخ العشيرة في أثناء النهار، فقال بأنه كان يظنني حصلت على نصيبي من الخبز، لكنني آثرت الجمل على نفسي، حيث أن مخصصات الطحين المعتادة لهذا اليوم قد جرى توزيعها بالكامل. ولدى سؤال

الرجال عن سبب عدم تقديمهم لأي خبز لي، كان الجواب: «هذا النّصراني يُطعم جمله خبزاً، وكونه على هذا القدر من البطر والتبذير، لم نقدم له شيئاً».

حاولت أن أشرح لهم موقفي، ولكن لم يكن من السهل التغاضي عن ذاك الذنب الذي اقترفته. لقد تعلمت درساً لن أنساه بسهولة، ولن أنسى ما حيت تلك الليلة التي أعقبت ذلك اليوم.

أنينا رحلنا قرب أحد بساتين النخيل البرّية، وجرى إحضار الماء من أحد الينابيع الصغيرة على بعد حوالي نصف ميل. كان الجو عاصفاً طوال اليوم، لكن ريحًا مجنونة هوجاء كانت قد بدأت بالهبوط من جهة الشمال الشرقي، مشكّلةً دواماتٍ رمليةً في كل الاتجاهات، الأمر الذي جعل من المستحيل علينا إشعال أي نار. بادر شيخ العشيرة مشكوراً إلى إقامة سور واقٍ من بعض أكياس الحنطة التي كنا نحملها معنا، لكنها لم تف بالغرض، ولم تقنا عصف هذه الريح، إلا بالحد الأدنى.

جعلت الرياح العاصفة والبرد القارس من النوم أمراً متعدراً. وأخذت لي قسطاً يسيرًا من الراحة، إلى أن أثليج صدري بزوغ الفجر. هدأت العاصفة مع شروق الشمس، لكنني كنت أرتجف من البرد، ما استدعى مني السير لمسافة ساعتين تقريباً حتى شعرت بالدفء. كنا نقترب من نهاية رحلتنا وجميعنا متلهف للوصول إلى الجوف.

وما خلا تعب الرحلة ونصبها، كل الأمور سارت على ما يرام.

كان موقف الرجال قد تغيّر تجاهي، لكنهم لم يكونوا يوفرون فرصة لترويعي وإخافتي إلا وانتهزوها، كوني مسيحيًا. كنا نشاهد من وقت لآخر هياكت عظمية لجمال على الرمال، وفي مناسبتين اثنتين شاهدنا بقايا لهياكل عظمية بشريّة.

عند مرورنا بجمجمة بشريّة في أحد الأيام، لفت الرجال نظري إليها وحاولوا الإيحاء لي بحقيقة أنها جمجمة رجل نصراني - نصراني مثلّي تماماً، غامر بانتهاك حرمة بلاد الإسلام، لكنه هلك في الصحراء، وقد تركت رفاته عبرةً لأي نصراني يأتي بعده.

«هكذا سيكون مصيرك»، كان الاستنتاج المطمئن الذي عمدوا إلى مؤاستي به.



### قلعة الجوف

تبين هذه الصورة مكان إقامة الحاكم في ضواحي البلدة. ولقد أخذت الصورة بعد الحادث التي كادت تودي بحياة الحاكم، ولهذا السبب لا يظهر إلا ثلاثة أبراج فوق الأسوار. لم يكن يعرف أحد بالتفصيل هذه الصورة وإنما كان العرب فعلوا من المشاكل أكثر مما فعلوه.



### مارد قلعة الجوف

تقع القلعة في الحد الشمالي الأقصى لواحة الجوف. وهي ضخمة جداً وشكلها دائري. ويعتقد العرب بأن كثيراً من الكنوز مخبأ تحت الجدران وأن المسيحيين هم الوحيدون الذين يمكنهم تحديدها. ومرة في كل ستة يؤدي العرب عبادتهم داخل هذه الأطلال الضخمة.

في آخر ليلة لنا في البرية ارتكبت خطأً آخر لا يغتفر. كنت قد صحوت كالمعتاد قبيل طلوع الشمس ثم قمت بإعداد بعض الماء الساخن لتحضير كوب من الشاي قبل بدء المسير. لم يكن هنالك توزيع للطعام في ذلك الصباح، حيث أننا كنا تقترب من نهاية الرحلة؛ ولدوى تناولى غلاية القهوة لوضعها في الخرج، وجدت بأنها لازالت تحتوي على بعض الماء، ما يعادل ملء فنجان شاي تقريباً. وجدتها فرصةً سانحة للاستفادة من هذا الماء، وقمت بملء مجمع كفيٍّ من هذه القطرات المتبقية ورشقتها على وجهي ويدي، بعد نجاحي في إزالة ما يعلوها من غبار وشوائب.

اعتقدت أن أحداً لم يلحظني، ولكن، هيهات، فالعيون كانت مسمرةً علي، وعند طبى لجرعة ماء فيما بعد، قيل لي: «طالما أنك تستخدم الماء للغسل، فلا داعي لاستخدامه للشرب».

لم يُجد الشرح نفعاً. فقد ارتكبت إثماً فظيعاً لا يغتفر. بعد ذلك مباشرة شاهدت الرجال وهم يفرغون قِرَبَهُم من الماء فوق الرمال؛ وما قدرتُ بأنه سيطفي ظمائي أخيراً، أطفأ ظماً الرمال، وأنا أطلق إليه بحسرة.

وأخيراً تراءت لنا على البعد بساتين نخيل الجوف، يلوح من ورائها الحصن الأثري الدائري الشكل، الذي لا يعلم أحدٌ تاريخ بنائه<sup>(1)</sup>). مُنعت من الاقتراب منه لأسباب متعددة.

حوالي الرابعة عصراً دخلنا هذه المدينة الصحراوية المنعزلة، وسرعان ما تمت استضافتنا في غرفة الضيافة الفسيحة خاصَّةً الأبناء الثلاثة لشيخ العشيرة<sup>(2)</sup> الذي كان اسمه جوهر - أو أبو عنبر.

\* \* \*

(1) يُعرف حصن الجوف باسم «مارد»، وهو حصن أثري قديم.

(2) ذكرنا أعلاه أن جوهر لم يكن شيخ عشيرة، بل هو رجل زنجي ولاه على الجوف الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد، وقبيله قبل رحلة فوردر بحوالي 16 عاماً الزوجان آن ولفريد بلنث أثناء رحلتهما من الجوف إلى حائل.

## الفصل التاسع عشر

### خطة الزعيم لإرغامي على اعتناق الإسلام

بعد رؤية الحصن الأثري مباشرة، شاهدت رجالاً ونساء وأطفالاً خارجين لاستقبال أقاربهم وأصدقائهم لحظة عودتهم من الرحلة الصحراوية، بما اكتنفها من مشاق وأخطار. إلا أن أحداً لم يأبه لوجودي أو يعرني انتباهاً، في غمرة الانشغال بالتحيات والتهاني والترحاب بين الأقارب الذين طال بينهم الفراق. ولكن سرعان ما انكشف أمر وجود غريب وسط الجمع، وأن أحداً لم يبادره بتحية أو كلمة ترحاب.

تناهت إلى أسماعي بعض الكلمات والتعابير التي عرفت بأنني المقصود بها من مثل: «لعنة الله عليه!».. «عدوا الله ورسوله، فلينجنا الله منه!».. «كافر، لعين!» كانوا يقدّفونني بمثل هذه النعوت والشتائم، كباراً وصغاراً، ولا سيما النساء والأطفال.

ما أثار انتباهي أكثر من غيره كان تلك الأبراج الطينية القديمة التي شاهدتها في جميع الجهات عندما دخلت الجوف من جهة الشمال، والتي تبيّنت فيما بعد أنها كانت لأغراض دفاعية. كان من المستحيل التقاط أية صورة لها بسبب تركيز العيون على.

سلكنا طريقنا بمحاذاة هذه الواحة الجميلة في الصحراء، وقد أسرني الجمال الأخاذ لالآلاف أشجار النخيل الوارفة. يبلغ طول بلدة الجوف حوالي الميلين وعرضها حوالي الميل تقريراً. أما بيوتها، فالعديد منها محتجب عن الأنظار وراء أشجار النخيل، ما يوحي للوهلة الأولى بأن عدداً ضئيلاً من الناس فقط يقطن هذا المكان. لكنني علمت من الشيخ لاحقاً أن عدد السكان الإجمالي لبلدة الجوف يناهز الأربعين ألف نسمة تقريراً.

لقد كانت جميع البيوت، باستثناء الحصن، مبنية بالطين والحجر الرملي المجفف تحت أشعة الشمس، والبعض منها مؤلف من ثلاثة أدوار، مشيّدة بالطبع بطريقة بدائية جداً. الأسطح جميعها مستوية ومحاطة بسور حماية بارتفاع مستوى الخصر تقريباً. يحظر على النساء هناك الاختلاط بالرجال، لكنهن قد يتربّدن أحياناً إلى هذه السطوح، كونها محجوبة عن الأنظار.

والتصميم الداخلي لهذه البيوت بسيط للغاية، المطحنة اليدوية، المهباج، وبساط أو اثنين من البسط العتيقة، هي كل ما يمكن أن تشاهد في داخل البيت. معظم البيوت بلا أبواب، بسبب ندرة الخشب، والناس هناك بطبيعتهم يمضون القسط الأعظم من حياتهم خارج البيت في الأشهر القائمة الحرارة تحت ظلال أشجار التخليل، وفي الأشهر الباردة يتنعمون بأشعة الشمس فوق الرمال. والمطر أمر نادر في منطقة الجوف، حيث لا يتجاوز عدد الهطلات المطرية ثالث مرات في العام، حسبما أفادني به أهل المنطقة.

مصادر الماء جيدة في المنطقة، حيث تُنقل المياه على ظهور الجمال من ينابيع جوفية عميقة. وهناك بعض الينابيع الكبريتية الساخنة يستخدمها الناس لأغراض الوضوء. لم ألحظ وجود أية حوانين أو محلات تجارية في المدينة. ولدى سؤالي عن كيفية حصول الناس على حاجاتهم الضرورية، كالملابس وأدوات المطبخ والقهوة وغيرها، أفادوا بأنهم يعتمدون على القوافل القادمة من مكة وبغداد ودمشق.

يصنع الناس هناك عباءاتهم بأيديهم على أنوال بدائية، ويختصّصون ببعضها للبيع أيضاً. حصلت لي على عباءة جيدة جداً بحوالي ثلاثة دولارات ونصف. وعباءات الجوف من النوعية الممتازة وتلقى رواجاً كبيراً في فلسطين وسوريا. كذلك شاهدت الرجال يصنّعون العقال (المريّر) "mereers" ، الذي هو عبارة عن جبل مزدوج يشدّ على الرأس؛ وأكثر ما أثار اهتمامي الطريقة البسيطة والأنيقة التي يصنّعونه بها. وسرور العفال والسجاد هي أيضاً من بين الصناعات التي تشتهر بها بلدة الجوف.

الطعام الرئيسي لآبناء المنطقة هو التمر والتمّن، وهذا الأخير هو عبارة عن نوع من الحبوب من فصيلة الأرز. ويعده الخبز طعاماً مُترفاً يقتصر تناوله على وجهاء وأعيان

المنطقة؛ ولا يتناولونه بشكل يومي. وهنالك نوع من الخبز المصنوع من طحين نوع من أنواع البدور الناعمة السوداء المشوية بالحمراء بحجم حبات الرّمل تدعى السّمح "semmah" ، وطعم المنتج النهائي كريه وغير مستساغ.

من حسن حظ الناس هناك أن الفواكه والخضروات متوفرة بكثرة. وبالإضافة إلى أنواع التمور المختلفة، هنالك العنب والمشمش والخوخ والأترج (الكباد) والبطيخ الأصفر (الشمام) والبندورة (الطماظم) والخيار والفاصولياء واليقطين، وغيرها من الأنواع غير المعروفة بالنسبة لي بالإنكليزية.

على غرار كافة مدن الشرق، لا يوجد هناك أية خدمات صحّة عامة. والمشروب الوحيد لأهالي الجوف هو القهوة؛ فالمشروبات الروحية لا وجود لها هناك على الإطلاق - وقد يستمرّ الحال على ما هو عليه فترة طويلة! والعديد من الرجال من المدخنين، لكن ليس كلهم.

ما أثلج صدري هناك اكتشافي أن العديد من الرجال والأولاد يجيدون القراءة بفهم وتدبر، والعديد منهم يحملون ساعات يدوية. لكن جهلهم بالشؤون الخارجية فاجاني. ومايسهم في الإبقاء على عزلتهم هو انعدام وجود مركز للبريد والبرق والصحف اليومية وسكة الحديد. لاشك بأن إسماعيل يعيش وحيداً (Jer. xlix 31).

على غرار حكمي إثرة وكاف، فإن إدارة الجوف هي في أيدي عبد العزيز بن رشيد المقيم في حائل، وهي مدينة على مسيرة ستة أيام من الجوف. ويمثله في الجوف زعيم عجوز ذو نفوذ كبير يدعى جوهر، سمعت عن شهرته قبل بضع سنوات. وهو، كما يقال عنه، رجل عادل، منفتح، كريم وحازم، كما أنه مرهوب الجانب وموضع احترام كل من يعرفه أو له علاقة معه. وهو أيضاً مسؤولاً عن الضرائب وعن إدارة بلدة تدعى سكاكا Sakaka على مسيرة ست ساعات شرق الجوف.

لم يسعفني الوقت ولا الظروف لزيارة هذا المكان المجهول الذي كنت متلهفاً لزيارته.

ولكوني أسهمت في تعريف القارئ بإيجاز بالجوف وأهلها، فسوف أعود إلى قصّتي. عند أحد المنحنيات الحادة في الطريق، أمكننا رؤية قلعة جوهر المهيءة بأبراجها الأربع الشامخة فوق زوايا الأسوار الخارجية<sup>(1)</sup>. كانت جماعتنا قد ذهبت في كافة الاتجاهات، وكنت أسير خلف خويخان. أشار بيده إلى الحصن قائلاً بأنه مقر لسكن جوهر زعيم العشيرة<sup>(2)</sup>. ثم تبعته حتى وصلنا إلى مربع كبير فيه العديد من الرجال جالسين تحت أشعة الشمس.

كان هناك منزل كبير في الجوار. ترجلنا عن الدواب وتم استقبال خويخان بقدر كبير من الترحاب، لكن أحدها لم يعرني انتباهاً. ثم دعينا إلى الداخل وطلب إلينا الجلوس. لقد كنت محط اهتمام الجميع، وكل شخص من الحاضرين طرح ذات السؤال: «مالذي يسعى إليه هنا؟ إنه نصراني». التزمت الهدوء ولم أنبس ببنت شفة، وتركت خويخان يجيب على جميع أسئلتهم، التي أجابهم عنها بطريقته الخاصة، مُجانباً الحقيقة في أكثر من نقطة.

بما أن الوقت كان رمضان - شهر العبادة والصوم بالنسبة للمسلمين، يصومون نهاراً ويفطرون مساءً - فلم يتم إعداد أيّ قهوة أو إحضار أيّ طعام. لم يطل جلوسنا حتى دخل علينا رجل ليخبرنا بأن جوهر قد سمع بنا وصولنا وأنه في طريقه إلينا.

في غضون دقائق قليلة حضر جوهر يرافقه ستة أو ثمانية من أتباعه، وهو زنجي قصير غليظ البنية، يرتدي ملابس مختلفة متعددة الألوان ويحمل بيده سوطاً غليظاً.

نهضنا جميعاً لاستقباله، ثم قدم له مجلس الشرف في صدر المضافة الكبيرة. أشار إلى خويخان كي يأتي ويجلس إلى يمينه، وأنا إلى يساره. جرى تبادل السلام والتحية بين الحاضرين والضيف وجرى طرح عدد من الأسئلة، التفت جوهر بعدها إلى قائلاً: «أنت نصراني، أليس كذلك؟».

(1) المقصود بها حصن الجوف المعروف باسم: مارد.

(2) نعود لنذكر: جوهر لا علاقة له بالعشائر، بل كان حاكم الجوف لصالح آل الرشيد في حائل.

قلت له: «نعم».

«مالذي جاء بك إلى هنا؟».

«للتعزف إلى الجوف وأهلها، وكذلك لأبيع كلمة الله إلى من يرغب بشرائها». «ألا تخشى الناس هنا، أو تخشاني؟».

«كلا؛ أنا على يقين بأن الله سيحفظني، وأعتقد بأن مكرورهاً لن يصيبني طالما أنا تحت حمايتك».

«هل سمعت عنني من قبل؟».

«نعم، في الكرك. كنت أسمع عنك أحياناً من البدو الذين كانوا يأتون لشراء الحبوب. إن لك سمعة طيبة في كل مكان، ويسرني أنني في الجوف تحت حمايتك».

«أخشى أن تُقتل إذا ما تجولت وحيداً في هذه الأنحاء. الناس هنا يكرهون النصارى، وقد يحاولون إيذاءك».

أجبته قائلاً: «سأحاول أن أبقى متيقظاً وأن لا أبتعد في تجوالي عن البيوت». ثم أمر أحد الرجال بأن يحضر لي طبقاً من أفخر التمور قائلاً: «نحن صائمون ولا نجرؤ على تناول الطعام. ولا بد أنك جائع؛ لاتشعر بالحرج؛ لكلّ منا دينه»<sup>(1)</sup>. ولقد كان أمامي من التمر ما يكفي لإطعام عشرين رجلاً.

ترددت في ذلك، لكنني لم أكن راغباً في تناول الطعام وحدي، وأنا على علم بأن كل شخص آخر كان صائماً. قلت له: «بوسعي الانتظار حتى وقت الغروب، كلنا في ذلك سواء».

لكنه ألحّ علي، فتناولت بضع حبات من التمر. وبينما أنا منهمك بتناول التمر نهض وغادر المجلس يتبعه مرافقوه وأكبر أبنائه ويدعى فالح. ثم استدعيت إلى الخارج حيث خاطبني فالح، وهو، والحق يقال، شاب في غاية اللطف والطيبة بحدود الخامسة

(1) هذا تصرف طيب ومتسامح، كان على فوردر أن يشيد به، لأن يكتفي بالذم.

والعشرين من العمر، قائلًا: «يقول أبي بأنه ينبغي ألا تبقى في المضافة مع الرجال. كونك نصراينياً فهذا سيدنسهم؛ أنت غير ظاهر، وعليك أن تتخذ لك ركنًا في الجوار تمام وتجلس فيه. كما أنه سيرسل ثلاثة رجال لمراقبتك عندما تخرج - وأحدهم سيلازmk داخل غرفتك». ثم أرشدني إلى ركن صغير ملاصق لدار المضافة بعمق حوالي عشرين قدماً وعرض أربعة أقدام وارتفاع سبعة أقدام، له مدخل بدائي بارتفاع أربعة أقدام، من دون أي قفل أول مغلاق يقيني من الدخاء في الليل أو النهار.

كانت أرضية الغرفة عبارة عن أحجار كبيرة مرصوفة في الطين جنباً إلى جنب. والمنفذ الوحيد لدخول الهواء والنور كان من الباب المعمى بمجموعة من الدرجات التي تؤدي إلى غرفة علوية، كانت بمثابة مقصورة منامةٍ للابن الأصغر.

جرى إدخال أمتعتي وركلتها في الداخل كيما اتفق. كان المكان مزرياً، كونه سبق أن استُخدم اصطلاحاً ومكتوباً للقمامة. لكنني كنت ممتناً لهذا الركن المستقل. ورغم أنه لم يرق إلى ما كنت أتوق وأتمنى، فإنه كان يمتاز بشيء من الخصوصية التي تمكنتني من الصلاة والتأمل، بعيداً عن أعين الفضوليين، كما أنه بات يسعني أن أقضي لياليًّا كما يحلو لي، دونما حاجة مني لفقد ملابسي بين الفينة والأخرى بحثاً عن كل ما هو مزعج ومنعّص من الهوام والحشرات المنتشرة بكثرة بين أركان جزيرة العرب، والتي سرعان ما تنتقل من شخص لآخر سعياً وراء كل ما هو طازج من مأكولات ومشرب. لقد نلت نصيبي من الضيوف والزوار بالرغم من عزلتي المفترضة.

دُعيت إلى تناول طعام العشاء في دار المضافة، وبذلت قصارى جهدى لإفراغ الطبق من محتوياته، كونه مضى على حوالي أربع وعشرين ساعة من دون طعام. وعلى الرغم من أوامر جوهر، دُعيت للانضمام للرجال حول النار ومشاركتهم القهوة.



### عرب شمال الجزيرة العربية

هؤلاء الثلاثة من أهالي بلدة الجوف في شمال الجزيرة العربية، كانوا حرساً يخلو مكتوفي في تلك الواحة الواسعة. وفي الواقع قد عيّتوه على ليراقبوا كل أفعاله ويخبروا بها الحاكم. والرجل في الجهة اليسرى قام بإثارة الفورة لدى العرب بعد أن انهارت القلعة وأصيب الحاكم.

نهضت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي وأمضيت غرة نهاري قرب أحد ينابيع المياه الكبريتية أغسل ملابسي. لقد دفع منظر الصابون بالبعض إلى مشاركتي الغسيل، وانتهاز فرصة استخدام الصابون لغسل أيديهم ورؤوسهم. تم استهلاك كمية كبيرة من الصابون في وقت قصير. بعد إفطار قوامه التمر من طبق عامر وضع أمامي في غرفتي الصغيرة آكل منه متى شئت، ارتأيت أن أقصد جوهر في قلعته. لم يكن هنالك أحد من الرجال في حرم المكان، ولم أتمكن من رؤية أية نساء. وهكذا انطلقت في طريقي وكانت في غضون خمس عشرة دقيقة عند سور الخارجي للقلعة. كنت أقوم بالدوران حولها بحثاً عن المدخل، عندما التقيت وعلى حين غرة بجوهر وهو منشغل بعقد مجلس تحقيقه اليومي. كان يعتلي منصة بارتفاع حوالي ثلاثة أقدام وكانته إلى جانبه. كان يجلس أمامه عشرات الرجال يستمعون إلى شتى القضايا المعروضة عليه للبت فيها. وعندما لمحني أو ما إلى بالقدوم إليه، ثم طلب مني الجلوس إلى جانبه. وبعد أن أنهى القضية التي كانت بين يديه، التفت إلى قائلاً:

«هل قدمت إلى هنا بمفردك؟».

«نعم».

«ألم تخش شيئاً؟».

«كلا».

«ألا تخشى أحداً على الإطلاق؟».

«بلى، أنا أخشي الله والشيطان» - وهو قول شائع بينهم.

«ألا تخشاني؟».

«كلا».

«لكن بوعي أن أرمي عنفك».

«نعم، أعرف أن بوعيك ذلك؛ لكنك لن تعامل ضيقاً على هذا النحو».

«كلا، لم أكن لأفعل؛ ولكن بوسعي أن أفعل ذلك بخويخان<sup>(1)</sup> - ملتفتاً نحوه -  
ولولا أنه صديق حميم من أصدقائي، على الإتيان بك إلى هنا معه».

بعدها، وقبل أن ييرح المكان، نادى على واحد من الرجال المكلفين بمرافقتي،  
وطلب إليه أن يرجع معي إلى المنزل ويأمر بإعداد الخبز من أجلي والتحقق من عدم  
تركي أحсс بالجوع أبداً «ولا تدعه يخرج وحيداً»، صرخ قائلاً ثم غادرنا.

أمضيتُ بعض ساعات هادئة مع مرافقتي، أقرأ وأكتب في مذكرتي، - وبعد ذلك طلب  
مني التوقف عن الكتابة فوراً، عندما قيل لنا بأن جوهر كان في طريقه إلينا. سرعان ما  
وصل جوهر ومعه جمهرة من الرجال. كانت قاعة المضافة الكبيرة تغضّ بالرجال،  
ثم استدعاي للمشول أمامه. طرح عليّ بضعة أسئلة عن بلدي وديانتي، فأجبته على  
أسئلته. ثم قال بأنه يريد الاطلاع على كتاب الله. وهكذا ذهبت وأحضرت له نسخة  
كبيرة من نسخ الإنجيل بالعربية، جرى جمعها وتغليفها في المغرب بزركسات مذهبة.  
كنت قد أحضرت هذا الكتاب خصيصاً له، لكنني لم أكن راغباً في أن أحرجه بقبوله  
مني.

أزلنا التغليف الخارجي عنه، ثم تناوله وقبله وتفحصه من الخارج وأقرّ بأنه كتاب  
جميل. وبعد ذلك فتحه ووضع على عينيه نظارات من الطراز القديم وشرع يقرأ في  
الكتاب. بفتحه لفصل سفر التكوين، قرأ الفصل الرابع والعشرين بالكامل، ثم أغلق  
الكتاب وطلب مني أن أعطيه إياه. قلت له: «عليك أن تشتريه مني»، «إنه يساوي ليرة  
إنكليزية، أي ما يعادل خمسة دولارات. لكنني سأبيعه لك بنصف ليرة». قال لي: «دعه  
حتى الغد». ثم أردف قائلاً: «أيها النّصراني، أريد أن أتحدث إليك». قلت: «حسنٌ؛ هيَا  
تكلّم». قال: «لقد قدمت إلى بلاد المسلمين، المؤمنين بمحمد رسول الله؛ لا يوجد  
هنا أيّ مسيحيين؛ لا نسمح لهم بالبقاء هنا؛ لقد علّمنا ديننا ألا نتخذ مثل هؤلاء أولياء.  
وعليّ أن أطلب منك التخلّي عن دينك وأن تصبح واحداً منا. فما هو جوابك؟».

---

(1) كلامه كما هو واضح من باب المزاح والمباسطة.

لقد كان موقفاً محراجاً. تذكرت أن إثارة غضب جوهر قد تستجلب عليّ متابعينا في غنى عنها، وتذكرت أيضاً أن ما لا يقل عن مئات الأميال تفصلني عن أقرب مسيحي، وكان بوسعي الاستنتاج بأن الموضوع بر茅ه كان قد جرى تحضيره.

أردف جوهر قائلاً: «أحمد الله أن ستة من المسيحيين الذين قدموا إلى هنا في أوقات مختلفة قد اعتقدوا الإسلام على يدي، إضافة إلى يهودي واحد أيضاً.

يوجد رجل يعيش هنا في الجوف كان نصراانياً من قبل، لكنه نذر نفسه لله والدين الحق. (هذا الأخير كان صادقاً، حيث أتني التقيت به أكثر من مرة فيما بعد، رغم أنه كان خجلاً من التحدث إلي).

انطق بشهادة أن «لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، وسرعان ما تغدو واحداً من المسلمين، وتكون من المقبولين عند الله وعباده».

كان الجميع بانتظار جوابي. وبعد مناجاة صامتة مقتضبة مع ربِّي كي يلهمني النطق بالحق، أجبته: «اسمع يا شيخ جوهر، سأطرح عليك سؤالين اثنين وأسمع منك جوابهما». «لابأس»، قال جوهر؛ «تكلم».

«أولاً، لو كنت مكانني في بلاد المسيحيين، ضيفاً على الملكة<sup>(1)</sup> (ولم أكن أعرف أنها توفيت)، وطلبت منك اعتناق المسيحية والتخلي عن عقيدتك، هل كنت لتفعل؟» أجاب: «أبداً، ولو ضربت عنقي».

«ثانياً، أيهما أفضل برأيك، أن ترضي الله، أو ترضي العبد؟» فكان جوابه: «أن أرضي الله». ثم أردفت قائلاً: «اسمع يا جوهر، أنا مثلك تماماً، أنا لا أستطيع تغيير ديني، حتى ولو ضربت عنقي مرتين، في حال كان لي عنقان، ويجب أن أرضي الله ببقاء نصراانياً». لو نطقت بالشهادة، فهذا سيرضيكم جميعاً، لكنها ستخرج من هنا

(1) يقصد الملكة فيكتوريا ابنة إدوارد ابن جورج الثالث، التي حكمت بين 1837-1901. وكان خروج فوردر في رحلته إلى الجوف في 13 ديسمبر من عام 1900 فلذا لم يدر بوفاة الملكة في 22 يناير 1901.

(وأشرتُ إلى فمي)؛ بينما سيقى قلبي نصراً، وهكذا، في سبيل إرضائكم، أكون قد أغضبت ربِّي بكوني أصبحت كاذباً ومخادعاً. لا أستطيع أن أقوم بما طلبه مني؛ هذا مستحيل؛ فما كان منه إلا أن نهض وخرج متساءً. أما أنا فقد انسحبت إلى غرفتي مسروراً.

لقد كان هجوماً على الروح، لا على الجسد، وحضرتني رغمَّاً عني تلك الآية من آيات الكتاب المقدس التي تقول: «سيحفظ الرب روحك». تردد الرجال إلى غرفتي بشكل متواصل تلك الليلة، وقالوا لي بأنني كنت في منتهى الغباء بعدم امثالي لطلبات جوهر.

قالوا لي: «غداً أول أيام عيد الفطر، وقد كان لاعتناقك الإسلام أن يشكل مناسبة عظيمة للفرح والبهجة».

شعرت بالسُّرور لحلول الظلام، كي أخلو بنفسي، ودعوت الله أن يمدّني بالعون والهدایة لما هو قادم من الأيام، ثم استلقيت على الحجارة لأنام، وأنا أحس بأن عقلي وجسدي ليسا بأحسن حال من الراحة والسكينة.

عند بزوغ فجر اليوم التالي، أيقظني رجال مدجّجان بالسلاح اقتحاماً علي خلوتي وهو ما يصرخان: «هيا انهض يا نصراً؛ لقد أرسلنا جوهر لإحضارك؛ تعال معنا بسرعة إلى الحصن». سألت قائلاً: «ماذا يريد مني»، «وأين التفويف بذلك؟» فأجاباني: «لا نعرف؛ ها هي ذي سيوفنا دليل على أننا نقوم بواجبنا».

ارتديت ملابسي بسرعة، متسائلاً عما سيحدث، معاهاً نفسي على التزام الهدوء وعدم التورّط في مجازفة غير ضرورية، نظراً لأن الناس في مثل هذه المناسبة يكونون في حالة من الانفعال، وقد يتسبب وجودي باستشارة مشاعرهم والتسبّب بإيذائي.

تبعد الرجلين إلى الحصن وشاهدت حشود الناس ميمّمة شطرها من كافة الاتجاهات. وعند وصولنا إلى ذات النقطة التي كنتُ فيها من قبل، شاهدت جوهرًا معتلياً سدّة مجلسه المرتفعة، وهو يرفل في حالة من الثياب المزركشة بشتى الألوان.

كان فرحاً مستبشراً وحياني بكل طيبة ومودة. بادلته التحية بمثلها، وتقدمت منه بالتهاني المعتادة في مثل هذه المناسبات. سرّه تهنتي له بالعيد، لكنه دهش لكيفية قيامي بذلك. أمرني بالجلوس إلى جانبه. كان هنالك المئات من الرجال والأولاد جالسين قبالتنا فوق الرمال تحت أشعة الشمس.

قال لي: «نحن نحتفل اليوم بمناسبة عظيمة هي عيد الفطر السعيد، وقد جئنا إلى الحصن الآخر لـأداء صلاة العيد؛ لماذا لا تأتي معنا وتتفرّج علينا كيف نؤدي صلاتنا وتتعرّف إلى كل ما نقوم به؟» أجبته: «نحن لا نعتقد بأن الناس يذهبون إلى الصلاة كي يتفرّجوا على ما يقوم به الآخرون؛ الصلاة بالنسبة لنا واجب مقدس، ونحبذ أن نؤديها بهدوء وعلى انفراد، وأعتقد أنكم لا تستحسنون مجئي ومراقبتي إياكم».

أعجبه جوابي وربت على كتفني قائلاً: «أنتم أناس أفضل منا، لو أنكم فقط تتقبلون الرسول كما نتقبله نحن».

ثم طلب من الخدم إحضار الأشياء المعدّة لوجبة إفطارهم.

فتحت البوابة المصقّحة الضخمة للقلعة حيث لمحت بداخلها مدعاً أثرياً صدائً. وفي غضون دقائق قليلة ظهر عدد من الرجال يحملون فوق سماط كبير منسفاً دائرياً بقطار حوالي أربعة أقدام عاماً باللحم و«التمّن»، نوع من الحبوب أدنى رتبة من الأرز، - المنكّه بالكاربي واللفل الأحمر والمقلبي بالسمن العربي جرى وضعه أمامنا، جوهر وأنا.

أعقبت المنسف تسعه مناسف أصغر حجماً وضفت بشكل دائري. ثم طلب مني جوهر الجلوس على الرمل، كما سبق وفعل، فامتثلت لأمره. نادى على خويخان ثم على شخص أو اثنين آخرين. ومع قوله بصوت جهوري: «باسم الله»، دعا الجميع إلى تناول الطعام، وبدأ الجميع طعامهم.

كان اللحم عبارة عن قطع كبيرة من لحم الجمل، التي سرعان ما آلت إلى قطع صغيرة تلوّكها أفواه القوم بشهية ونهم. لقد أذهلني مقدار اللحم الذي كان يتناوله

رجل واحد. أولاني جوهر عنایة خاصّة ومتميزة جداً، وما برح يدّس في يدي قطع اللحم، لاسيما شرائح الدهن، أللذ الأجزاء طعمًا، التي كان يختصني بها من القطعة الكبيرة وسط المنسف. قال لي: «هيا كُل يا نصراني؛ متنّ نفسك ولا تحرّمها؛ لا تشعر بالحرج». كان ما تناولته كافيًّا، ولكن كان علىٰ أن آكل. وقد سررت عندما نهض جوهر عائداً إلى مجلسه؛ فتبعته بسرعة.

تأمّلنا المدعوين وهم يتدافعون ويترافقون للحصول على نصيبهم من اللحم. لن أنسى هذا المشهد قط، ولكم تمّنّت لو أمكنني التقاط بعض الصور له، لكن ذلك كان ضرباً من المستحيل. قال لي جوهر: «انظر إلى هؤلاء الأجلاف، إنهم يأكلون بنهم؛ هل تفعلون ذلك في بلادكم؟» قلت: «كلا»، وضحكـت.

بعد أن فرّغت الأطباق عن آخرها، أعيـدت إلى الحصن، وانفضّ الجمع. تجولت بعدها قليلاً داخل الحصن، ثم تناولت القهوة مع الزعيم. نادى بعدها جوهر على أحد مرافقـي وطلب منه أن يعود معي إلى غرفتي ويبقـي معي، خشية أن يعمـد أحدهـم إلى إيدـائي.

علـمـت لاحقاً أنـ ما يعادـل حـمـولةـ ثلاثةـ جـمالـ منـ التـمـنـ تمـ طـبخـهاـ عـلـىـ نـفـقـةـ جـوـهـرـ لـولـيمـةـ الإـفـطـارـ، وـأـنـهـ يـقـومـ بـذـلـكـ كـلـ عـامـ. بـقـيـناـ دـاخـلـ الغـرـفـةـ لـحـوـالـيـ السـاعـةـ، ثـمـ قـلـتـ لـمـرـافـقـيـ بـأـنـيـ أـرـغـبـ بـالـذـهـابـ إـلـىـ بـسـاتـينـ وـحدـائقـ النـخـيلـ لـلـتـروـيـحـ عـنـ نـفـسـيـ. نـظـرـاـ لـإـنـشـغـالـ النـاسـ بـالـزـيـاراتـ وـتـبـادـلـ التـهـانـيـ، فـإـنـ أـيـاـ مـنـهـمـ لـنـ يـلـقـيـ لـيـ بـالـأـ، وـهـكـذـاـ تـسـلـلـتـ بـمـفـرـديـ خـارـجـ الغـرـفـةـ قـاـصـدـاـ بـسـاتـينـ وـحدـائقـ النـخـيلـ، مـسـتـغـلـاـ فـرـصـةـ الـهـدوـءـ وـالـسـكـينةـ لـالـتـقـاطـ بـعـضـ الصـورـ.

قبـيلـ المـغـيـبـ بـقـلـيلـ عـادـ جـوـهـرـ ثـانـيـةـ. كـنـتـ لـأـزـالـ فـيـ بـسـاتـينـ وـحدـائقـ النـخـيلـ عـنـدـمـاـ جاءـ إـلـيـ أـحـدـهـمـ وـأـخـبـرـنـيـ بـوـجـوبـ الـعـودـةـ. رـجـعـتـ عـلـىـ عـجـلـ لأـجـدـ دـارـ المـضـافـةـ الكـبـيرـةـ تـغـصـ بـالـرـجـالـ. وـعـلـىـ غـرـارـ المـرـاتـ السـابـقةـ، دـُعـيـتـ لـلـجـلوـسـ بـجـانـبـ جـوـهـرـ. كانـ الجـمـيعـ مـلـتـزـماـ الصـمتـ، وـلـمـ يـنـبـسـ أـحـدـ بـيـنـتـ شـفـةـ.

ثم خاطبني جوهر قائلاً: «يا نصراني، ما طلبته منك بالأمس كان عسير التنفيذ، وأعتقد بأن هنالك حتماً أموراً تجعل من الصعب عليك التحول إلى الإسلام، لكنني سأساعدك في ذلك. هل أنت متزوج؟».

«نعم».

«لديك أولاد؟».

«نعم، ثلاثة».

«هل لديك نقود؟».

«كلا».

«هل تعمل في التجارة، أو تدير متجر؟».

«لا، فالله يرزقني بما أحتجه».

«حسنٌ، اسمعني إذاً: إذاً ما أصبحت مسلماً، سأقدم لك أربع زوجات بدلًا من زوجتك، وفي وقت قريب سيكون لديك أكثر من ثلاثة أولاد. سأعطيك أيضاً جمالاً ونخيلاً ومالاً، تمكّنك من أن تعمل بالتجارة وتصبح ثرياً. سنعطيك منزلًا وكل ما تحتاج إليه إذاً ما أصبحت مسلماً مثلنا».

شكرته على عرضه السخي، لكنني أخبرته أن ليس بوسعي التحول عن عقيدتي لقاء كل ما يمكن أن يعرضه علي.

قام من مجلسه سريعاً وذهب إلى حصنه، وهو يتمتم: «بأنه كان يوماً مشئوماً ذاك اليوم الذي قدمتُ فيه إليهم، وأنني إذا ما بقيت في الجوف، فسوف يلحق بهم ضرر ما».

أرسل إلى الزعيم جوهر في ذلك اليوم ولده فالح، طالباً مني إعطاءه الإنجيل الذي سبق أن أطلع عليه. وهكذا، فقد أرسلته إليه.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، أتاني رجلان بهذه الرسالة: «لقد أرسلنا

جوهر لإخبارك بوجوب مغادرة الجوف في الحال؛ إذ لا يجدر بك البقاء هنا، كيلا يصيّبنا مكروره جراء وجودك بيمنا».

كان جوابي على الرسالة: «بلغـا جوهر السلام والتحية وأخبرـاه بأنـي لا يمكنـ أن أرحلـ وحـيدـاً؛ لا بدـ لي منـ رفيـقـ أـرـتـحلـ بـصـحبـتـهـ.ـ عـنـدـمـاـ يـعـودـ خـويـخـانـ،ـ سـأـرـتـحلـ بـرـفـقـتـهـ.ـ لـقـدـ سـبـقـ وـدـفـعـتـ لـهـ أـتـعـابـ رـحـلـةـ الإـيـابـ،ـ وـهـكـذـاـ لـنـ يـكـونـ بـوـسـعـيـ الـذـهـابـ مـعـ أيـ شخصـ آخرـ».

عاد الرجالـ وـأـعـلـمـاـ جـوـهـرـاـ بـمـاـ قـلـتـهـ.ـ لـكـنـهـمـاـ سـرـعـانـ مـاـ رـجـعـاـ إـلـيـ قـائـلـينـ:ـ «ـيـقـولـ جـوـهـرـ بـأـنـ عـلـيـكـ أـنـ تـغـادـرـ فـيـ الـحـالـ،ـ لـاـ يـمـكـنـكـ الـبـقـاءـ هـنـاـ».ـ قـلـتـ لـهـمـاـ:ـ «ـإـذـهـبـاـ إـلـيـ جـوـهـرـ وـأـخـبـرـاهـ بـأـنـ إـذـاـ مـاـ كـانـ مـصـرـاـ عـلـىـ وـجـوـبـ مـغـادـرـتـيـ فـيـ الـحـالـ،ـ فـلـيـرـسـلـ لـيـ جـمـلـاـ وـبـعـضـ الرـجـالـ يـرـافـقـونـيـ إـلـىـ إـثـرـةـ،ـ الـمـكـانـ الـذـيـ قـدـمـتـ مـنـهـ؛ـ وـإـذـاـ لـمـ يـوـافـقـ عـلـىـ ذـلـكـ،ـ فـسـأـبـقـىـ أـنـتـظـرـ هـنـاـ حـتـىـ عـوـدـةـ قـافـلتـنـاـ».

سرـعـانـ مـاـ عـادـاـ إـلـيـ جـوـهـرـ نـاقـلـينـ إـلـيـ رـسـالـتـيـ،ـ وـعـادـاـ إـلـيـ بـالـرـدـ التـالـيـ:ـ «ـيـقـولـ جـوـهـرـ أـنـ بـوـسـعـكـ الـبـقـاءـ،ـ شـرـطـ أـلـاـ تـبـرـحـ غـرـفـتـكـ.ـ إـذـاـ مـاـ تـنـاهـىـ إـلـىـ سـمـعـ السـلـطـانـ<sup>(1)</sup>ـ فـيـ الـعـاصـمـةـ نـبـأـ وـجـوـدـكـ هـنـاـ،ـ فـقـدـ يـعـاقـبـ جـوـهـرـ عـلـىـ سـمـاـحـهـ لـكـ بـالـبـقـاءـ».ـ لـقـدـ شـكـلـ هـذـاـ الرـدـ مـصـدرـ اـرـتـياـحـ كـبـيرـ بـالـنـسـبـةـ لـيـ،ـ لـكـنـيـ رـأـيـتـ بـأـنـ الـحـذرـ وـاجـبـ رـغـمـ كـلـ شـيـءـ.

\* \* \*

(1) يقصد به الأمير عبد العزيز بن متعب آل الرشيد، حاكم جبل شمر في حائل.

## الفصل العشرون

### كارثة كادت تكلفني حياتي

بعد انقضاء أيام قليلة على الأحداث المدوّنة في الفصل السابق، ولدى جلوسي قرب النار في دار المضافة مع حوالي عشرين رجلاً، دخل علينا على حين غرة رئيس الجماعة، وهو رجل دين متشدّد، وأنهضنا بخطبة لاذعة زاخرة بعبارات البغض والكراهيّة للعقيدة المسيحية، مكررًا كل ما أورده القرآن بحق المسيحيين، وذكر السامعين بأن وصايا نبيهم كانت تحضّ المؤمنين على استئصال شأفة الكفار حيثما ثقفوهم. كانت الخطبة برمتها موجهة ضدي، لكنني لم أعرها اهتماماً. ثم غادر الخطيب المكان، وانسحبت أنا إلى زاويتي المعتمة، وابتلهلت لله أن يمدني بالعون والهداية.

\* \* \*

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، جاء إلي فالح طيب القلب قائلاً: «لا تخف يا أبا جريوس<sup>(1)</sup> (جورج)، لن يلحق بك أيٌ مكروروه إذا ما تمكنت من مساعدتك. لا تشر غضب الناس هنا. البعض منهم يحبونك، لكن البعض الآخر من يجهلونك، لا يحبونك».

---

(1) هذه التسمية اشتراق من اليونانية: جورجيوس، تشيع لدى المسيحيين في بلاد الشام، ولفظها الدقيق: جريوس.



### عبور الصحراء

تم التقاط هذه الصورة من على ظهر الجمل أثناء مسيرة الكاتب، وهي تظهر قافلة في الصحراء. وعند آية إشارة خطر تجمع الجمال سوياً وتanax. والعرب يتبعون طريقهم عبر هذه التهول الخالية من الدروب برصد الشمس والتنجوم.



### جمع الملح في الصحراء

يوجد في شمال الجزيرة العربية العديد من اليابيع المالحة. ومنها يحصل العرب على كميات من الملح البلوري الذي يقايسون به التجار على التمتع والملابس وأحياناً المال. وكيسان من الملح، أي حمل جمل، يساويان حوالي ثلاثين ستة.

قمت في ذلك اليوم، على غرار الأيام السابقة، ببيع وتوزيع العديد من نسخ الكتاب المقدس للكبار والصغار ممن ثبت لي أنهم يجيدون القراءة. عند العصر، حضر إلي فالح ومعه ثلاثة رجال قال بأنهم من حائل، العاصمة. كانوا بقصد العودة للتو، لكن كلاً منهم كان يريد كتاباً يأخذه معه. هل أعطي نسخة لكل واحد منهم؟ حمدت الله على هذه الفرصة السانحة التي مكتنني من إيصال كلمة الله إلى حائل، لا سيما وأنني لا أستطيع بلوغها بنفسي. وهكذا قمت بإخراج ثلاث نسخ مجلدة تجليداً فاخراً وقدمتها للرجال الذين غادروا على الفور في طريقهم إلى مقر الحكومة في وسط جزيرة العرب.

قد نتعرف بعد بضعة أيام إلى الانطباع والأثر الذي خلفته هذه الكتب الثلاثة داخل معقل الإسلام هذا<sup>(١)</sup>.

في وقت متاخر من عصر ذلك اليوم، كنت أجلس وحيداً في غرفتي عندما وقع حادث مشؤوم للغاية كاديكلعني حياتي، وأسهم أكثر من أيّ أمرٍ آخر في تأليب غالبية عرب إقليم الجوف ضد المسيحيين.

كنت قد ذكرت آنفاً بأن جوهر، الزعيم، قد اتخذ مقراً لسكناه الحصن الأثري عند الطرف الجنوبي لبلدة الجوف. لهذا الحصن المبني بالطين والطوب والحجارة ثلاثة أسوار، وعلى كل زاوية من زوايا السور الخارجي يشمخ برج شاهق بارتفاع حوالي أربعين قدماً.

كان مقر سكن جوهر يقع في نقطة المركز من هذه الأسوار الثلاثة المخصصة لأغراض دفاعية.

كانت صبيحة ذلك اليوم الذي أتحدث عنه عاصفة ممطرة، حيث كانت الرياح الشديدة تهبّ من جهة الشرق. وكانت مياه المطر قد بللت الجانب المكشوف من أحد الأبراج، ونظرًا لأنّه كان مبنياً بالحجارة الطينية فقط، فقد تداعى وانهار تحت

---

(١) وما الذي ستخلفه؟ يتكلم فوردر وكأنه اكتشف كروية الأرض.

وطأة البلل الشديد والرياح العاصفة.

لسوء الحظ، فقد انهار البرج إلى الداخل وليس إلى الخارج، وما زاد الأمور سوءاً أنه سحق الغرفة التي كان جوهر جالساً فيها يقرأ القرآن، مما أدى إلى دفن حاكم الجوف، الذي هو أكثر رجال الجوف مهابة وقدراً، تحت كومة من الركام.

تناهت إلى سمعي وأنا جالس وحيداً في غرفتي أصوات الصياح والعويل في الخارج. هرعت صوب البوابة الخارجية فشاهدت الرجال والفتیان يركضون باتجاه الحصن، وتساءلت عن الحدث الجلل الذي تسبب بكل هذا القدر من المهرج والمرج في الجوف. سرعان ما تبيّنت حقيقة الأمر، لكنني آثرت البقاء حيث أنا.

بعد دقائق، جرى إنقاذ جوهر وسحبه من تحت الركام؛ وسرعان ما تبيّن بأن إحدى ساقيه كانت مكسورة وأنه تعرض لرضوض وجروح بليغة. وما كادوا يمدّدونه على الرمل وسط باحة الحصن، حتى علق أحدهم قائلاً: «إنه فعل ذلك النصراني؛ لا بد أنه كان في الخارج ونظر إلى ذلك البرج، ما تسبب في انهياره؛ إنها بداية حوادث الشؤم وسوء الطالع».

كانت كلمات ذلك الشخص بمثابة الشرارة التي أصابت برميل البارود، وسرعان ما وافقه الجميع الرأي بأنني السبب وراء ذلك. ثم صاح الجميع: «لنقتل ذلك النصراني». وعندما وقفت عند مدخل البوابة شاهدت الحشد الغاضب حول الزاوية قادماً باتجاهي، وسمعت صيحة: «اقتلوه، اقتلوه، النصراني، النصراني!» كانوا مسلحين بالهراوات والخناجر وبعض الطبنجات.

أخذوا يقتربون مني أكثر فأكثر، لكنني لم أهرب؛ لأن هروبي كان يعني موتاً محققاً وإدانةً صريحة لي بأني مذنب. وعندما باتوا على مسافة ما يقرب من ثمانين ياردة مني، تدخلت العناية الإلهية. إذ تقدم ثلاثة رجال من ورائي ثم توازعوا مواقعهم الدفاعية أمامي وهم يصيحون وطبنجاتهم في أيديهم: «لن يقترب أحد من هذا النصراني». تسمر الحشد الغاضب في مكانه، ثم تمت إعادتي بهدوء إلى غرفتي، مع بقاء الرجال الثلاثة عند الباب.

سرعان ما تبَدَّدَ الجمع، ثم دخل علي مخلصيَّ الثلاثة، حيث شكرتهم على شهامتهم ومروءتهم، ثم سألهُم عَمَّا دفعهم لفعل ما فعلوه. كان جوابهم مقنعاً: «لقد كنا في الهند وتعرَّفنا إلى النصارى هناك، وعرفنا بأنَّهم أناس مسالمون لا يسعون إلى الإضرار بأحد؛ وتعرَّفنا كذلك إلى تأثير الحكم البريطاني في تلك البلاد وفي مصر، ولن نتردد أبداً في مساعدة النصارى ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً؛ ونتمنى لو يأتي الإنكليز إلى هنا. إنَّ أهالي الجوف هؤلاء جاهلون بنمط حياة النصارى وكان يمكن أن يقتلوكم لو لا مجئنا للدفاع عنك».

بعدها حضر مضيفي وصديقي الطيب فالح كسير القلب دامع العينين حُزْنَاً على ما أصاب والده. قال لي: «لا تخشَ شيئاً يا أبا جريوس (جورج)، أنا أعلم أنَّ لا يد لك فيما حصل؛ لقد كان أمراً مقدراً لا مناص منه؛ أتمنى لوالدي أن يتخطي هذه المحنَّة بسلام». ثم حضر ولداه الآخران وجلسا معي حيث بذلت ما بوسعي لمواساتهم.

في اليوم التالي لرمَّت غرفتي ولم أبارِح محيط المكان. قال لي فالح بأنَّ هذا أفضل. مضى يومان دون أن يردني أي خبر عن مكان وجود شيخي العجوز خويخان، وتساءلت عما ألمَ به. عند المساء، جاءني أحد الرجال قائلاً: «لقد أرسلني خويخان لإحضارك إليه؛ إنه موجود في أحد البيوت في الجانب الآخر من المدينة». وهكذا نهضت وتبعَت الرجل، مصدقاً ما قاله لي.

كان المكان على مسافة نصف ساعة سيرًا على الأقدام. دخلنا المنزل المقصود، لكنني لم أعثر على أي خويخان هناك. سألت عنه، فأجابوني بأنه سيعود عند الغروب.

لكن الشمس غربت، ولم يحضر خويخان. أخبرتهم بأنَّي أريد العودة إلى غرفتي، لكنني توجست خيفة من ملامح وتصيرفات هؤلاء الرجال. قدّموا لي بعض التمر وطلُب إلى تناوله، قائلين بأن العشاء سيأتي لاحقاً.

تناولت بضعة حبات من التمر ثم تظاهرت بأنَّي أريد العودة، لكن الجو كان مظلماً والرجال لم يسمحوا لي بالذهاب. أصررت على الذهاب إلى خويخان أو أن يأتي هو

إلي، لكنهم حملوني على الجلوس مرة أخرى. عند حوالي العاشرة قدّموا لي طبقاً من الطعام وضعوه أمامي، ثم طلب إلي تناول الزّاد. لم أعرف ماهية ذلك الطعام. تذوقته، لكنني لم أستسغه، ورفضت تناوله. وحيث أن أحداً من الحاضرين لم يبادر إلى مشاركتي الطعام، فقد ساورني الشك في أنه مسموم. وأخيراً أخذ من أمامي دون أن يُمسّ، ثم سألوني إن كنت راغباً بالنوم. قلت: «كلا».

لقد خمنت بأن الرجال يضمرون لي أمراً ما، وأنهم استدرجوني بعيداً إلى هناك بحجّة طلب الشيخ خويخان رؤيتي. لم يغمض لي جفن طوال تلك الليلة. طلبوا مني عدة مرات أن أخلد للنوم، لكنني رفضت. وأخيراً بزغ الفجر؛ وبينما كنت أتهيأ لمعادرة هؤلاء الرجال، لمحت عند الباب أحد مرافقي الثلاثة وأفضلهم، فطار صوابي فرحاً. قال لي: «لقد افتقدتك هذا الصباح وانطلقت أبحث عنك؛ إياك أن تخرج وحيداً هكذا مرة أخرى». وعندما رجعت، وجدت خويخان هناك جالساً قرب النار. قال بأنه لم يرسل في طلبي قط؛ وهكذا لقد كان شرّكاً أعد للاستفراد بي وقتلني، ولكن فألمهم خاب.

مضى على وجودنا في الجوف بضعة أيام، قمت خلالها ببيع وتوزيع عدد لا يأس به من نسخ الكتاب المقدس.

في صباح أحد الأيام، وبينما كنت أقوم بفتح باب غرفتي، وجدت معظمها مكدسة فوق بعضها البعض في كومة، حيث أنه قد تمّت إعادة كل الليل. وضعتها في الداخل، وأنا أدرك بأنني إذا ما التزمت الهدوء، فسوف أتبين السبب الذي حدا بهم إلى إعادة كل الأشياء. ثم سرعان ما جاءني فالح قائلاً: «عليك ألا تغضب لإرجاع الكتب؛ فقد أعطى أبي الأوامر بإعادتها؛ إنه يقول بأن فيها فائلاً سائلاً». سأله عن هذا الفأل السيء. فأخبرني بأنه في الترتيلة السابعة من المزمور الثاني 2nd Psalm, verse 7: «أنت ابني، فقد أنجبتك في هذا اليوم». قلت له: «كثيرون سيسعدهم اقتناء هذه الكتب، ولكن لماذا لم يرجع والدك نسخته بالذات؟» فكان جوابه الذي سرّني سماعه: «إنه يريد الاحتفاظ بها وقراءتها».

أخبرني خويخان في ذلك اليوم بأنّ علينا أن نغادر في الحال. ثم قال: «كان بوّدي

أن أبقى شهراً بحاله، لكننا سنرحل في الحال، من أجلك». في اليوم التالي رجع الناس مطالبين بكتبهم. ذكرتهم بما قاله جوهر، فكان جوابهم: « فعلنا ما أمرنا به وأرجعونا الكتب؛ لكننا لم نؤمر بعدم استرجاعها ثانية. أعدها لنا وسوف نعمد إلى إخفائها حتى ترحل عن المكان ». وهكذا أعدت لهم الكتب ولم أعرف عنهم شيئاً بعد ذلك.

توجهت بعد ظهر ذلك اليوم لوداع جوهر، حيث أننا كنا عازمين على الرحيل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

طلبَ مني الانتظار عند الباب ريثما يبلغونه رغبتي في لقائه. ثم سُمح لي بالدخول لأرى الرجل العجوز ممدداً في سريره على الأرض الطينية في زواية من زوايا إحدى الغرف الكبيرة.

كان العديد من الرجال جالسين معه. لم يُسمح لي بالاقتراب منه؛ وهكذا فقد قلت له من مدخل الباب: «أنا راحل غداً وقد جئت لاقول لك وداعاً وأشكرك على لطفك وكرمك؛ ليمن الله عليك بالسلام والطمأنينة والعافية التامة ». ثم أمسك أحدهم بيدي ورافقني إلى خارج الحصن. وكان ذلك آخر عهد لي بجوهر، أبو عنبر، الرجل الأكثر مهابة واحتراماً في بلدة وإقليم الجوف. ولم أسمع عنه خبراً قط منذ ذلك اليوم حتى الآن<sup>(1)</sup>.

لعلي سأعود في وقت ما من المستقبل إلى تلك الأنجاء<sup>(2)</sup>؛ فالتجارب السابقة تشجعني على ذلك، يحدوني الاعتقاد بأنني سأبني بلاً أفضل في زيارتي الثانية.

(1) ليست هناك في المصادر المعترضة إشارة إلى تاريخ وفاة جوهر، لكن المتعارف عليه أنه حكم الجوف منذ عام 1295 إلى 1318 هـ (أي 1877 إلى 1900)، ومعنى ذلك أن ولايته اختتمت في السنة التي زار فيها فوردر الجوف وانهار برج حصن مارد، فربما يعني ذلك أنه توفي عندها، وحكم الجوف بعده فيصل الحمود الرشيد. وقبل جوهر كان حاكماً الجوف شريدة بن فهد الفريخ الغيفيلي، حامل راية ابن رشيد. هذا ولقد غالب على جوهر لقب: جوهر العنبر، نسبة لاسم أبيه الذي كان أحد عبد الله بن رشيد.

(2) لم يحصل هذا الأمر على الإطلاق، وثبت فيما بعد أن أفشل محاولات التبشير كانت هي التي استهدفت جزيرة العرب، وخير مثال على ذلك رحلتا زويمر وفوردرا.

كنت قد أخذت لنفسي قسطاً من الراحة في تلك الليلة، حيث تم إيقاظي باكراً من قبل رجالٍ كانوا يصيرون على المسافرين في الخارج. وعندما نهضت وفتحت الباب وجدت رجلين يحملان مصباحاً صغيراً ومعهما كيس فيه شيء ما. اندفعا إلى داخل الغرفة ووضعا حملهما على الأرض قائلين: «لقد أرسل لك جوهر هذه الزوادة من التمر كي تستعين بها في طريق العودة. قد لا يتمكن من رؤيتك في الصباح، لذلك فهو يبلغك تحياته ويitمنى لك رحلة موفقة».



### شجرة نخيل تحمل تمراً ناضجاً آن اجتناوه

يعادل التمر لدى العرب الخبر لدى الأوروبيون. وله كثير من الأنواع والأحجام. والعذق المتدلي من النخلة تؤلف حملات ثقيلة يوء به رجل. ولا يتم إضاعة أي جزء من النخلة، حيث يصنع منها: الجبال، والحقائب، والسلاسل والألواح. وحتى نوى التمر يستقرون به، وبعد أن ينفعوه يصبح طرياً ويجعلونه طعاماً جيداً للماشية.

قاموا بإفراغ التمر - حوالي 75 كيلوغراماً - في كيس الخُرج خاصتي، ثم قدّما إلى قفةً كبيرة من التمر قائلين: «هذه من فالح أيضاً؛ إنها هدية لزوجتك وأطفالك في القدس؛ يجب أن تقدم لهم الهدية مقرونة بحملٍ من التحيات».

استيقظت في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي لأتبين بأن الاستعدادات لبدء الرحلة كانت جارية على قدم وساق. وقبل الانطلاق، كان رفيقي خويخان وأنا قد تلقينا ست دعوات على الإفطار، قمنا بتلبيتها جميعاً، حيث كنا نأكل نذراً يسيراً في كل بيت. لدى عودتنا إلى مقرنا، كانت الجمال المحملة عند الباب على أهبة الاستعداد للانطلاق. كان فالح حاضراً، ومعه كيس من الخبز الطازج قدّمه لي قائلاً: «سيُقيتك لبعضة أيام ويعينك على مشاق سفر الصحراء».

جرى تبادل تحيات الوداع، ووسط خليط من مشاعر الفرح والأسف انطلقتنا على بركة الله. كان فالح لطيفاً للغاية معي طوال فترة وجودي هناك. في كل يوم عند حوالي العاشرة صباحاً كان يأتي عندي أو يرسل إليّ للصعود عنده على السطح فوق ثلاثة طوابق ويقدم لي وجبة إفطار شهية قوامها الخبز ودبس التمر والزبدة البلدية<sup>(1)</sup> والحليب، وهي أفضل المنتجات التي بوسع الجوف تقديمها. كان يقول لي دوماً: «كل واستمتع بما تأكل؛ فهذه وجبة لا نقدمها إلا للخواص من ضيوفنا؛ أنت صديقي، وعليك أن تمالحنا».

كان يجلس إلى جنبي ويشاركني وجبة الطعام، غير وجل من مدّ يده إلى نفس الطبق كما يفعل النصارى. قال لي بأنه ذهب إلى مكة مرتين، كما أنه لاحظت التزامه الشديد بمواعيد الصلاة.

عند وصولنا إلى طرف المدينة الشمالي، وجدنا القافلة بانتظارنا. ترجل خويخان ثم قبل الرجال واحداً واحداً، وبعدها أعطى الأمر بالانطلاق. ومع الهاتف والدعاء باسم الله وإبراهيم ومحمد باليمن والتوفيق، ألقينا تحية الوداع على بلدة الجوف وحدائقها الغناء وبساتين نخيلها الوارفة.

---

(1) يقصد فوردر السّمن.

## الفصل الحادي والعشرين

### أوقات مثيرة في الصحراء والمدينة

أربعة أيام قضيناها مرتحلين فوق رمال الصحراء دون العثور على قطرة ماء واحدة. توقعنا أن نعثر على مياه سطحية، لكن خاب أملنا. وبعد ساعتين من مغيب شمس اليوم الرابع، عثروا على الماء في طريقنا داخل مجمع صخري كبير<sup>(1)</sup>. كان الماء آسناً وعكرًا نتيجة تخفيض الجمال واستحمامها ووقفها فيه في أثناء النهار، وقبل أن نتمكن من ملء قرباناً اندفعت جمالنا إلى الحوض لتزيده اتساخاً وتعكيراً. حمدنا الله على هذه النعمة وشربنا حتى ارتواينا، واستخدمنا بعضاً منه لإعداد الخبز.

في اليوم التالي، وبينما كنا سائرين، تداعى جملي من تحتي وجثا على الأرض رافضاً النهوض ثانية. ناديت على بعض الرجال الذين لدى رؤيتهم للدموع تنهمر من عيني هذا الحيوان، أخبروني بأن «جملك ثملٌ ولا يستطيع السير، كونه في حالة دوار». لعله ثملٌ من أعشاب كان يقتات عليها وأوصلته إلى هذه الحال<sup>(2)</sup>. أحضروا بعض الماء ثم رطبوا بعض الأعشاب وعقدوها على رأسه، ثم شرعوا في إعداد شراب من بعض حبات التمر ومزجواه بالملح والطحين.

وبعد الانتهاء من تحضير هذه الوصفة، قاموا بفتح فم الجمل وسكب الشراب

(1) يُعرف ذلك بالتعبير البدوي: حوية.

(2) نعم هذا أمر وارد، فشّمة في الشمال نوع من الأعشاب يمتلك خاصيّة مخدّرة، إذا أكلها الإنسان يتخدّر كلياً. وجرت عادة الرّعيان أن يحوّلوا عنها الحلال عندما تصادفهم.

بداخله. وفي غضون نصف ساعة توقف انهمار الدموع، ثم صحا الحيوان ونهض من مكانه وتابع المسير.

عشنا في تلك الليلة على بركة من المياه أسوأ من سابقتها فأنخنا رحلنا في موقع غير بعيد عنها. في اليوم التالي تملكتنا الذعر لرؤيه رجل من بعيد قادم باتجاهنا. انطلق بعض رجالنا للقاء، غير مدركين إن كان صديقاً أو عدواً؟ ثم عادوا بالرجل المسكين معهم. كان الرجل عاجزاً عن الكلام. أشار بيده طالباً جرعة ماء سرعان ما ناولوه إياها. ثم أخبرنا بأنه كان واحداً من تسعة رجال انطلقوا في رحلتهم عبر الصحراء مع جمالهم ومعهم مؤونتهم من الطعام والشراب، لكنهم وقعوا في أيدي مجموعة من قطاع الطرق الذين سلبوهم كل شيء وتركوهم على مدى ثمانية أيام دون طعام أو شراب. كان رفاقه مستلقين بلا حول ولا قوة فوق الرمال في مكان ليس بعيد. كانوا قد شاهدونا من بعيد، وكونه الأقوى بينهم، فقد تبعنا إلى هنا. قدمنا له قربةً من الماء وبعض الطحين والتمر ثم تركناه لمصيره المقدر.

في تلك الليلة، عندما أنخنا رحلنا في واد مليء بالنباتات العشبية والحجارة، ألمت بنا حالة من الهلع، لكنها انقضت بسلام.

كان الرجال جالسين حول النار حينما سرت شائعة بأن أصواتاً سمعت قادمةً من جهة الوادي. لاذ الجميع بالصمت، وفعلاً تناهى إلى مسامعنا بوضوح في سكون الليل أصوات رجال يتحادثون فيما بينهم. استعدَّ من كان منا يحمل سلاحاً لهجوم محتمل، وجرى إطفاء النيران الموقدة بسرعة بـلقاء الرمل عليها. كنا مستعدين لأي طارئ. وحيث أن أحداً لم يتقدم باتجاهنا، فقد خرج بعض من رجالنا لاستطلاع حقيقة الأمر. سمعنا دوي إطلاق نار، وقدرنا بأن ما سمعناه من أصوات كانت أصواتاً عدوة. ولكن في أعقاب إطلاق النار انطلقت صيحة الترhab: «إنهم أصدقاء! أصدقاء!» وفي غضون عشر دقائق عاد رجالنا ومعهم اثنا عشر رجلاً من الرجال الذين لورأيتهم لوَّلَيت منهم هرباً ولمْلأَت منهم رعباً.

نظرة واحدة إليهم كانت كافية لإدراك أنهم قد عانوا الأمرين من الجوع والإرهاق.

أعيد إيقاد النار وببدأنا الحديث من جديد. قدّمنا القهوة للضيف العدد؛ ثم حدثونا عن قصتهم، التي كانت بإيجاز كما يلي: كانوا قد انطلقوا من الجوف قبل أسبوعين قاصدين دمشق بحثاً عن عمل. لم يكن معهم أية جمال، وكان معهم من المؤونة ما يكفيهم طيلة الرحلة، في حال سار كل شيء على ما يرام، وكان معهم كذلك قرب لحمل الماء إن عثروا عليه، حسب اعتقادهم.

كانت قربُهم قاسية ومتشققة، ما يشكل دليلاً على انقطاعهم الطويل عن الماء.

نظر الجهلهم بمسالك المنطقة، فقد انحرفو عن الطريق الصحيح وتابهوا في الصحراء. وبعد أن نفدت مؤوئتهم من الطعام والشراب، هاموا على وجوههم على مدى خمسة أيام، تحت وطأة الجوع والظماء والإعياء. ثم وقعوا في ذلك اليوم على آثار أقدام قافتلنا، ثم اقتدوا الأثر إلى أن اهتدوا إلى مكان نزولنا.

قمنا بإعداد الخبز لهم، وأثناء خبزه، عمدت إلى اقطاع كمية من التمر الذي كان بحوزتي وتقديمه لها، فكانوا لي من الشاكرين. في صباح اليوم التالي ارتحلوا معنا، وعند ظهرة اليوم العاشر على انطلاقتنا من الجوف، تراءت لنا على البعدأشجار نخيل إثرة من جديد. كان قد مضى على غيابنا ثلاثة وثلاثون يوماً، وليس خمسة وثلاثين، حسب تقدير خويخان.

كان أول مالفت انتباхи عند وصولنا إلى إثرة هو غياب الخيمة التي كانت تؤوي الرجل المريض. أعتقد بأنه قد توفي وتمت إزالة الخيمة. وبعد استراحة بضع ساعات، جاء إلى خويخان، الرجل الذي أوفى بشرط العقد الذي بيننا لقاء الليرات الذهبية الأربع بكل أمانة وصدق، ثم تنحى بي جانباً بعيداً عن دار المضافة وأشار إلى كوخ صغير مبني من طوب اللبن له باب بارتفاع حوالي ثلاثة أقدام وعرض قدمين، قال بأنه سيكون مقر إقامتي طيلة فترة وجودي في إثرة<sup>(1)</sup>. أخبرته بأنني أرغب في الرحيل بأسرع ما يمكن، فقد مضت شهور عديدة على فراقي للأهل والأصدقاء دون أي علم

---

(1) هناك من يكتب الاسم اليوم: إثري، ولقد آثرنا كتابته بتاء مربوطة.

أو خبر فيما بيننا. لم تكن هنالك أية فرصة. توجهت إلى الكوخ؛ لقد كان بحالة مزرية من القذارة والابتذال. كان هنالك ثلات جرار فخارية وعدد من الصناديق الخشبية العتيقة تحوي بداخلها كمية من التمر البائد، طلب مني أن آكل منها ما أشاء. كانت طبقة الغبار فوق أرضية الكوخ بعمق بضعة إنشات. حملت كيساً الخرج خاصتي إلى هناك ثم اتخذت لي مجلساً فوق الأرضية المغبرة. حل المساء، ثم ناولوني آنية من الماء وقليلًا من الخبز. ولم يأتوني بأية إصابة. وهكذا فقد خرجمت أبحث عن خويخان ثم طلبت منه أن يؤمن لي مصباحاً وفراشاً أو غطاءً ما أضطجع عليه وأتدثر به، فلم يُصر إلى تلبية طلبي؛ ثم طلبت إلى العودة إلى مكانني، فامتثلت لطلبهما.

نظرًا لأنني كنت في حالة من التعب والإعياء، فقد اضطجعت وسط الغبار متخذًا من أحد أحجار الطين الكبيرة وسادة، في محاولةٍ مني للنوم؛ لكنني سرعان ما تبيّنت بأنني لم أكن وحيداً. لقد كانت الهوام والحشرات الزاحفة في كل مكان. كنت أحس بها فوق وجهي ويدي. نهضت من مرقدي وأشعلت واحداً من أعواد ثقابي الشمينة، وإذا بي أمام حشد من الحشرات الزاحفة من كافة الأنواع والأشكال، ومن ضمنها العقارب والسحالي. الحال لم يكن مشجعاً، ولم يكن أمامي سوى الأرق والترقب، بانتظار بزوغ الفجر.

وأخيراً بزغ الفجر، وتوجهت من فوري إلى خويخان طالباً منه تأمين عودتي إلى وطني. لم أكن لأبقى في ذلك الكوخ الذي خصّني به. قال بأنه مسافر في الاتجاه ذاته في خلال ثلاثة أو أربعة أيام، وأننا سنرتاح معاً. أخذني إلى بيته وطلب إلى زوجته أن تعداد لي طعام الإفطار. ثم أخذت أختلط بالرجال من أبناء المنطقة، مستفسراً إن كان أيّ منهم يوافق على مرافقتي إلى عمان، في رحلة تستغرق ستة أيام. كان جوابهم واحداً: «نريد ثلاث لياراتٍ إنكليزية لليوم الواحد (ما يعادل خمسة عشر دولاراً)، وسوف ننقلك إلى عمان». لكنني سرعان ما تبيّنت بأن الجميع قد اتفقوا على تسعيرة موحدة أدفعها لأيّ واحد منهم أتفق معه على ذلك.

في كل يوم من الأيام الأحد عشر التي قضيتها هناك كنت مقيداً بعناد هؤلاء الناس

وقدوة عواطفهم. كنت أشاهد في كل يوم قوافلً عديدةً من الرجال تغادر شمالاً وغرباً. لو أنهم تكرموا عليّ بجمل للركوب، لكنني ارتحلت معهم ربما؛ لكنهم كانوا يسافرون راجلين. عقدت عرى صداقة مع أحد الرجال ممن، على ما أعتقد، قد رأف لحالتي. كان يرافعني إلى بساتين التخيل ويحدثني عن فوائد العلاجية. تعلمت منه أشياء مفيدة كانت لي عوناً في فهم المزمور 12 Psalm xcii. في معظم تعاليمه. التخيل شجر مفيد وجميل ومثمر عندما يُلقَح، وهو ينمو من الداخل وليس من الخارج، كما أنه يفرح قلب الإنسان، والأشياء الأخرى، كلها ممكنة بالنسبة للأتقياء.

أخذني الرجل نفسه وعرفني إلى الكيفية التي يقوم بها العرب هناك، وكذلك في كاف، بتحضير الملح الذي يسعونه للقوافل. كانت هنالك العديد من الينابيع الملحة داخل الرمال. كان يصار إلى استجرارها بواسطة مجرفة ladle ومن ثم سكبها في أحواض على الرمال وتركها حتى تتبخ تحت أشعة الشمس. ثم يأتي رجل ومعه سلة ومكشطة إلى داخل الحوض ويببدأ بکشط بلورات الملح الكريستالية البيضاء كالثلج. بعدها يصار إلى تكديس هذه الكميات من بلورات الملح الكريستالية في أكواخ حتى تجف، ثم تُحمل إلى القرية حيث يجري تخزينها في عناير خاصة من الحجارة الطينية بانتظار الزبائن. يقدر ثمن حمولة جمل من الملح بحوالي ثلاثين ستة.

في أثناء الأيام الثلاثة الأولى من إقامتي القسرية هنا أصبحت بالحمى، لكن أحداً لم يأبه لحالتي أو يُلقي لي بالاً. كانت وطأة الحمى أشدّ ما تكون في الليل. كنت أسمع حركة الزواحف عند رأسى ومن حولي، وفي صباح أحد الأيام لمحت فوق طبقة الغبار أثراً لأفعى كانت قد مرّت بالمكان. شعرت وكأنني سجين وبأن حكاية سفر الشيخ ومرافقته لي في نفس الطريق لا أساس لها من الصحة. لعله كان يأمل بأن التأخير سوف يحملني على أن أعرض عليه مالاً، لكنني لم أكن أملك شيئاً أعرضه عليه، حيث أن كل ما أملك من مال وأحذية وغلاية قهوة وصابون ومشط ومنشفة وملابس داخلية وغيرها من الأشياء المفيدة، كان قد أخذ مني.

في صباح أحد الأيام لمحت رجلاً دخل البلدة سبق أن رأيته في كاف.

توجهت إليه وأخبرني بما كنت قد سمعته في اليوم الثالث لوصولي، أي أن شيخ عشيرة كاف كان غائباً. لو كان هناك، لذهبت من فوري إليه وألقيت بنفسي تحت جناهه. وأخيراً حزمت أمري على تسوية الأمر مع خويخان بصورة جدية. كان ذلك في صباح اليوم الحادي عشر. وجدته ثم قلت له: «إذالم ترسلني إلى وطني اليوم، فسوف أهيم في الصحراء وحيداً، وإذا ما قضيت هناك، فسوف يكون دمي في عنقك».

شرع خويخان باختلاق المعاذير لنفسه وأنا ألحفُ عليه أكثر فأكثر. وأخيراً قال لي: «حسنٌ، سأعيده إلى وطنك؛ بشرط ألا تعود إلى هنا مرة أخرى!» ثم نادى على أحد الرجال وطلب إليه أن يحضر له دابة لركوبه. وفي غضون ساعة من الزمن أحضروا لي حماراً ضعيفاً أعجف، بالكاد يستطيع حمل الخرج الخالي تقريباً من أيّ متاع.



### امرأة عربية تمحض السمن

يصنع العرب أشياء كثيرة من الحليب، الذي يكون وفيراً في الربيع. نرى هنا ممخضة بدائية جداً، تتألف من جلد غنم معلق على حامل ثلاثي. وعن طريق الخضم إلى الأمام والخلف يتكافئ دسم الحليب ويصبح سمناً يؤكل مع التمر ويُعد غذاءً فاخراً.

طلبت منهم أن يحضر والي جملًا لركوبه، لكنهم أخبروني بأن علي السير على قدمي. وهكذا، ومن دون إفطار ولا حتى وداع، تحركنا على بركة الله أنا ومرافقي الذي لا أعرف عنه شيئاً. كانوا قد طلبوا إليه أن يتركني عند أول مجموعة من الأعراب يصادفها في طريقه.

كان السير فوق كثبان الرمال العميق تحت أشعة الشمس الحارقة أمراً شاقاً للغاية، وبعد حوالي ساعتين من السير المضني استسلمت للإعياء وارتديت فوق الرمال منهكاً خائراً القوى. كان الرجل ومعه الحمار قد تجاوزني قليلاً؛ ناديت عليه، فتوقف عن السير ثم أنزل الحُرج وألقى بكل ما فيه فوق الرمال.

حاول معالجة الصناديق التي تحتوي بداخلها على صفائح معدنية بهدف فتحها، حيث حمله وزنها على الظن بأنها نقود. ثم استعان بخنجره وقام بشق اثنين منها وأفرغ منها اثنتي عشرة صفيحة فوق الرمال، وهو حائز فيما سيفعله بمثل هذه الأشياء. ثم قام بالاستيلاء على آخر زوج لي من الجوارب وبعض الأوراق وعلبة من الشاي الإنكليزي، ظناً منه أنها مرهم علاجي. لقد أخذ مني حتى علبة الصابون المعدنية الفارغة التي كنت أحفظ بها لتسخين بعض الماء لحاجاتي الخاصة. وبعد أن قام بطرير هذه الأشياء في الرمال، عاد إلي ثم أخبرني بوجوب النهوض ومتابعة المسير، وإلا مضى في حال سبيله وتركتي حيث أنا. نهضت وتبعته متعرضاً ومتحاملاً على نفسي من شدة الألم والإعياء والظماء لحوالي ساعتين.

وأخيراً المخيم على بعد، فقصدناها وأنينا بالقرب منها. لم يسبق أن رأيت مشهدأً أحب إلى نفسي وأقرب إلى قلبي من تلك الخيمة. تقدم صاحب الخيمة مني ثم قام بحمل أمتعتي إلى الداخل وأعانتي على الدخول وأعطاني مكاناً في زاوية الخيمة. أولاده أشباه العرابة، وزوجاته الأربع جلسوا قبالي يتفرّسون في ملامحي ويتأملونني، وعلامات الأسى لحالتي تعلو وجوههم، وكذلك اللعنة والدعاء بالويل والثبور على من فعل بي ذلك. قدموا لي بعض حبات التمر لأسدّ بها رمي وبعض السمن المملوث لتساعدني على ابتلاعها.

مكثت خمسة أيام مع هؤلاء الناس البسطاء الذين لم يخلوا علي أبداً بطفهم وكرهم.

بحلول اليوم الخامس قدم إلى الخيمة مجموعة من الرجال مع جمالهم. كانوا في طريقهم إلى دمشق. كان بوّي أن أتجه شمالاً في طريقي إلى القدس، لكن ذلك كان ضرباً من المستحيل. وبعد الكثير من الأخذ والرد مع قائد القافلة المكونة من اثنين عشر جملًا وثمانية عشر رجلاً، وافقوا على نقلني إلى عرمان مقابل حوالي دولارين. لكنني لم أكن أحمل أية نقود، وأصرّ الرجل على أن أدفع له مقدماً. أخبرته بأنني أملك نقوداً في عرمان، وفي نهاية المطاف قال بأنه سيسمح لي باعتلاء ظهر أحد الأحمال. وهكذا بدأت رحلتي مجدداً قاصداً أرض الوطن. كل شيء سار على ما يرام في خلال اليومين الأولين، فقد كان الرجال مجموعة من الناس اللطفاء الطيبين. وفي صباح اليوم الثالث، نهضت وتهيأت لانطلاقه مبكرة كالمعتاد. لكنهم أخبروني بأن ستة من الجمال كانت قد شردت في الصحراء خلال الليل وأن بعض الرجال قد خرجوا في طلبها.

أمضينا سحابة ذلك النهار حيث كنا، دون أن يعثر للجمال على أثر. وهكذا فقد اضطر الرجال إلى إفراغ حمولة ستة جمال من الملح - ما يعادل ستة عشر كيساً - فوق الرمال، ثم جرى طمر الأكياس، حيث تقرر استئناف المسير عند حوالي متصرف الليل.

مضى علينا يومان آخران، ثم سألت عن موعد وصولنا إلى عرمان، فجاءني الجواب من أحدهم: «لسنا ذاهبين إلى عرمان؛ لقد قتلت رجلاً من هناك في يوم من الأيام، وأخشى الذهاب إلى هناك. ستركت عند قرية يقال لها أم الرّمان Umm-Rowman على مسيرة ساعتين من عرمان».

سأعني سمعاً ذلك، حيث أنه كان يتعين علي مخالطة الغرباء مرة أخرى وإعداد الترتيبات لوصولي إلى عرمان. وحيث أني كنت بلا نقود، فقد كان الأمر بالغ الصعوبة.

عند عصر اليوم السادس وصلنا إلى قرية أم الرّمان<sup>(1)</sup> Umm-Rowman، وهي

---

(1) أم الرّمان قرية تقع على سفوح سلسلة جبل العرب في محافظة السّويداء، تبعد عن مدينة

قرية سكانها خليط من المسلمين والدروز وبعض النصارى الكاثوليك. نزلت عند رجل كان معروفاً من قبل الرجل الذي جاء بي إلى هنا، وكان قد أعد الترتيبات لنقلني إلى عرمان وللرجل الذي نقلني كي يعود بالنقود المتفق عليها أجراً للرحلة. وفي اليوم التالي جرى نقلني إلى عرمان حيث استقبلني أهلها الذين غادرتهم قبل أسبوع عديدة بكل المودة والترحاب. أكثر ما حرّك في مشاعر التأثر والغبطة كان سمعامي إياهم يقولون: «لم يكن يمضي يوم إلا وندعوا الله فيه أن يحفظك من كل مكره ويعيدك لنا سالماً غانماً». كان علي بالطبع أن أطلعهم على كل ما حدث وكل ما جرى لي طوال فترة الرحلة. ولقد أعاد إلي الرجل الذي كنت قد أمنتنه على مالي كل ما أودعته لديه كاملاً غير منقوص.

مكثت لعدة أيام مع هؤلاء الناس الكرام، الذين أمطروني بطلباتهم الملحة بشأن نسخ الكتاب المقدس، لكنني أخبرتهم بأن كافة النسخ قد نفت. بعدها امتنيت حماري بصحبة أحد الرجال ويممت شطر دمشق. في الليلة السابقة لرحيلي، قدم أحد العسكري إلى دار المضافة يسأل عن ذلك النصراني الذي رجع من الجوف.

كان الرجل المسؤول في صلخد، القلعة والمدينة التي عبرتها تحت جنح الضباب، قد سمع عنني ويرغب بلقائي. كان علي أن أقدم له نسخة من الكتاب المقدس، لو كان بحوزتي واحدة. وهكذا توجّحت للقاء صباح اليوم التالي. كان متحضرًا للغاية وأخبرني بأنني قد قمت بعمل جريء وخطر وبأنه كان سيمنعني من القيام بمثل هذا العمل لو أنه علم بذلك في الوقت المناسب. لم ألغت نظره إلى الطريقة التي غافلته فيها وعبرت المكان تحت جنح الضباب قبل ثلاثة أشهر. سرّه الاطلاع على الكتاب وقال بأنه يرغب بقراءته.

وبعد خمسة أيام أشرفت على مدينة دمشق، فردوس الله على الأرض. وما هي إلا سويعات قليلة حتى كنت قد حطّت رحili في دار أحد الأصدقاء القدامى من أهل البلد. لقيت استقبلاً حافلاً من قبل صديقي وعزيزي السيد والسيدة ريتشاردز

---

السويداء حوالي 35 كيلومتراً إلى جهة الجنوب.

Richards في القنصلية البريطانية. لقد سرّهم أيّما سرور عودتي سالماً بعد كل هذا الغياب الطويل. أرسلت من هناك رسالة إلى عائلتي وأصدقائي الذين استبدّ بهم القلق خوفاً على سلامتي أطمئنهم فيها على عودتي بالسلامة. وبعد استراحة بضعة أيام، انطلقت مجدداً في رحلتي، في ظروف أفضل هذه المرة، قاصداً موطنني في مدينة القدس. وبعد مسيرة تسعة أيام ركوباً، اكتحل ناظري بروية المدينة المقدسة مرة أخرى، بعد ثلاثة أشهر ونصف تماماً من مغادرتي إليها.

لقد كانت هذه نهاية أول رحلة لي إلى جزيرة العرب من جهة الشمال؛ قطعت في خلالها ما يقرب من ألف وخمسمائة ميل وبعث حوالي مئتين وخمسين نسخة عربية من الكتاب المقدس، أو وزعتها على هؤلاء الناس البعيدين عن الحضارة الذين لم يسبق لهم رؤيتها قط. كما قمت بتوزيع المئات من المنشورات والكتيبات، التي ترشد جميعها إلى سبيل الخلاص؛ ولا أبالغ إن قلت بأن المئات من الناس قد سمعوا مني مشافهةً بأن لا سبيل إلى الخلاص والغفران والخلود من دون الإيمان بالخلاص.

بالنظر إلى هذه الإنجازات، فإننا نسأل أنفسنا: «ماذا ستكون حصيلة ذلك كله؟» ومن خلال وقفة تأمل، قد يتساءل المرء - كم من الوقت سينقضى - قبل أن يقدّم له ابن الصحراء فروض الولاء والطاعة، ويقدم له ملوك سباً وزعماؤها الهدايا والعطايا ويخررون أمامه رُكْعاً سُجَّداً (Ps. 1xxii. 10, 11). إذا ما كان التمعن في هذه الصفحات سيؤدي بالقراء للاهتمام بأبناء قيدار Kedar ونذر أنفسهم لطاعة أمر متىٰ Matthew. ix. 38. فإن النصب والمشاق والأخطار كالتي كابدتها ولاقيتها في رحلاتي ستلاقي ثوابها مضاعفاً.

لنقم بكل ذلك بروح من الترقب والانتظار<sup>(1)</sup> لتحقق الوعد الوارد في الترتيلة Psalm 1xxii. 9 عندما «سينحنني أمامه أبناء الصحراء».



(1) لم يجد فوردر الانتظار شيئاً، ومات وحملته التفسيرية لقيت الفشل الذريع، ولم يكن لها من الفائدة إلا هذا الكتاب نقرؤه للمتعة. لم لا؟ على الأقل ثمة فائدة نجمت عن هذه الرحلات.

## الفصل الثاني والعشرون

### ديانة العرب

لقد منحتني السنوات العديدة من التواصيل والتعامل مع العرب، البدو منهم والحضر، رؤية معمقة لحياتهم الدينية والاجتماعية. فالدين الإسلامي الذي يدين به غالبية العرب هو دينٌ صعبٌ يعمل على تقييد حرية معتقديه والإمساك بهم كما تمسك المِلزمَةُ بين فكيها بقطعة الحديد<sup>(1)</sup>.

لا يوجد في الدين الإسلامي ما يدعم الحياة الاجتماعية أو العائلية أو يشكل عوناً لها<sup>(2)</sup>. وعلى النقيض من ذلك، فإن أتباع محمد يرثون تحت نيرٍ ثقيلٍ من الواجبات والمسؤوليات (الفرائض) التي يتطلبها منهم دينهم.

سأحاول أن أستعرض المعتقدات الرئيسية لهؤلاء الناس، لأبين للقارئ كم هي دنيويةٌ ومرهقة الأشياء التي يتوجب على العرب القيام بها لكي يحوزوا على مرضاه ربهم. لكنني سأقدم لكم أولاً وصفاً مقتضباً حول مؤسس هذا الدين ومعتقديه الذين يناهز عددهم مئتي مليون مسلم.

(1) هذا رأي المؤلف في مطلع القرن العشرين، وكانت إنكلترا وأميركا اللتان تدينان بمذهبه تنعمان ببعض قيم الصدق والنقاء، لكن سرعان ما تبيّن انحلال هذه القيم وما كاد عقد الستينيات يحل حتى حل في البلدين المذكورين أشنع حال من الانفلات والإباحية. فهل يعاب على الإسلام تمسكه الدائم بالفضائل والعبادات؟

(2) كلام مرفوض تماماً وينم عن جهل فاضح بالإسلام.

في القرن السادس كان لليهود والنصارى كُنسهم وكنائسهم الخاصة في جزيرة العرب. في أرض الحريات تلك كان المجوس Magians يعظمون عقيدة زرادشت ويمارسون طقوسها، وكان الصابئة Sabians يعبدون آلهة الكواكب planetary deities.

كانت عبادة الشمس والقمر والنجوم هي العقيدة البدائية لأبناء جزيرة العرب، وكانت بمثابة نظام موضوع بشكل طبيعي ويعتمده أناسٌ يعتمدون على انتظام حركة الأجرام السماوية ويستهدون بها في أثناء تجوالهم في الصحاري الشاسعة.

كانت قبيلة قريش القبيلة التي حازت على مرتبة متميزة بين باقي قبائل جزيرة العرب، فقد كان يُعهد إليها بشرف حماية الكعبة المعبد المطهر في مكة، وكان شرف الريادة في الشؤون الدينية مقروراً بالخضوع لسلطتهم الدينية. من نسل هذه القبيلة خرج شاب يدعى عبد الله، تزوج من آمنة بنت وهب من أشراف قبيلة «بني زُهرة» Zarites وأنجبا نبيَّ الشرق المصطفى. لقد كان فجر الشهرة بالنسبة لمحمد ملبداً بغير يوم عديدة، فقد خلفت وفاة والده المبكرة وهو لا يزال جنيناً في رحم أمِّه لسيد جزيرة العرب خمسة جمالٍ وعبدًا واحدًا. وسرعان ما باتت طفولة محمد متسمة بالحرمان من حنان الأم ورعايتها. ثم دُفعَ بِمُحَمَّدٍ - كما يروي الحديث - إلى مرضعةٍ مع أسرة بدوية.

بقي محمد في الظل بعيداً عن أضواء الشهرة حتى بلغ سن الخامسة والعشرين، عندما ارتقى به منصبه الجديد كمشرِّفٍ على تجارة أرملاً ثرية، ثم زوجها والقائم على ثروتها، إلى مصاف أيٍّ فتى من فتيان مكة.

عندما كان محمد شاباً، وقبل أن يتزوج، كان يقوم بعدة رحلات مع القوافل التي كانت تقصد بلاد الشام كل عام. وعندما لا يكون منشغلاً بأمور البيع والشراء، كان يتردّد إلى أحد الأديرة القرية من مكان نزول القافلة.

كان فتى الصحراء يلقى استقبالاً حسناً من الرهبان والنساك خلال فترات إقامته الوجيزه وزياراته المتفرقة. كانوا يحدّثون الفتى النقى البصر وال بصيرة عن الله الحق،

خالق السموات والأرض وما بينهما. وقد سمع الفتى المكي أيضاً من أرباب الدير بأن الله وحده هو الجدير بالعبادة دون غيره.

لقد كانت التعاليم الإلهية جديدة على محمد<sup>(١)</sup>، وتخالف أي شيء كان قد تعلّمَه أو عهده بين قومه في مكة ومحيطها. لقد تمّحض عن التعاليم التي سمعها من الرّهبان والنساك نتيجتان اثنتان:

الأولى، تمثلت في انتشال كامل جزيرة العرب من عبادة الأوّثان والانتقال بها إلى عبادة الله الواحد؛ بينما تمثلت الثانية بولادة وانتشار نظام ديني أصبح المناوىء الأعظم للمسيحية.

لقد كان مشهوداً له دائماً صدقه وأمانته والتزامه الصارم بواجباته وممارساته التعبّدية. وكان قد اعتاد في كل عام أن يخلو بنفسه في غار حراء لمدة شهر كامل يمارس خلاله طقوس الصّوم والصلوة والتأمل.

ولقد أدى نزول الوحي عليه أخيراً إلى إعلانه نبياً مرسلاً من السماء، للدعوة بوحديّة ربّ الواحد الأحد المنزّه عن كل شريك، ولكي يعيد إلى دين إبراهيم وإسماعيل نقاه وصفاءه الأول.

وهكذا فقد تأسس دين الإسلام في العام 609 ميلادي برسالته المنادية بـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله» كأساس لعقيدته البسيطة. إذا مانطق أيّ إنسان بهذه العبارة بقلب صادق فسوف تعلنه «واحداً من المسلمين».

لقد كان انتشار هذا الدين سريعاً إلى درجة أنه ما من أرض على وجه البسيطة تخلو من معتقد هذه العقيدة، وفي غضون فترة تاريخية قصيرة لا تتجاوز 1290 عاماً. وعديدة هي فرائض الإسلام؛ لذلك سنقتصر في معرض هذا الفصل على ذكر الرئيسية منها. أول هذه الفرائض وأهمها:

---

(١) صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

## الصلوة

في الأوقات المحددة، وهي الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، يصدق المؤذن وهو مُولٌ وجهاً ناحية القبلة بأعلى صوته من مقصورة المئذنة معلناً دخول وقت الصلاة. وإليكم الكلمات التي ينادي بها المؤذن:

«الله أكبر، الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله؛ حيٍ على الصلاة، حيٍ على الفلاح؛ الله أكبر؛ لا إله إلا الله».

وفي أذان الفجر يضيف قائلاً: «الصلاحة خيرٌ من النوم، الصلاة خيرٌ من النوم». وحال سماعه لصوت الأذان يتهم المسلم لأداء الصلاة. يعلق وزراء الدولة أعمالهم ويتوقف التجار وأصحاب المصالح عن مواصلة نشاطاتهم وصفقاتهم التجارية مع عملائهم وزبائنهم، ويحوّلون حوانينهم إلى مساجد صغيرة. قوام الصلاة بضم حركاتٍ يكررها المصلي أربع أو خمس مرات يكرر خلالها فاتحة الكتاب تكراراً لازماً، يضيف إليها بعض الأدعية الصالحة للرسول ولعباد الله الصالحين، وتعني إذا ما ترجمت:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين

الرّحمن الرّحيم

مالك يوم الدين

إياك نعبدُ وإياك نستعين

إهدنا الصِّرَاطَ المستقيم

صراطَ الذين أنعمتَ عليهم

غيرِ المغضوبِ عليهم

ولا الضالّين - أمين.

## الوضوء

لا يقبل الله أَيّ عمل من العبد مالم يكن ظاهر الجسد (قبل القلب). وهنالك في باحات كل المساجد نوافير ماء يلجأ إليها المصلون لإعداد أنفسهم للصلوة. يبدؤون بغسل الوجه ثم اليدين فالقدمين، ويتتممون خلال تأدیتهم لهذه العملية ببعض دعوات تبعد عنهم الشيطان.

هذا ويسمح القرآن للمسافر بالتيّم بالتراب عوضاً عن الماء، إن ندر أو تعذر وجوده لتخليص بدنـه من أدرانـه. أحياناً، قد يجد البعض في تعذر وجود الماء سبباً مقنعاً لإهمال الصلاة والانصراف إلى ما هو أهـم وأكثر إلـاحاحاً؛ لكن حتى في الصحراء يصار إلى الالتزام بمواعيد الصلاة بكل دقة وأمانة.

## الصيام

يحتل الصيام في الإسلام مرتبة متميزة، لكن لصوم رمضان الأولوية على أي صيام آخر، ويمارس المسلمون الصيام في رمضان تيمّناً بذكرىزيارة السنوية لمحمد إلى غار حراء للتأمل والصلاه والصيام طوال شهر كامل، وهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن على محمد. يتزمن الصائم بالامتناع كلياً عن كل أنواع الطعام والشراب من شروق الشمس حتى غروبها. ويمضي الصائمون أوقاتهم في رمضان في التأمل والعبادة، أما المُترف اللامبالي فيمضي وقت الصيام الطويل بالنوم، بينما يشعر العامل النشيط أو الزوج المرغم على العمل بوطأة الصوم الحقيقة. وتتحول الليالي إلى نهار، ما خلا النور، والعكس صحيح. وعندما يحل شهر رمضان في فصل الصيف، بأيامه الطويلة وحرارته اللاهبة، يغدو الامتناع كلياً عن كل أنواع الطعام والشراب أمراً عسيراً، وتنتاب الرجال حالة من التوتر والعصبية، ما يدفعهم أحياناً إلى الانزواء بعيداً عن الأنوار للاستسلام للراحة لقهر الجوع والظماء. ويُعدّ عيد الفطر أهم مناسبات العام عند المسلمين.

## الحج

لاتكاد تنتهي أيام الفطر حتى تنشغل أذهان المسلمين بمسألة أداء فريضة الحج إلى مكة. والوجهاء والضعفاء وأصحاب المصالح يكلفون عادة من يؤذن لهم هذه الفريضة الشاقة. يعدّ أداء هذه الفريضة عن طريق الصحراء أكبر ثواباً عند الله كونه يتطلب قدرًا أكبر من الصبر والمعاناة والتعرض للخطر والتكليف، وبالتالي يعدّ أكثر أهلية للثواب.

لدى الوصول إلى ضواحي الأرض المقدسة، يقوم الحاج بطواف مفروض حول مكة ثم يقوم بعملية اغتسال كامل بالماء والرمل، ويؤدي الصلاة شبه عارٍ مرتدياً لباس الإحرام، أو اللباس المطهر، وينتقل الصندل لحماية باطن القدمين من حرارة الرمل اللاهبة. وتكون الحالة المسيطرة الآن ما يدعى بالتأمل الروحي، فالمساغل والمتع الدنيوية باتت الآن من المحظورات. وكثيرة هي المناسبات والواجبات التي يتوجب على الحاج الالتزام بها في خلال أيام مكهته في مكة.

يعدّ واجب تقديم الأضاحي فوق جبل عرفات، إحياءً لذكرى التضحية بإسماعيل، وليس إسحق، وفق المعتقد العربي، من قبل والده إبراهيم، وكذلك رجم الشيطان بالحصى، اثنين من أهم مناسبات الحج في مكة.

تشكّل عودة الحاج إلى وطنه وقريته بعد هذا الاغتراب الطويل مناسبة للاحتفال وإقامة الأفراح، ويقى الحاج إلى الأبد موضع احترام وتقدير كبيرين من قبل الجميع.

## أداء الزكاة

قال أحد الخلفاء الأوائل يوماً: «الصلة تقطع بنا نصف الطريق إلى الله، والصيام يحملنا إلى عتبة بابه، أما الزكاة فتؤمن لنا التصرير بالدخول».

يفرض القانون الإسلامي للزكاة على المسلم أداء نسبة العُشر<sup>(1)</sup> من ممتلكاته التي حال عليها الحول. مع ذلك، قد لا يجري تطبيق قانون الزكاة بحذافيره في مطلق الأحوال. فمتاجرات الزروع من حقول الذرة وبساتين الزيتون وكروم العنب لا يجري جنيهاً وقطافها بتلك الدقة المتناهية في مناطق الشرق. يخصص للفقراء من هذه الزروع والثمار ما تم جمعه والتقطاه عن الأرض. لقد أجاز محمد لأتباعه التمتع بتاج زروعهم من الذرة والتمر والزيتون والرمان وغيرها، ولكن بشرط أن ينال الفقراء نصيبهم منها وقت حصادها أو جمعها أو قطافها. لا يحق للمسلم أن يرد أو ينهر سائلاً طرق بابه التماساً لطعام يسد به رمقه، وأحياناً يرفق المسلم عطيته بمبلغ من المال. وتكثر العطایا والصدقات أيام الفطر بشكل استثنائي.

## التأمل والتفكير

يعتقد بأن الكتاب المقدس لل المسلمين، وهو القرآن، قد تم جمعه في أجزاء على أوراق الحرير وتزيينه بالجواهر والأحجار الكريمة<sup>(2)</sup>.

يحتوي القرآن على جوهر التعاليم الإسلامية التي نزلت على محمد من السماء خلال زياراته السنوية إلى غار حراء خلال شهر رمضان. جرى تدوين هذه التعاليم على ألواح من العظام المسطحة وعلى سُعف النخيل وجلود الحيوانات. وكان قد عُهدَ بنسخةٍ من هذه الأجزاء لإحدى زوجات محمد الآثیرات إلى قلبه، حيث جرى

(1) هذا غلط، بل مقدار الزكاة على ما حال عليه الحول 25 جزءاً من ألف، أي بلغة اليوم: 25٪. ومن الواضح أن معلومات فوردر ضحلة.

(2) لم يرد مثل ذلك أبداً في تاريخنا المكتوب بعنایة، بل كتب المصاحف المطهرة الأولى على الرّقوق، ثم جُلّدت بالجلود حفظاً لها. ولم يعرف التاريخ ذكرًا لمصحف مرصع بالحجارة الكريمة، لكن غاية ما في الأمر أن تزويق المصاحف اعتمد على تجويد الخط، وتزويق الفقرات والفوائل بجدلها بالحمراء والزرقة، ثم ارتقى فنّ تزويق المصاحف إلى أوجه في عهدبني عثمان، لكن الزخارف بقيت هندسية ونباتية، تنسجم مع بساطة الإسلام ونقائه العبادة لذات الله الواحد الأحد، دون تكلف أو بهرجة.

جمعها لاحقاً على شكل مجلد.

وينقسم القرآن إلى مئة وأربع عشرة سورة مقسمة بدورها إلى آيات. ولا يحق للMuslim مَسَّ القرآن أو تلاوته إلا إذا كان طاهراً، وعليه ألا يمسك به دون مستوى الخصر.

تعاليم القرآن متعددة: شهادة أن لا إله إلا الله؛ والإيمان بالملائكة، وثمة أربعة ملائكة ذوو أهمية كبرى، وهم: جبريل وميكائيل وعزرايل، ملك الموت، وإسرافيل، ملك البعث؛ الإيمان بالرسل والكتب السماوية، الحاوية لأوامر الله للإنسان، لكنها (بحسب القرآن) فقدت تماماً، وما بقي منها اليوم لا يتعدى كونه تلفيقات دونت وأعدت لتناسب الديانة المسيحية<sup>(1)</sup>. وتعاليم القرآن تقول بأن المسيح ابن مريم (وليس ابن الله) كان آخر أنبياء اليهود، وأنه المسيح الحقيقي، صاحب المعجزات والداعي للحق؛ لكن القرآن ينكر واقعة الصليب.

فرَّ المسيح من اليهود ثم رُفع إلى السماء؛ وهنالك شخص آخر عانى الصليب مكانه، بعد أن شبّه لهم بالشكل والصورة. وبالرغم من إنكار القرآن لحقيقة الألوهية والتکفير بالنسبة للسيد المسيح، فهو يقرّ بولادته بطريقة إعجازية بأمر من الله. بذلك فإننا نرى بأن هذا الدين يرفض هذه الدّعوى للخلاص، أي الصليب.

إذا ما كان المسلم صادقاً في توجهه، فعليه أن يقرّ بأن دينه لا ينصّ على ما يتعلّق بمسألة الخلاص من الخطيئة، ولكنّه يؤسّي نفسه بتأكيد «إن الله غفورٌ رحيم - سأكون صالحاً بقدر ما أستطيع، وأترك الباقى لله»<sup>(2)</sup>. وهنالك جنة موعودة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت لإشباع الرغبات الحسية لأتّباع القرآن من يلتزمون بأوامر الله ورسوله. وفي مخالفةٍ لسبت اليهود وأحد المسيحيين، أمر مؤسس الإسلام باعتبار

(1) يقصد بهذا الكلام نص القرآن الكريم على تحريف ما تبقى من التوراة والإنجيل.

(2) وليس ذلك جوهر العبادة؟ أيحتاج الإنسان إلى وسيط بينه وبين ربّه ليتوب عنه في الخلاص من الخطايا؟ روعة الإسلام أنه لا يقرّ بوجود حجاب بين الإنسان وربّه، وليس عليه إلا أن يأتي الله بقلب سليم ويخلاص له الدّعاء ويتوب إليه.

يُوْمُ الْجَمْعَةِ «يُوْمُ اجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ» يُوْمًا مُخْصِصًا لِلْعُبَادَةِ وَتَلْقَيِ تَعَالِيمِ الدِّينِ. لَذَا يَتَوَجَّبُ عَلَى كُلِّ قَادِرٍ أَنْ يَحْضُرَ لِلصَّلَاةِ ظَهِيرَ يَوْمِ الْجَمْعَةِ وَيَسْتَمِعَ لِلْخُطْبَةِ الَّتِي يَلْقِيَهَا إِمَامُ الْمَسْجِدِ. قَدْ تَشَاهِدُ أَحَيَانًا فِي مَدِنِ الشَّرْقِ شَبَّاكَ صَيْدَ مَنْشُورَةً عَلَى وَاجْهَةِ الْحَانُوتِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ ذَهَبَ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ.

\* \* \*



### منظر على نهر أبانا في دمشق (بردي)

إحدى أماكن الجذابة بدمشق هذا النهر الجميل الذي يتدفق عبرها، ويدير الطواحين والأتوال ويروي العديد من الهكتارات لإنتاج محاصيل كبيرة. وعلى ضفاف النهر حدائق كثيرة وبساتين أشجار الفاكهة التي يجلس تحتها السكان ويقضون معظم أوقاتهم. وينبع نهر أبانا من جبال لبنان الشرقية.

## الفصل الثالث والعشرون

### عادات قديمة تؤكّد أعراف الكتاب المقدس

ليس هدفًا لي الدخول في كافة تفاصيل الحياة اليومية والسلوكية للعرب، وإنما التطرق إلى بعض هذه التفاصيل التي تميّز على العديد من التفاصيل والسلوكيات الأخرى، الوارد ذكرها في الكتاب المقدس. يجدر بنا ألا ننسى أن ما سبق ذكره، وعلى الرغم من كونه جزءاً من الممارسة اليومية، فهو لا يعود لكون الناس يتلقون تعاليمهم من الكتاب المقدس؛ وإنما لكونهم معتادين على ذلك عبر آلاف السنين ويتناقلونه جيلاً بعد جيل. كذلك فإن التمعن في هذه الأشياء يجعل من الكتاب المقدس كتاباً حقيقياً جداً وفوق كل الشبهات. وأن تكون على اتصال وثيق مع هؤلاء الناس من أبناء الشرق وأرض الكتاب المقدس، فهذا يعطيك أفضليّة خاصة لدراسة حياتهم اليومية.

#### الكنوز المخبأة

ورد في الجزء الرابع من الفصل الخامس والثلاثين من سفر التكوين : Genesis xxxv. 4

«وقدّموا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي كانت في يدهم وكل أقراطهم التي كانت في آذانهم، حيث خبأها يعقوب تحت شجرة البلوط التي عند شكيم». ورد في الجزء الحادي والعشرين من الفصل السابع من سفر يوشع Joshua: «عندما لمحت بين

الغنائم عباءة بابلية حسنة المظهر ومئتي شيكيل من الفضة وإسفيناً من الذهب بوزن خمسين شيكلاً، أغراني الطمع وأخذتها؛ وانظر، إنها مخبأة وسط خيمتي». دائمًا ما يُعثر على الكنوز المخبأة حتى في أيامنا هذه. إحدى العبارات الشائعة بين العرب حول الغريب هو أنه يسعى وراء الكنوز الدفينة، وكونه يمتلك الكتب ويتعامل بها، فهو يحدد مكانها بالضبط ويعثر عليها. السبب الذي كان يحدو بالأقدمين لدفن كنوزهم ونفائسهم هو انعدام وجود أي مكان آمن يودعون فيه مثل هذه الأشياء. لم يكن يعرف مكان الدفين سوى الشخص الذي قام بدهنه. وأحياناً كان الموت أو الحرب تذهب بصاحب الدفين، تاركة أمر اكتشاف المخبأ للزمن القادم. ستبيّن لنا السطور التالية أن هذه العادة لا زالت شائعة حتى يومنا الحاضر.

كنت أجوب سهول مؤاب بصحبة أحد الأعراب؛ وكان رفيقي يحمل معه طبنجة أثيرة إلى قلبه، وكان حريصاً على إخفائها بعيداً عن أعين السلطات خشية مصادرتها. وعندي لمحنا مجموعة من الرجالقادمة باتجاهنا، اعتقدي بأنهم من العسكر التركي – وقد صدق حدسنا.

قلق الرجل على سلاحه، لكنه كان أهلاً لمثل هذا الموقف. اتجه نحو إحدى الأحجار الكبيرة المستديرة وجلس قربها، ثم طلب مني القيام بنفس الشيء، ففعلت، ثم أخذت أرافقه. قام بقلب الحجر وحفر حفرة ووضع سلاحه بداخلها، ثم أهال عليها التراب وأعاد الحجر إلى مكانها. أخبرني بأنه سيستعيد طبنجته في وقت لاحق، وهو مافعله بعد شهر.

في مناسبة أخرى، عندما كنت أعيش في الكرك، جاءني رجل ملتمساً بعض القماش المعالج بالزيت لمقاومة تسرب الماء وبعض الشمع المستخدم لختم الأشياء من أجل لفه حول كيس من النقود. أخبرني بأنه خارج إلى الجبال لإخفائه. قال لي: «لا أستطيع أن أعهد به لأبي أو أخي أو ابني، لذلك فأنا ذاهب لوضعه في مكان آمن». وقد ذهب بمفرده لإخفاء مقتنياته.

## الاحفاظ بالعباءات

ورد في الجزئين السادس والعشرين والسابع والعشرين من الفصل الثاني والعشرين من سفر الخروج Exodus xxii. 26, 27: «إذا ما اتفق ووضعت عباءة جارك لديك على سبيل الرّهن، عليك أن تعيدها له عند الغروب: لأن تلك العباءة هي غطاؤه وستره، إنها دثاره الوحيد الذي يعطيه أثناء النوم».

الذهاب إلى النوم أمرٌ يسير للغاية بالنسبة للعرب؛ وفي أغلب الأحيان يغدو المكان الذي تأوي إليه للنوم بمثابة سريرك. ودور المضافة والخيام تكون حالية من الأثاث؛ وقطع الأثاث الوحيدة هي الحصائر والبسط التي نام فوقها. لا يقدّمون لك أيّ نوع من أنواع الأغطية، لذلك يتوجب على كل شخص أن يتدبّر أمر غطائه بنفسه. وهنا تبرز أهمية العباءة العربية الفضفاضة. عندما يرغب العربي بالنوم، فهي واسعة وفضفاضة بما فيه الكفاية لتعطيه بالكامل، وكونها محاكاة بشكل ملتز، فهي تقيه وطأة البرد والرياح. وبوجود واحدة من هذه العباءات، يسع الشخص أن يخلد للنوم حيثما شاء. أن تحفظ لديك باللباس الخارجي للشخص، فهذه جريمة لا تغتفر، وهو ما لمسته في إحدى المرات من خلال التجربة. حدث ذلك في الكرك.

كنت جالساً في غرفتنا ووجهي باتجاه الباب المفتوح، عندما لمحت ملاعة سرير نشرت لتجف تتطاير نحو الأعلى ثم تختفي شيئاً فشيئاً. هرعت من فوري ثم صعدت إلى سطح المتنزل لألمح رجلاً يفر من أمامي والعباءة تحت إبطه. انطلقت في إثر الرجل وسرعان ما لحقت به، لكنني لم أتمكن من الإمساك به بسبب ملابسه المتطايرة الفضفاضة، لذلك فقد تعلقت بعباءته الخارجية؛ وعندما أحسّ بأنه على وشك الوقوع في قبضي، رمى بالملاءة وتخلى عن عباءته، تاركاً إياها في يدي، ثم انطلق بأقصى ما يستطيع من سرعة. رجعت إلى غرفتي بالملاءة والعباءة. كان الوقت حوالي الظهيرة. سرعان ما جاءني بعض الرجال مطالبين بإعادة العباءة. قلت لهم لا بد وأن يعود اللص لاسترجاعها بنفسه.

كرروا طلبهم مرتين، لكنني رفضت أن أعيدها لهم. قالوا لي بأنني أرتكب خطأً بعدم إعادتها، لكنني كنت جاهلاً بعاداتهم آنذاك. قبيل المساء مباشرةً، حضر الزعيم

ومعه بعض أبنائه مطالباً بإعادة العباءة، موضحاً لي أنني باحتفاظي بالعباءة فإنني أحافظ بغضّاء الرجل الذي يتذرّب له ليلاً، وإذا ما مات بسبب البرد فلده سيكون في عنقي. ثم أخبروني عن عاداتهم وأثاروا حميّتي بحقيقة أنني كنت أرتكب خطأً جسيماً. وهكذا فقد تخلّيت لهم عن العباءة، وتعلّمت من ذلك الحين درساً مفاده أن العادات العربية أمر لا يمكن انتهاؤه بسهولة، حتى في ظل مثل هذه الظروف.

### اللهجة اللفظية

ورد في الجزئين الخامس والسادس من الفصل السابع من سفر العهد القديم  
:Judges xii. 5, 6

«واتخذ الجلاعديون Gileadites طريقهم عبر مخاضات نهر الأردن صوب أفرایيم Ephraim: واتفق أنه عندما كان أحد فارّي أفرایيم يقول: اسمحوا لي بالعبور، كان الرجال يسألونه: هل أنت أفرایيمي Ephraimite؟ فإذا قال: كلا، يقولون له: قل شيئاً، فيلفظها: سيبوليت؛ لأنه غير قادر على لفظها بالشكل الصحيح».

من هنا، فإن العالمة الفارقة بين هاتين القبيلتين لم تكن اللباس أو السلوك أو المظهر، وإنما لفظ كلمات معينة يعرف من خلالها إذا ما كانوا أصدقاء أم خصوم.

ليس على الرجل اليوم إلا أن يتكلّم، فمن خلال لفظه لكلمات معينة يكون بوسع السامع أن يتبيّن من أيّ بلدة أو قرية هو. إن لهجة مدينة الخليل Hebron يختلف كلّياً عن لهجة دمشق، وحتى الفارق بين لهجتي القدس وبيت لحم، ولا يفصل بينهما أكثر من خمسة أميال، هو فارق ممیز جداً. قد يكون من الواقحة أن تسأل غريباً ينزل ضيفاً عليك أو أتاك لأيّ قصد آخر، من أين هو؟ فإنّ العرب يتربّشون حتى يبادر هو بالحديث، ثم يستنتاجون من الكلمات التي يستخدمها ويتلفظ بها من أين هو. والرجل الغطّن، وبهدف إخفاء موطنه الأم، يعمد أحياناً إلى استخدام التعبيرات التي يستخدمها هؤلاء الذين يعيش بينهم في تلك الأثناء.

## الكرم والضيافة

ورد في الجزئين الرابع والخامس من الفصل التاسع عشر من سفر القضاة Judges : xix. 4, 5

« واستيقاه حَمُوهُ، والدُّفتاة، وأقام معه ثلاثة أيام: وهكذا فقد أكلوا وشربوا وأقاموا هناك. وما إن حلّ اليوم الرابع حتى استيقظوا باكراً وهمّوا بالرّحيل »، الخ.

كل بلدة ومدينة عربية فيها دارٌ مضافةٌ لكل زائر وغريب وعبر سبيل، وهي تشكل مصدر فخر واعتزاز لأبناء المنطقة: « كل بيت هو في الواقع دار مضافة ».

تعد هذه الأماكن بالنسبة للمسافر نعمة لا تقدر بثمن، تؤمن له المبيت والحماية من اللصوص والطعام والشراب، له ولدابته. ويكون من دواعي سرور زعيم البلدة أو القرية عموماً استقبال الضيوف والاحتفاء بهم، رغم أن أصغر أبناء المنطقة شأنها سيقوم أيضاً باستقبال الضيوف وتقديم الطعام والشراب بكل سرور لكل من يقرع الباب. هنالك مثل عربي شائع يقول: « الضيف ضيف الله، وعلىنا واجب إكرامه بكل ما يحتاج ». يحق للضيف وفق العادات أن يقيم لدى مضيفه معززاً مكرماً لثلاثة أيام، ينجز في خلالها الشأن التجاري الذي جاء به إلى هذا المكان. يحبذ المضيف أن يستقبل ضيوفه في وقت مبكر من فترة بعد الظهر كي يتسلّى له إعداد أفضل وجبة عشاء ممكنة لضيوفه. هنالك مثل عربي آخر يقول: « ضيف المساء ليس له عشاء »، نظراً للعدم توفر الوقت لإعداد الطعام، لذلك فعليه أن يقنع بما يتيسر له. وإذا ما أرغمت الظروف الضيف على المكوث في بيت مضيفه لأكثر من ثلاثة أيام، فعليه أن يتوجه إلى منزل آخر للإقامة.

يُقيّم العربيُّ من الطريقة التي يُعاملُ بها ضيوفه. ومن العبارات الشهيرة التي تدلّ على كرم المضيف أن « دلال قهوته لا تنزل أبداً عن النار ». وطالما بقي الضيف نزيلاً لدى مضيفه، فإن مقتنياته وحوائجه تعد بمثابة أمانة، وكذلك حياته. وثمة قدر كبير من السخط قد أثير في خلال إقامتي في إثرة Ethera عندما تعرّضت حقائي للعبث بقصد السرقة.

كان من واجب مضيفي البحث عن السارق والعثور عليه، أو التعويض عليّ مقابل أغراضي المسروقة، إلا أنني وفرت عليه هذا العناء. كذلك فإنّ شخص الضيف هو أيضاً موضع تقدير واحترام كبيرين، ولا يسمح لأحد، حتى ولو كان عدوّاً، أن يمسّه بأذى طالما هو فوق بساط مضيفه. القصة المذكورة في الأجزاء 11-1 من الفصل التاسع عشر من سفر التكوين Genesis xix. 1-11 هي قصة في غاية الوضوح، وقد كان تصرف لوط Lot تصرفاً مبرراً إذا ما استذكرنا الاحترام الذي يكنّه المضيف لضيفه في الشرق. فلقد رفض لوط تسليم ضيوفه لأبناء سدوم Sodom الغاضبين، عارضاً عليهم أخذ ابنته على تسليم ضيفيه وتعريفهم لانتقام أبناء سدوم. لقد خبرتُ أكثر من مرة جدوى هذه العادة، لاسيما عندما هاجمني الضابط التركي، كما هو مدون في موضع آخر من هذا الكتاب. لقد آثر مضيفي التعرّض لمسؤول في الحكومة، على التعرّض لضيفه.

والمضيف المتحرر غير المتعصّب لا ينفك عن تقديم القهوة لضيوفه. هذا المشروب الذي يتم تناوله دون حليب أو سكر، يتم التعامل معه بطرق بسيطة متعددة. فلا يجوز أن يقدم للضيف في كل مرّة من القهوة أكثر من ملء ملعقة طعام – فإن تملأ الفنجان الصغير عن آخره يعده إهانة للضيف ما بعدها إهانة، ويسمح بتقديم أكثر من فنجانين في الضيافة الواحدة؛ وفي حال تقديم فنجان ثالث، فهذه إشارة إلى أن الضيف غير مرغوب به وعليه المغادرة في الحال، ربما نظراً لوجود عدوٍ ما أو طالب ثأر بالقرب من المكان. هذه العادة مع ذلك غير متّعة إلا عند بعض عشائر البدو الرئيسية. ويجري إعداد القهوة عادة من قبل المضيف بالذات؛ ولا يجوز للمرأة بأي حال من الأحوال أن تقوم بتحضيرها. يصار إلى تحميص حبات البنّ الخضراء في مقالة مخصصة لهذا الغرض، والكمية الوسطية من القهوة هي حوالي أربع أوقیات، تضاف لأكثر قليلاً من نصف لتر من الماء. وفي أغلب الحالات يُستخدم فنجان واحد فقط لتخديم مجموع الضيوف، حيث يرتفع كل منهم من الفنجان ذاته دون أن يصار إلى غسله بين كل رشة وأخرى.

## الوجبات السريعة

ورد في ورد في الأجزاء 8-2 من الفصل السابع من سفر التكوين Genesis xii. 2-8 والجزء التاسع عشر من الفصل السادس من سفر العهد القديم: في هاتين الحالتين كان إبراهيم وجذعون Gideon قد استقبلا ضيوفاً غير متظرين. بالنسبة لإبراهيم، فقد استنتج بأن زواره قد عرجوا على خيمته تحت وطأة الجوع؛ والآية الخامسة تتطرق إلى ذلك بكل وضوح:

«سوف آتكم ببعض الخبز تسددون به رمقكم، ثم تتبعون المسير، فأنتم ضيوفي وأنا خادمكم». لعلنا نجد فيما سبق صورة واقعية للغاية عن حياة العرب وعاداتهم.

لا يقدم الطعام للضيف في وقت مبكر من النهار. بل يتم تناول الوجبة الأولى عند العرب حوالي الساعة العاشرة، كيلا يضيع المسافر أفضل أوقات النهار بانتظار طعام الإفطار.

إذا ما مرّ مسافر بقرية أو مضرب خيام، أو حتى خيمة يتيمة، يحقّ له أن يعرّج على المكان لأنّه قسط من الراحة وتناول بعض الطعام. تمتاز نساء العرب بسرعتهن في إعداد الطعام. ريثما يصل إلى إعداد العجين وخبزه على الفور؛ تقوم أخرى بقلي البيض أو تسييج بعض الدهن الذي سيصار إلى غمس الخبز فيه، بينما تعكف الأم العجوز للمضيف أو أقدم زوجاته على التنقيب داخل أحد الأكياس أو صرر الملابس بحثاً عن بعض الأعشاب أو التوابل لإعطاء نكهة مميزة لطبق الطعام الذي يجري إعداده. إذا سمح الوقت، يصار إلى إحضار أحد الحملان أو الجداء من بين القطيع، ثم إلى ذبحه وتقطيعه وطهيه وتقديمه في لمح البصر.

أذكر جيداً إحدى الوجبات السريعة التي أعدّت لي. كان ذلك في قرية بئر السبع Beersheba. كنا قد وصلنا لتؤّنا بعد مسيرة يوم كامل، وكنا نتضور جوعاً. لمحنا خيمة على بعد، فقصدناها على الفور. أعدّت القهوة وخبز الخبز وقدّمت لنا وجبة معتبرة في غضون خمس وعشرين دقيقة؛ وقبل أن تمضي نصف ساعة على نزولنا ضيوفاً على

تلك الخيمة، كنا نهم بالمضي في طريقنا من جديد. حالما انتهينا من سدّ رمقنا مما قدّم لنا، استأنفنا مسيرنا. والبالغة في شكر المضيف أمرٌ غير محبذ عند العرب؛ إذ يكفي أن تقول: «أَدَمُ اللَّهُ عَزَّكُمْ!» أو «أَدَمَ اللَّهُ دَارَكُمْ عَامِرَةً بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ!»، فهي كل ما ينتظِر المضيف سماعه من ضيوفه لقاء لطفه وكرمه.

### إقامة الولائم

الجزء 8 من الفصل الحادي والعشرين والجزءان 22 و 27 عشر من الفصل التاسع والعشرين من سفر التكوين 27 Genesis xxi. 8; xxix. 22 and 10; والجزء 12 من الفصل الرابع عشر من سفر العهد القديم؛ والجزء 1 من الفصل الأول من سفر إستير Esther بالعهد القديم؛ والجزء 13 من الفصل الثاني من سفر أیوب Job.

جميع هذه الأسفار تتطرق إلى الحديث عن الولائم التي تقام في مناسبات الأفراح والأتراح وغيرها من المناسبات في حياة من يرد ذكرهم في هذا السياق. سيلاحظ القارئ بأن فترة إقامة الفرح أو غيره كانت محددة بسبعة أيام، وهذه العادة لازالت متتبعة بين عرب المدن والقرى والبلدات أو الصحراء. لعلنا لا نخرج عن السياق إن تحدثنا بإيجاز حول الأعراف والتقاليد المتتبعة في مثل هذه المناسبات. نقرأ بادئ ذي بدء عن إحدى الولائم التي جرى إقامتها يوم فطام إسحق. نادرًا ما يصار إلى فطام الرضيع قبل أن يكمل عامه الثاني؛ وأحياناً قد يستمر الطفل في الرضاعة حتى سن الثالثة. بعد أن يكمل الرضيع عامه الثاني، لاسيما الطفل الذكر، من المفترض أن يكون قادرًا على الاستغناء عن حليب الأم وتناول ما يغطيه عن ذلك من بعض أصناف الأطعمة العادية. لقد تخطى أولى مراحله العمرية؛ وكونه عاش ليبدأ المرحلة الثانية من حياته، فهذا الأمر يُعد مناسبة جديرة بأن يُحتفى بها. يصار إلى دعوة كافة الأقارب والأصدقاء المقربين إلى وليمة تقام بهذه المناسبة، ثم دعوة الجيران وغيرهم من المدعوين، بما فيهم الغرباء، إلى وليمة عامة مفتوحة لمشاركة الوالدين بهذه المناسبة.

تستمر الأفراح والليالي الملاح على مدى سبعة أيام، بما يرتبه ذلك على العائلة من أعباء مالية جسيمة. قد تسهم الهدايا والعطايا العينية التي تُقدم للطفل السعيد الحظ في هذه المناسبة في التخفيف من هذه الأعباء.

تتطرق هذه الأسفار في مواضع أخرى إلى الحديث عن الولائم التي تقام في مناسبات الأتراح. هنالك قاعدة متبعة لدى العرب بهذا الصدد تقول بأن «إكرام الميت دفنه». قد يكون للتأثيرات المناخية أحياناً دور معاكس لتلك العادة. عند حدوث الوفاة يتوجه بعض الرجال لحفر القبر، ويصار إلى غسل جسد المتوفى بالماء الفاتر بعيد الوفاة مباشرة، ثم لفه في كفن جديد وتشيعه إلى مثواه الأخير.

قد يصادف أحياناً أن يصار إلى دفن أشخاص وهم لا زالوا على قيد الحياة، بعد دخولهم في ما يشبه الغيبوبة، حيث يستتبج الحاضرون بأن الوفاة قد وقعت. لا أزال أذكر جيداً حادثة وقعت في الكرك لامرأة دفنت ثم عادت إلى الحياة من جديد. كانت مريضة ثم غابت عن الوعي بشكل مفاجئ. فظنناً منهم بأنها فارقت الحياة، عمد أقاربها إلى حملها ودفنتها قبل أن يدرك زوجها الذي كان غائباً حقيقة ما حصل. ولدى عودته توجه إلى القبر، وما أن جلس بقربه حتى تناهى إلى سمعه ما اعتقد بأنه صوت أنين. قام على الفور بنبش التراب وإزاحة الحجارة عن الجسد المسجى ليتبين بأن الميت المفترض حيٌ يرزق وقدر على الكلام. تمت إهالة التراب عن الجسد بواسطة صفائح من الحجارة المسطحة الموضوعة بشكل متضالب فوق حجارة أخرى. وتمت إعادة المرأة إلى بيتها ثم تعافت وهي على حد علمي لا زالت حية حتى الآن. ولقد شاهدت لها مرات عديدة وتحدثت إليها.

وبعد هذه الحادثة تم استدعائي عدة مرات للتحقق من وفاة بعض الأشخاص قبل أن يصار إلى دفهم، نظراً لأن أبناء المنطقة لديهم ثقة كبيرة بالسماعة الطبية، أو كما يسمونها، «مقاييس الحياة» The Scales of life.

والفترة الوجيزة التي تنقضي بين الوفاة والدفن تكون عادة مليئة بمشاغل أخرى إلى درجة صرف النظر عن مراسم التشيع جملةً وتفصيلاً؛ ولكن لدى العودة إلى المنزل

أو الخيمة يسمع صدى الندب والوعيل في الحال. يقوم الرجال، وليس النساء، بواجب الإشادة بما ثار وفضائل المتوفى بطريقة إنشادية مؤثرة؛ وتجتمع النساء في باحة الدار أو فوق سطح منزل الفقيد ثم يشبكن الأيدي على شكل حلقة، حيث تقوم تلك التي في الوسط بالترنم ببعض العبارات الحزينة عند رأس المتوفى، وبعدها تتولى كل واحدة منهن أخذ دورها في ذلك بشكل متماثل. وتترافق كل بضعة أبيات بأداء رقصة دائيرية في إيقاع دقيق منضبط مشير للإعجاب. وما أن يتملّك هذه المجموعة التعب، حتى تتولى مجموعة أخرى القيام بالمهمة مكان المجموعة الأولى، وهكذا دواليك منذ الصباح الباكر وحتى ما بعد منتصف الليل. يقوم الأقارب المبادرون للمتوفى بزيارة القبر والقيام بواجب الندب والوعيل هناك. تستمرّ هذه الطقوس على مدى سبعة أيام، يتولى خلالها الجيران والمعارف من خارج نطاق العائلة القيام بواجب تقديم الطعام للعائلة المفجوعة لتمكنهم من التفرغ لواجبات المناسبة.

عند وفاة شخصية هامة كزعيم أو رجل دين، تتحطّى الأعراف والتقاليد واجبات التشيع والعزاء التقليدية المعتادة، إلى تعليق كافة النشاطات والأعمال اليومية على مدى سبعة أيام.

كان لدى دليل عملي على ذلك عند وفاة زوجتي في الكرك. لم نستطع أن نفهم السبب الذي حدا بالعرب إلى تحاشينا وتجنبنا في وقت كهذا. كان واضحاً جداً أن أقرب المقربين من أصدقائنا عمّدوا عدم الاقتراب منا. وبعد فترة من الزمن، قاموا بزيارتني مرة أخرى. وعند سؤالنا إياهم عن مكان وجودهم طيلة هذه الفترة، أجابوا: «كنا نمضي أيام العزاء في بيوتنا حداداً على السيدة المتوفاة؛ لم نكن على علم بعاداتكم وتقاليدكم في مثل هذه الفترة، وهكذا قمنا بتعليق أعمالنا وإغلاق دكاكيننا والتزمنا بمراسيم الحداد وفق عاداتنا وتقاليدنا».

لعرب شرق الأردن عاداتٌ وتقاليدٌ إضافية تظهر مدى التوادّ والتعاطف الذي يكنّه أحدهم للآخر. فإذا ما نفق حصان أحدهم - وهو بمثابة رفيقه المفضل بعد ابني البكر - يقوم جاره بإحضار حصان آخر ويضعه في مربط الحصان القديم ويتركه لمدة

سبعة أيام، وهو يفكر في طريقة للتعويض على جاره جراء فقدان الحصان. وكذلك فإن النسوة يقمن أيضاً بتصرفات مشابهة عند وفاة أحد الأطفال الصغار، حيث تعمد إحدى قريبات أو صديقات الأم المفجوعة إلى دفع طفلها لهذه الأم كي ترضعه وتعتني به على مدى سبعة أيام، ريثما يسكن روعها وتتكيف مع المصاب.

حضرني حادثة مؤثرة وقعت في أثناء وجودنا في مأرب. وبعد وقت قصير من وصولنا لتلك البلاد شاء القدر أن تفقد زوجتي رضيعها الصغير. وسرعان ما شاع الخبر بين النسوة اللواتي أبدين حزناً كبيراً حيال هذا المصاب. بعد يوم أو يومين حضر إلى باب بيتنا أحد شيوخ العشيرة من الشباب، وكان يعاملنا معاملة حسنة؛ ثم دخل وأخرج من تحت عباءته حملًا أبيض صغيراً ثم وضعه في حجر زوجتي قائلاً: «أنا آسف لما أصابكم، ولو كان عندي طفل لقدّمه لك لتعتني به ريثما يسكن روعك وتتكيفين مع المصاب؛ لدى هذا الحَمْل أحضرته لك لتعتني به وتطعيميه». ثم غادرنا وعندما شاهدته آخر مرة كان قد قُتل غيلة على يد أحد أبناء العشائر العدوة بالقرب من المكان. أقيمت للمغدور مراسم حداد وعزاء على مدى شهر كامل كونه كان كريماً وشجاعاً وطيباً مع الجميع. وعادة إقامة العزاء على مدى سبعة أيام هي عادة لا تقصر على البادية وحسب، وإنما هي عادة متتبعة في مدن وبلدات سوريا وفلسطين.

وتتشكل الأعراس مناسبة للفرح والابتهاج وإقامة الولائم، وأيضاً على مدى سبعة أيام.

يكون الأسبوع الذي يسبق اتحاد الشريكين مكرساً بكماله من قبل العائلتين كلتيهما للأفراح والمسرات. ينزعز العريس والعروس، كل في بيته الخاص، في شقق مستقلة لتلقي تهاني وهدايا الأقارب والأصدقاء والجيران. والرجال لا يشاركون النساء في زياراتهم، لأن هذا يُعد انتهاكاً صريحاً للتقالييد. والمثل العربي القائل: «إن الطيور على أشكالها تقع»، يجد له تجسيداً عملياً في هذه الأوقات. في الخارج، تستمر الأفراح والولائم وشرب القهوة على مدى سبعة أيام. ولدى العائلات الميسورة يتم ذبح عشرين أو خمسة وعشرين خروفًا لتأمين الطعام للضيوف الذين قدموا المشاركة العائلة

أفراحها ومسراتها. وإضافة إلى الخراف، يتم طهي كميات كبيرة من الأرض والقمح لسد النقص. وكثرة الشحم واللحم في مثل هذه المناسبات تمثل شاهداً على سخاء وكرم العائلتين المتنافستين. أما في الداخل، وسط جمع النساء، فتجري للعروس عملية استحمام وتطهير يومية لتهيئتها للعرис. وعملية الاستحمام هذه هي عملية الاستحمام الوحيدة الجيدة التي تتلقاها في حياتها؛ لذلك فهي تعد بمثابة مناسبة هامة للعروس، ومهمة مضنية للقاعيمات عليها. أما العريس كذلك فلن يخرج إلى عروسه قبل أن ينال نصيه من الفرك والدّعك والتبيخ بشتى أنواع الطيب والعطور. تنتهي الأيام السبعة من الفرح والابتهاج بجلسة دينية تشكل خاتمة طيبة لأسبوع حافل بالجهد والتعب.

كما يشكل ختان الولد الذكر مناسبة أخرى للفرح والابتهاج لدى الجميع، الرجال والنساء على حد سواء. لقد قيل ما فيه الكفاية لإثبات أن الأيام السبعة التي تحدّث عنها الكتاب المقدس لم يختصر منها شيء بأي حال من الأحوال، ما يظهر لنا الوتيرة البطيئة لتطور الحضارة بين أحفاد إسماعيل<sup>(1)</sup>. حقاً «إنهم يعيشون وحدهم» (سفر إرميا، الجزء 31 – الفصل 49). 31

## شراء الأراضي

ورد في الجزء 17 من الفصل 23 من سفر التكوين 17 Genesis xxiii: «والحقول والمغاراة التي كانت فيه وكل الأشجار التي كانت في الحقول وعلى تخومه هي ملك لإبراهيم».

إنه لأمر واضح جداً كم كان رب العشيرة the patriarch دقيقاً في هذه الصفقة. كان يمكن له أن يشتري الحقل، معتقداً أنه يشتري كل ما فيه، ولكن عند مجئه إلى

(1) العادات العربية التي يذكرها فوردر قديمة جداً وترقى لآلاف السنين منذ أيام ممالك العرب القدامى في اليمن وجنوبى جزيرة العرب، ولذا فهى ليست إثباتاً على موثوقية العهد القديم، بل هو يصف ويصور مجرد شذرات من تراث يسبقه بهمود بعيدة.

ملكه وذهابه لإعداد المغاره لموته، أو قله المالك السابق قائلاً: «أنت اشتريت الحقل فقط، وليس المغاره أو الأشجار التي في الحقل». وهكذا، فقد كانت حصة إبراهيم في صك الملكية كل ما في الحقل وعلى تخومه. إنه لأمر شائع في الشرق أن يمتلك الرجل بئراً وسط حديقة أو أرض تخصّ شخصاً آخر.

وُجد البئر من قبل الرجل الذي كان قد اشتري الأرض، وحيث أنه لم يكن قد ورد ذكر البئر في صك الملكية، فالبئر، وفق العادات، تعود للملك السابق للأرض. وهكذا عند شراء الأرض من العرب تستخدم عبارات كالعبارات التالية: «فلان اشتري من فلان الأرض الواقعة في مكان كذا، وكل ما عليها من شجر وحجر وكل ما قد يُعثر عليه في باطنها». وهذا يضمن للشاري حقه في كل ما يجده، بما فيه الكنوز. هذه العادة تجعل من تصرّف إبراهيم تصرفاً مفهوماً تماماً. والشخص المغفل قد يُخدع على الفور عند شرائه أرضاً في الشرق؛ بينما يتكتم البائع على ذلك ليتحقق لنفسه كسباً مضاعفاً. هذه الصفقة التي نقرأ عنها أُبرمت بحضور الشهود، إنها ثغرة قانونية خطيرة في بلاد وعند أناس لا ينظرون إلى الكذب والخداع على أنه جرم أو خطيئة، وحيث لا وجود تقريراً للكتابة والوثائق.

\* \* \*

إنَّ ما يرد في الجزء 14 من الفصل التاسع عشر من سفر اللاويين بالعهد القديم :Leviticus xix. 14

«لا يحق لك أن تلعن الصُّنم أو تضع حجر عثرة في طريق المكافوفين». يُطبق بحدافيره من قبل عرب هذه الأيام. فالغالف الضعيف الذي يتعرّض لعملية خداع واحتياط يلقى كل العون والتعاطف من قبل من حوله ويتم التغاضي عن كثير من أخطائه نظراً لعجزه وضعفه.

\* \* \*

ورد في الجزء 20 من الفصل الرابع والعشرين من سفر التثنية في العهد القديم

Deuteronomy xxiv. 20: «إذا ما أقدمت على قطع شجرة الزيتون خاصتك، فلن تتمكن من تسلق أغصانها ثانية، فهي للغريب واليتيم والأرملة».

هذه الوصيّة التي فرضت علىبني إسرائيل قبل ثلاثةآلاف عام لاتزال متبعة من قبل مالكيأشجار الزيتون المحظوظين. يبدأ موسم قطاف الزيتون في شهر نوفمبر، حيث يتوجه المزارعون إلى البساتين مسلحين بالعصي أو عيدان الخيزران والسلالم والأكياس. فيصعد بعض الرجال إلى الشجرة ويقومون بالضرب على الأغصان بقوة ما يتسبب بتساقط الشمار على الأرض، حيث تعمد النسوة والأطفال إلى جمعها ووضعها في الأكياس والسلال. ولا تتم العودة إلى الشجرة نفسها مرة أخرى، وما يتبقى من سقط الشمار على الأرض يكون من حق الفقراء. يشكل الزيتون جزءاً من النظام الغذائي لأبناء الشرق، والأسرة التي تملك واحدة أو اثنتين منأشجار الزيتون تعدّ محظوظة بالفعل.

\* \* \*

ورد فيالجزئين 24 و 25 من الفصل الثالث والعشرين من سفر التثنية في العهد القديم 20: Deuteronomy xxiv. «إذا ما أتيت كرم جارك يحق لك أن تأكل كما يحلو لك حتى التخمة، ولكن لا يحق لك أن تحمل منه شيئاً إلى دارك. إذا ما أتيت حقل الذرة خاصة جارك، يحق لك أن تقطف من أكواز الذرة بيده، ولكن لا يحق لك استخدام المنجل لقطع السنابل».

فإن تأكل العنب أو تشوّي أكواز الذرة الخضراء أمر جائز تماماً في جنائن أو بساتين العرب، ولن يمنعك أحد من القيام بذلك، ولكن لا يحق لك أن تحمل أيّاً منها إلى دارك، باستثناء ما يُقدّم لك عن طيب خاطر.

### طحن الحبوب على المطحنة

تشكّل عملية طحن الحبوب للاستخدام اليومي جزءاً من مهام ربّة البيت عند العرب، حيث يكاد لا يخلو دار أو خيمة من رحى طحن الحبوب اليدوية الخاصة بها.

وعلى الرغم من أن أي شيء آخر قد يكون تم احتجانه أو شراؤه من منزل أو عائلة ما، فلا بد من الالتزام الصارم بما ورد في الجزء 6 من الفصل الرابع والعشرين من سفر التثنية في العهد القديم 20: Deuteronomy xxiv. «لا يحق لأي كان أن يرتهن لديه مطحنة جاره، لأنه بذلك يرتهن حياته». ومن الأقوال التي تعبر عن أوقات العسرة أن «مطحنته صامتة»، أي أنه لا يوجد أي حبوب لطحنها. هنالك نوعان من المطاحن المنزليّة: تلك التي تديرها المرأة، وتلك التي يديرها الحمار. وبالنسبة للثانية منهمما، يتم تعصيّب عيني الحمار كي لا يحس بالدوران من كثرة اللف والدوران. ومن الشائئ بالنسبة للرجل أن يقوم بعملية الطحن، ولذا كان المشهد المذل لشمرون في المطحنة داخل السجن عندما قاموا باقتلاع عينيه لتهيئته لهذا العمل.

### المراثي السنوية

ورد في الجزء 39 من الفصل الحادي عشر من سفر القضاة بالعهد القديم Judges 39.xi: «وكان من العادات الشائعة في أوساط بني إسرائيل أن تمضي بنات إسرائيل لييندين ابنة يفتح الجلعادي Jephthah the Gileadite لأربعة أيام في السنة». تشكل زيارة الأضرحة والمزارات جزءاً مهماً من حياة العرب.

هنالك في كل منطقة ضريح أو مزار لأحد الأولياء أو الشخصيات البارزة من ذوي القدرات الخارقة على استجلاب البركات، وكل ما يجري إيداعه بالقرب من هذه الأضرحة والمزارات يكون في مأمن تام من أي مكروره، كونه تحت الحماية المفترضة لذاك الولي صاحب المزار. من المألوف تماماً رؤية الخيام وأكياس الذرة والمحاريث وغيرها بالقرب من هذه الأماكن، ولا يجرؤ أحد على العبث بهذه الودائع أو إزاحتها من مكانها خشية استجلاب لعنة الروح التي تقطن هذا المكان.

هنالك زيارات سنوية يجري القيام بها لهذه الأضرحة والمزارات لاستجلاب البركة على عائلة الزائر أو قطيع حيواناته. ولكل فئة من فئات المسلمين أضرحتها

ومزاراتها الخاصة، ولكن هنالك بعض الأضرحة والمزارات التي يؤمّها الجميع، إما لتقديم القرابين أو التفجع والنوح<sup>(١)</sup>.

من الأضرحة والمزارات الرئيسية في فلسطين وجزيرة العرب أضرة ومزارات النبي موسى قرب الأردن؛ وأضرة ومزارات أخيه هارون على قمة جبل هور Mount Hor في إدوم Edom؛ وأضرة ومزارات الأنبياء صموئيل ويوحنا ورؤوبين بن يعقوب. وتعدّ مغارة مكفلة Machpelah في الخليل أحد المزارات الهامة لكلّ من المسلمين واليهود على حد سواء. ويعدّ قبر محمد [عليه الصلاة والسلام] في المدينة المنورة في جزيرة العرب بالطبع أهم مزار على الإطلاق بالنسبة لأتباع الرّسول العربي.

يبين لنا هذا الفصل بوضوح أن العادات والتقاليد الشعبية التي يمارسها هؤلاء الناس البسطاء من أنصاف المتحضّرين منذآلاف السنين تؤكّد على ما ورد في التوصيفات والأحداث وغيرها من الأشياء المدونة في الكتب المقدسة. لقد أسهمت وتيرة التقدّم البطيء للحضارة في جزيرة العرب في الحفاظ على استمرارية العديد من العادات والتقاليد الأخرى التي لم يتمّ التطرق إليها في هذا الكتاب بكل تفاصيلها، وجميع هذه العادات والتقاليد لا تزال شائعة إلى حدّ كبير بين أحفاد إسماعيل.

\* \* \*

---

(١) وهذه الممارسات الفاسدة التي شاعت في القرون الأخيرة ليست من الإسلام في شيء، بل كان فيها متنه الإساءة لروح الدين التي لا تقرّ بالعبودية والقدسية إلا لله وحده.



### عازف قيثارة عربي

للعرب نوعان من الموسيقى، وظاهر هذه الصورة شاباً يعزف على قيثارة ذات وتر مفرد. والآلة أخرى هي ناي مزدوج مصنوع من الخيزران النحيل، وعادة ما يعزف بها الراعي عندما يرعى قطيعه.



### أمرأتان تطحنان على رحى

لم يكن العرب يعرفون المطحنة البخارية، وتقوم النساء بطحن الطحين عند الحاجة إليه. تتألف الرحى من حجرين، الأول يدور حول محور الأسفل، ويتمملء الرحى من خلال فتحة في الوسط. وبعدّ من العار على الرجل أن يطحن على الرحى.

## الفصل الرابع والعشرون

### جزيرة العرب في علاقتها بالكتاب المقدس

على الرغم من كونها صحراءً رملية قاحلة بشكل أساسي، تمتاز جزيرة العرب بأهمية تاريخية ودينية بالغة. تمتد جزيرة العرب من الغرب إلى الشرق بدءاً من منبع النيل في مصر السفلى Lower Egypt حتى الفرات والخليج العربي، وهي مسافة تقدر بحوالي ألف ميل، وألف وأربعين ميل من من الخليج العربي حتى سوريا في الشمال. لقد قسم العرب بلادهم إلى قسمين رئيسيين؛ قسم شمالي، ويدعى بلاد الشام، أو «الشمال» the left، وقسم جنوبي ويدعى بلاد اليَمَن، أو «اليمين» the right.

لكن الجغرافيون قاموا بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام منفصلة وهي: العربية الصحراوية Arabia Deserta والعربيَّة الصَّخْرِيَّة Arabia Petraea والعربيَّة السعيدة Arabia Felix.

ورد في الجزء 6 من الفصل 25 من سفر التكوين (Gen. xxv. 6) أن العبرانيين القدماء سيطروا على هذه المنطقة «بلاد الشرق» وسكانها «أبناء الشرق»: الجزء 3 – الفصل 6 من سفر القضاة؛ والجزء 3 – الفصل 1 من سفر أيوب؛ والجزء 30 – الفصل 4. من سفر العهد القديم؛ والجزء 14 – الفصل 2 من سفر إشعياء؛ (Judge. Vi. 3; Isa. ii. 14). (Job i. 3; 1 K. iv. 30; Isa. ii. 14).

كانوا يقصدون بجزيرة العرب ذلك الجزء الصغير من البلاد المسمى اليوم Arabia (سفر حزقيال) 17, 2 Chron. xxi. 16, Ezek. xxvii. 21.

وهكذا، فقد كان يُنظر إلى سكان جزيرة العرب على أنهم يقطنون ذلك الجزء من الأرض المتصل بفلسطين 7 Philistines 2 Chron. Xxvi. ومن خلال الحديث عن «كافة ملوك جزيرة العرب» (K. x. 15; Jer. Xxv. 24 1) يمكن أن نفهم أن المقصود هم زعماء القبائل الرُّحْل الذين كانوا يسكنون الخيام. وعندما يتحدث الحواري بولص Apostle Paul عن زيارته لجزيرة العرب، (Gal. i. 17) قد يفهم البعض أن المقصود هو تلك المنطقة قرب دمشق، ويصر البعض الآخر بأن إدوم Edom هي المقصودة. أيهما كان الصواب، فجزيرة العرب مشمولة بهذه الإشارة. وعندما يتحدث عن سيناء Sinai في جزيرة العرب (Gal. iv. 25)، فهو يستخدم التسمية بمعناها الواسع.

من المفترض أن تسمية جزيرة العرب Arabia مشتقة من عَرَبَاه<sup>11</sup>، أي الصحراء، وهي إقليم موجود في إدوميا Idumea.

نقرأ في الجزء 8 من الفصل الثاني من سفر التثنية 8 Deuteronomy ii. عن السهل المتصل بإيلات Elath وعصيون جابر Eziongeber؛ والذي هو في الأصل هَعْرَبَاه Ha-Arabah، أو العَرَبَه. وعندما جاب الإسماعيليون المناطق المجاورة، انتقلت التسمية إليهم أيضاً. تتألف هـ - عَرَبَاه، أو عَرَبَه، من وادٍ قفر عظيم سحيق موحسن يبدأ عند إيلات Elath وعصيون جابر Eziongeber ويتنهي عند البحر الميت، الذي يسمى «بحر السَّهْل»، أو عَرَبَه، كما ورد في الجزء 49 من الفصل الرابع من سفر التثنية؛ والجزء 16 من الفصل الثالث من سفر يوشع.

(11) هذا كلام هواه وجهرة، لأن تُعد التوراة العائدة إلى القرن الخامس قبل الميلاد واللغة العبرية أصلاً لتاريخ المشرق وأصلاً لما سماه النمساوي شلوتر Schütz باللغات السامية. وحقيقة الأمر أن أسرة اللغات العربية المشرقية التي نشأت أول الأمر في اليمن هي أصل جميع اللغات التي سُمِّيت بالسامية، بدأت باللهجات العربية الجنوبية كالسبئية والقتانية والحميرية، وتفرعت منها 42 لهجة عربية، وظهرت لها كتابات كقلم المُسند وقلم الجزم.. أما استقاق اسم العرب فليس بالطبع من العربية (عَرَبَاه)، بل أطنه مفردة كنعانية من شرقي جزيرة العرب، وتعني: الغرب. وفي الكنعانية يعبر عن جهة المغرب بقولهم: معَارَب، فورثتها الآرامية: مَعَرَبَا. ومؤدي ذلك أن ممالك جنوب الجزيرة القديمة سُمِّيت بذلك لوقوعها إلى غربي أراضيبني كنعان في شرق الجزيرة والخليج العربي.

تلك الأجزاء من البلاد المتاخمة لفلسطين ومصر سكّنها أساساً كوش Cush بن حام Ham، ومن هنا أصبح اسم كوش Cush تسمية شائعة عند العرب وسكان أثيوبيا<sup>(1)</sup>.

يرجع العرق العربي النقي في جذوره إلى يقطان kahtan أو قحطان Joktan ابن عيبر Heber من سلالة نوح Noah. يتحدث موسى عن ثلاثة عشر ولداً من أبناء قحطان كما ورد في الجزئين 26-29 من الفصل العاشر من سفر التكوين (Gen. x. 26-29). والعديد من أسماء هؤلاء الأبناء جرى تحديدها من قبل المؤرخ الألماني نيبور<sup>(2)</sup> Niebuhr وغيره من خلال مطابقتها مع أسماء بلدات وأقاليم جنوب جزيرة العرب. العربي القادر على تحديد نسبة بوضوح في شجرة الأنساب العربية يدعى من العرب الأقحاح، أو «عربي ابن عربي» إشارة إلى نقاء نسبة. الفتة الثالثة من العرب، أو ربما أولئك الذين نجدهم عموماً في أيامنا الحاضرة، هم من نسل إسماعيل، الذين تفرع أبناؤهم إلى اثنين عشر سبطاً وفقاً لمواطنهم إحقاقاً للوعد الإلهي لإبراهيم في الجزء 20 من الفصل السابع والعشرين من سفر التكوين (Gen. xvii. 20). أما باقي القبائل فقد تحدّرت من قطوراه Keturah الزوجة الثانية لإبراهيم.

يُقسم مجموع هذه القبائل إلى فئتين وهما: عرب المدن Arab el-mudn من يسكنون المنازل؛ والبدو Bedouin، من يسكنون «بيوت الشعر»، لأن الخيمة المقصودة مصنوعة من وبر أو شعر الماعز الذي تقوم النساء بعزرلته وحياته لهذا

(1) هذه كلّها ترّهات، صنّقها عزرا الكاتب في سفر التكوين، ويطلب منها أن نصدقها ونأخذ بها. البحث العلمي في تاريخ الشرق الأدنى القديم عليه الاستناد إلى علم الآثار الذي فضل إلى حدّ رائع في أطلال المدن والحواضر القديمة في كل من بلاد الرافدين وسوريا القديمة ومصر، وبالطبع في جزيرة العرب ذاتها في عصر الجاهلية. ثم لدينا ذاك الكم الهائل من نصوص اللغات المشرقية القديمة وتراثها الديني والأدبي والإداري والفلسفي العظيم، كالتراث الآشوري والبابلي والأكادي وتراث إيليا وأوغاريت. بعد ذلك كله نجد اللغة العربية مجرّد قوم صغير يقف على اعتاب لغة كنعان، ونفهم أنّ هذه التّوراة المحرّفة ليست سوى مقاطع مجموعه من تراث بابل وأكّاد وأوغاريت، التي تسبقها بما يزيد على عشرة قرون في أقل تقدير.

(2) كارستن نيبور لم يكن مؤرّخاً ألمانياً، بل هو رحالة وباحث دنماركي.

الغرض. وهذه الفئة الثانية تعيش بشكل كلي في البراري والصحاري ترعى قطعان ماشيتها، محققة إلى حدّ ما النبوة الإلهية: «سيكون من أبناء البراري» He will be a wild man التي ورد ذكرها في الجزء 12 من الفصل السادس والعشرين من سفر التكوين (Gen. xvi. 12).

صحراء جزيرة العرب هي بمعظمها صحراء قاحلة لا متناهية يكاد غطاً لها النباتي لا يسُدّ رمق سفنها الصحراوية التي تمخر عباب رمالها كل يوم، ألا وهي الجمال. وصحراء جزيرة العرب هي أيضاً فقيرة بالمياه، ما خلا بعض الينابيع الملحة التي لا تكاد تطفئ ظماً قاطنيها أو تفي باحتياجاتهم اليومية. تتناثر هنا وهناك فوق النجود العالية المدن الكبيرة المحاطة بحدائق وبساتين النخيل. ليس هنالك أية أنهار أو جداول دائمة الجريان تطرح الخير والبركة في صحراء جزيرة العرب وتجلب الخصب إلى أرضها القاحلة وتنفخ روح الحياة في قاطنيها النائين عن الحضارة والمدنية. تطوق الصحراء أو تخللها جبال جرداً بقمم شامخة صعبة المرتفق. أمّا الهواء فجاف، وقد تنقضى سنوات عديدة دون أن تبلل وجه الصحراء قطرةً مطر واحدة. تقدم لنا الكتب المقدسة وصفاً رائعاً ومؤثراً لجزيرة العرب: «أرض الصحراء والحرف، أرض الجفاف وظلال الموت، أرض لم تطأها قدم إنسان من قبل، ولم يسبق لإنسان أن قطنه» (الجزء 6 - الفصل 2 - سفر ارميا) 6. Jer. Ii. ولا يزال الجزء الأعظم من جزيرة العرب غير مكتشف حتى وقتنا الحاضر، وهو بانتظار قدوم رواد المبشرين، الذين يتوجب عليهم قبل غيرهم من الرواد، سبر أغوار هذه الأرض النائية مرة بعد مرّة.

تشتّق بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea اسمها من <sup>(1)</sup> Petra وتعني «الصخرة» نظراً لوجود العديد من الأقاليم الصخرية ضمن حدودها. لقد اختص الله، حسب نبوة يهوداه Judea، هذه الأرض الموحشة، وإنما باللغة الأهمية، بقداسة لم

(1) جرت العادة حتى اليوم تسمية هذه العاصمة النبطية العظيمة بصيغتها اليونانية: پترا، والمفترض أن نطلق عليها اسمها الحقيقي باللغة النبطية: سلَع، التي تعني الصخرة أصلًاً وعنها تُرجمت التسمية اليونانية.

يسبق أن خصّ بها أرضاً غيرها.

لقد كانت هذه الأرض مسرحاً للعديد من الأحداث المهمولة والاستثنائية المدونة في التاريخ اليهودي، الأهمية المقدسة لسيناء التي أقام الإله فوق قمتها الملبدة بالغيوم سُرّادق العتمة عندما أصدر للمرة الأولى نظاماً للقوانين المكتوبة للجنس البشري؛ وهنالك حوريب Horeb بأشجارها الفاقعة الحمراء وكهوفها التي وفرت ملجاً لنبي اليهود إيليا Elijah عندما فر من إيزايل Jezebel الأميرة الفينيقية وملكة إسرائيل؛ وأرض المراعي النائية، التي كانت آنذاك بمثابة أرض المنفى للقادمين من مصر، حيث كان المخلص اليهودي the Jewish deliverer Jethro يرعى قطعان يशׁרוּ Marah مدين Midian؛ وهنالك أيضاً شور Shur وپاران Paran بآبار ماراه Marah المرة، والصخرة المضروبة التي انبثق منها الماء؛ وهنالك كذلك أرض عوص Uz، الأرض التي شهدت سراء النبي أيوب وضراءه ابتلاءً لصبره وانتصار إيمانه؛ كل هذه الأحداث وقعت ضمن الإطار الجغرافي لبلاد العرب الصخرية<sup>(١)</sup> Arabia Petraea.

لقد اشتقت تسمية جزيرة العرب السعيدة Arabia Felix بسبب أرضها الفائقة الخصوبة؛ وهي أرض جبلية وافرة المياه تعطي محاصيل جيدة من الحبوب والبن والفاكهـة. والسكان الحاليون لهذه الأرض يعانون من فقر مدقع نتيجة السنوات المتعاقبة من الجفاف والضرائب الباهظة التي تفرضها عليهم الحكومة التركية. يقطن جزيرة العرب السعيدة Arabia Felix المعروفة أكثر بـ «اليمن السعيد» آلاف اليهود متذذين لهم فيها موطنًا ومستقراً منذ قرون عديدة.

من أهم السكان الذين قطنوا هذه الأقسام الثلاث الكبرى لجزيرة العرب ما يلي:

1 - الإدوميون The Edomites: أرض أبناء عيسو - Esau «الذي هو إدوم» بعد أن «فرّ من وجه أخيه يعقوب» إلى جبل سعير Seir، وهو مرقى مرتفع عن الأرض يمتدّ من جنوب البحر الميت حتى خليج عصيون - جابر

(١) انظر كتاب كرايتون جزيرة العرب: Crichton: Arabia

سكنها الأوائل كانوا من قاطني الكهوف Horims كما يرد في سفر Ezion-geber التثنية (Deut. ii. 12, 22). وقد أطلق عليها الإغريق والرومان في العصور اللاحقة اسم إدوميا Idumea. كان الإدوميون رجالاً مولعين بالحرب والقتال، وقد انتشروا شيئاً فشيئاً باتجاه الشرق والجنوب عبر مساحات واسعة من الأرض، وقد أنشؤوا لهم موانئ عديدة على البحر الأحمر أخذها منهم داود David وألحقت مملكة إدوم بملكه، إلى أن ثارت لاحقاً في عهد يهورام Jehoram، كما سفر الأيام الثاني .(10-Chron. xxii. 8 2)



### خزنة فرعون، تحفة إدوم

هذا الهيكل منحوت بالحجر الوردي اللون. يتجاوز ارتفاعه ثمانية أقدام وعمره أكثر من ألفي سنة. يحتوي على ثلاثة غرف واحدة بحجم خمس وثلاثين قدماً مربعاً، وأثنتان بحجم خمس وعشرين. ولقد حافظ موقعه المحمي على النحت الرائع من الخراب الذي يسبّيه الطقس. ويطلق العرب على هذا المعبد «خزنة فرعون». ولا أحد يعرف ما الغاية من هذه المنحوتة المتناثرة.

قبل حوالي مئة وخمسين سنة من الحقبة المسيحية جرى إخضاع الإدوميين مجدداً، ثم جرى دمجهم شيئاً فشيئاً في المجتمع اليهودي، إلى أن انقرض اسمهم السابق وتلاشى إلى الأبد. والأرض التي كانت يوماً مهدًا للعديد من المدن والقرى وكانت سوقاً لتجارة الشرق، باتت الآن من أكثر المناطق التي يتعدى بلوغها في الشرق.

2- المؤابيون The Moabites: الأرض التي يقطنها أحفاد الابن الأكبر لنبي الله لوط Lot تقع إلى الشرق من الأردن والبحر الميت، وتاريخها وثيق الصلة ببني إسرائيل. لقد شكل هؤلاء الناس قبيلة قوية، لكنها عاجزة عن وقف تقدم العبرانيين في طريقهم إلى كنعان Canaan. مع ذلك، فقد تمكناوا باتحادهم مع المدينيين Midianites من استمالة بني إسرائيل إلى الخطيبة وعبادة الأوثان، انظر سفر العدد (Num. xxv).

تقع المدينة الرئيسية وهي البتراء<sup>(1)</sup> Petra، ولعلها يقوثيل Joktheel التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس - في واد عميق ضيق شديد الانحدار أو شعب من الصخور يسمح جانبياه كلاهما إلى ارتفاع شاهق، مشكلاً حصنًا دفاعياً طبيعياً رائعاً. جرى في هذه الصخور التي ترتفع إلى مئات الأقدام نحت العديد من البيوت والمدافن لسكانها الأوائل والتي تستحق بكل جدارة أن يطلق عليها تسمية «أعشاش النسور». لقد خيم الصمت والرّهبة على أوابد هذه المدينة ذات المنازل المنحوتة في الصخر ولفها الغموض لعصور متعددة إلى أن أعيدت إلى دائرة الضوء من جديد على يد بوركهارت<sup>(2)</sup> Burckhardt في أوائل القرن التاسع عشر، ولاحقاً على يد لا بورد

(1) هذا تعريف غشيم لتسمية العاصمة النبطية العظيمة بصيغتها اليونانية: پترا، والمفترض أن نطلق عليها اسمها الحقيقي باللغة النبطية: سلَع، التي تعني الصخرة. أما البتراء فماذا تعني في العربية؟ إنها لا تعني سوى المقطعة والمنقوصة.

(2) رحال سويسري شهير من بازل Basel واسمـه: يوهان لودفيك بوركهارت Johann Ludwig Burckhardt البريطاني الأفريقي British African Association وفي غضون إقامته لأكثر من عامين بمدينة حلب وتجواله في سوريا والتُّوبَة، أجاد تقمص شخصية أهل الشرق وتكتَّن بالحاج إبراهيم، و Ashton من جراء اكتشافه لمدينة پترا الأثريّة. له كتاب مهمان: «يوميات رحلة في جزيرة العرب» The Arabian Journal نُشر بلندن في جزأين عام 1829، والآخر «ملاحظات عن

Robinson وروبنسون<sup>1)</sup> Laborde. لقد قام الكاتب بست زيارات لهذه الأوابد الهامة محظماً الرقم القياسي فيما يتعلق بالزيارات إلى البراء.

كان الإدوميون The Edomites وفي كل العصور مناوئين للعبرانيين؛ من هنا يصح القول مجازاً بأن أعداءبني إسرائيل الحقيقيين يطلق عليهم تسمية «الإدوميين» The Edomites.

كانت عاصمتهم تدعى عار Ar، أو ربات مؤاب Rabbath Moab على الطرف الجنوبي للنهر الضيق المؤدي إلى وادي الموجب Mojeb، الذي يجري خلاله نهر أرnon. عند الأغرق كانت تدعى آريوبوليس Areopolis، أو مدينة مارس ”the city of Mars“، أوابدها كثيرة ومحفوظة بشكل جيد.

قلعة مؤاب وكان حصنها الشهير قير Kir المعروفاليوم بالكرك، حيث عاش كاتب هذه الصفحات لعدة سنوات. يصف النبي إشعيا Isaiah العديد من مدن مؤاب الرئيسية متوجعاً على اجتياح هذه البلاد وتدميرها على يد الآشوريين Assyrians.

3 - العمالقيون The Amalekites: كان ممتلكاتهم إلى الغرب من إدوم؛ وكانوا يسمون في نبوءة بلعام Balaam «أول الأمم» The first of the nations (Num. xxiv. 20). وقد ورد ذكرهم على أنهם الشعب الذي يقطن كامل المنطقة الممتدة من شور Shur في مصر إلى حويلة Havilah أو الخليج العربي (Sam. Xv. 71).

4 - المدينيون: هم أحفاد إبراهيم وقطوراه Keturah عن طريق ولده مدين Midian؛ وقد استقرّوا قرب جبل حوريب Mount Horeb. لقد اجتاح بنو إسرائيل جزءاً لا يأس به من أرضهم في طريقهم من مصر إلى كنعان. وكان قسم أو فئة من هذا

---

البدو والوهابيين» Notes on the Bedouins and Wahabis نُشر في جزأين أيضاً بلندن عام 1831.

(1) سوف تكون لنا عودة على صفحات هذه السلسلة مع الرّحالة الفرنسي ليون دي لا بورد Léon de Laborde، والأميركي إدوارد روبنسون Edward Robinson، في كتب شائقة وممتعة.

الشعب حلفاء المؤابيين (Num. xxii. 4, 5)، وتمت الإطاحة بهم على يد جدعون Gideon . Judges vi

5 - العمونيون The Ammonites: وهم من نسل بن عمومي Ben Amomiنبي الله لوطن، قطنوا الأرض الواقعة بين نهري آرون ويبيوق Jabbok. أبعدهم العموريون The Amorites إلى مسافة بعد باتجاه الشرق. كان هؤلاء الناس على عداء مستفحلاً مع بني إسرائيل، وكانت نبوة إرميا Jeremiah وعاموس Amos وحزقيال Ezekiel وصفنيا Zephania ضدتهم، حيث اختفى اسمهم من التاريخ قبل مولد السيد المسيح؛ وهم بلا شك اندمجوا في واحدة من أكبر القبائل العربية التي عاشوا في كنفها.

6 - الإسماعيليون The Ishmaelites: كان نبایوت Nebajoth وقیدار Kedar أكبر أبناء إسماعيل (Gen. xv. 13)؛ وقد أطلق الأول منهما اسمه على المنطقة عند جبل هور؛ أما الثاني فقد أوغل بعيداً في الصحراء وأقام في خيام مصنوعة منوبر الماعز الأسود، من هنا جاء التعبير في الجزء 5 من الفصل 1 من أناشيد سليمان في العهد القديم Solomon Songs: «سوداء كخيام قيدار». كانوا أغنياء في قطعانهم Isa. xxi. 16, 17) وكانوا رماة قوسٍ بارعين ومحاربين أشداء (Isa. 1x. 7) و كانوا رماة قوسٍ بارعين ومحاربين أشداء (Gen. xxv. 15) فيرد ذكره في الجزء 14 من الفصل 21 من سفر إشعياء (Isaiah. xxi. 14) فيما يتعلق بقوافل ديدان Dedan.

أما بقية أبناء إسماعيل فقد انتشروا فوق ذلك الجزء من جزيرة العرب الواقع جنوب فلسطين والممتد حتى شور بالقرب من مصر، والتي كانت الأخيرة تقيم معها علاقات تجارية منذ أيام نبي الله يعقوب (Gen. xxxvii. 25, xxxix, 1).

ولازلت أسماء الأبناء الاثني عشر لإسماعيل حية بين قبائل وأسر وقرى وأقاليم جزيرة العرب.

7 - القينيّون The Kenites: قبيلة عربية تقطن بالقرب من العمالقين Amalekites أو بينهم في جنوب غرب بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea. كانوا قد أبدوا لطفاً في التعامل مع بني إسرائيل عند خروجهم من مصر، وبال مقابل، عندما انقلبوا ضد العمالقين The Amalekites، تمنى عليهم شاؤول Saul الانسحاب كي لا يلاقوا ذات المصير الذي لقيه أعداؤه (Sam. XV. 6 ; Num. xxiv. 20).





### مشهد عام للم دمشق من الأعلى

دمشق جنة العرب الدينية على الأرض ولؤلؤة المسرار، هي إحدى المدن المشرفة لدى المسلمين يبلغ عدد سكانها 150,000 تقريباً، وشكلها يشبه المعلقة وهي محاطة بالحصن ودراءها الجبل. هذه الصورة الملتقطة من مذكرة ظهرت أسطح البيوت وبقاب بعض الأضرحة المقدسة. ومن دمشق تطلّق قلّاق شخصية إلى جزيرة العرب وشمال سوريا.

## الفصل الخامس والعشرون

### نظرة استشرافية

في كلمة ختامية، دعوني أقول بأنني آمل ألا تكون «مغامراتي بين العرب» نهاية المطاف. لقد حدثكم عن تجربتي الاستكشافية في بلاد العرب. وكل عام ينقضي يجعل من هذه التجربة أكثر سهولة، وكل رحلة ستعني قدرًا أقل من العرقل والمنغصات، وإحاطة أكبر من جانب العرب بال المسيحية البروتستانتية بالمقارنة مع مسيحية الشرق، وهو ما يسهم أكثر فأكثر في التخفيف من مستوى سوء الفهم والتحامل والتعصب.

لابد أن تملي مقتضيات الضرورة في بعض الأحيان على العمل التبشيري أن يواجه العزلة والمشاق والخطر، وربما الموت. لكن مثل هذه المصاعب هي دائمًا الضريبة التي تسبق النجاح والنصر المبين للبشرى كما عبر عنها جودسون Judson في الهند، وكالفرت Calvert بين أكلة لحوم البشر في البحار الجنوبية.

قد لا تجد المحطات التبشيرية والكنائس والمجامع الدينية لنفسها موطن قدم لبعض الوقت في جزيرة العرب، لكن لا ينبغي لذلك أن يعيق الالتزام بإطاعة الأوامر بالتقدم.

«عليك أن تمخّر عباب العالم في نشاطك التبشيري»، وعليه، فمن خلال الشهادة الصادقة وجهود التبشير الدؤوبة والمتواصلة، وتوزع العالم، يمكن أن نكتب إلى صف يسوع المسيح بالصبر والأناة أعراب الخيام والمدن<sup>(1)</sup>، كما حدث للأفارقة

(1) هذا الشيء لم يحصل ولن يحصل أبداً، والتنتجة التي آلت إليها رحلات زويمر وفوردر في جزيرة العرب كانت مثالاً صارخاً للفشل الذريع، ولم يحصد منها غير التعب وركوب المخاطر.

بفضل إيمان ماكاي Mackay وإخلاصه، وللصينيين بفضل إصرار پيرسي Piercy وموظنته.

إن العمل الذي جرى تصويره على هذه الصفحات كان في إحدى جوانبه عملاً مستقلاً. نادراً ما كانت الجمعيات المنظمة تمدّ يد العون للبعثات الاستكشافية والتبيشيرية في مراحلها الأولى. لقد تم وضع الموارد والمقدرات الخاصة لعباد الله مرة بعد مرة بتصرف المبشر أو المستكشف، وجرى استخدامها لفتح واستكشاف بلاد جديدة، وهو ما يبدوا لي بأنه ينطبق على حالة جزيرة العرب المهملة والبعيدة عن الحضارة. إذا ما توصلنا إلى هكذا نتيجة من خلال قراءتنا لهذا الكتاب، فلن يكون الجهد الذي بذلته في كتابته قد ذهب بلا طائل.

لذلك فقد سخّرني الله، وهو مدرك تمام الإدراك لحاجتي الماسة ورغباتي الصادقة، لأنجاز هذه المهمة بالتعاون مع الآخرين.

لقد هيأ لنا الفرصة للتبيشير ببني إسماعيل، والأبواب التي لطالما كانت مغلقة، أخذت تتفتح أمامنا شيئاً فشيئاً. السنون تنقضى بسرعة والعمل المضني لم ينجز بعد. أيها القارئ:

«إنه شأنك أنت، وأنت أولى به» (Ezra x. 4)

لن يكون الموعد بعيداً إذا ما

«شنقت الموسيقى الساحرة أسماع الليل المظلم،

وشدّت هموم الحياة اليومية ومشاغلها رحالها

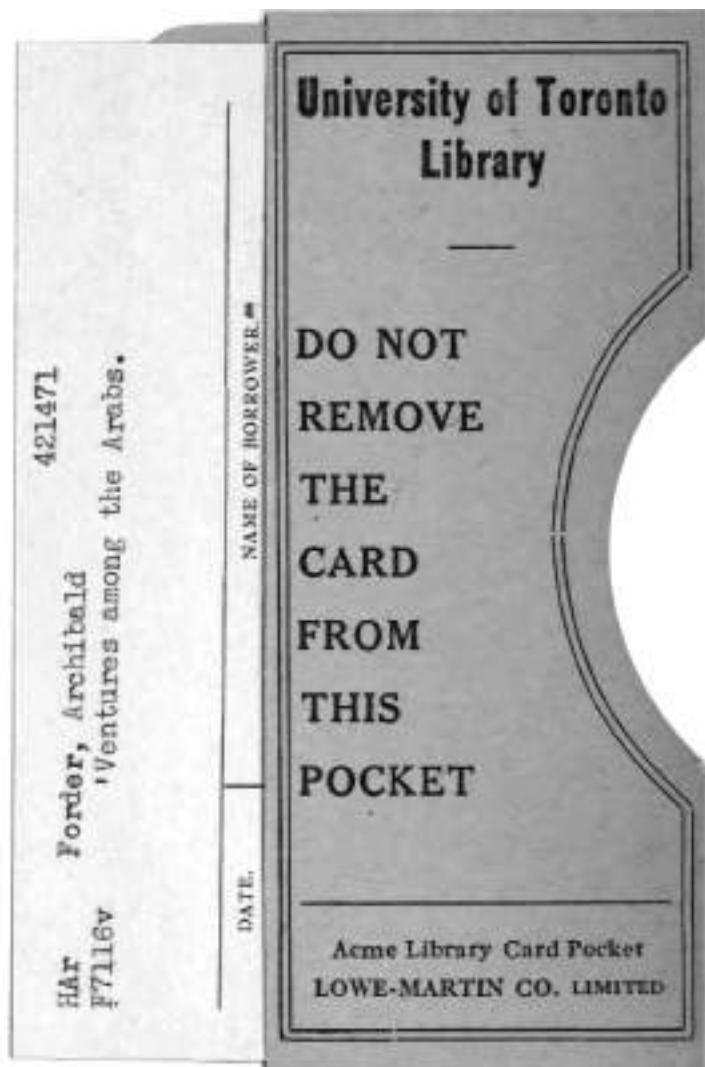
كما يشدّ عرب الصحراء رحالهم..

وانسلّت عنا بعيداً بصمت».

\* \* \*







## فهرس الكتاب

سلسلة روّاد المشرق العربي.....	5
هذا الكتاب .....	7
تمهيد.....	17
المقدمة.....	19
شكر وتقدير .....	21
1 - استقبال غير لائق.....	23
2 - دخول مؤاب .....	27
3 - من هو الأسير .....	37
4 - من هم البدو.....	43
5 - سلسلة جديدة من المحن.....	51
6 - المحن والشدائد تحيل الأعداء أصدقاء.....	63
7 - أوقات شاقة في أماكن متعبة .....	69
8 - تشجيع من مناطق غير متوقعة.....	81
9 - في تنافس مع الأطباء المحليين .....	89
10 - تحت رحمة القتلة وقطع الطريق والبحار الهائجة .....	97
11 - تغيرات غير مرقبة ومزيد من المضايقات .....	113
12 - نحو مناطق جديدة، بين قوم من المتشددين .....	127
13 - جزيرة العرب صحراء البحر .....	139
14 - محاولات لدخول جزيرة العرب تنتهي باعتقال وسجن وعظام مكسرة ..	151

15 - مغامرة رابعة تحملني إلى تخوم الصحراء .....	161
16 - تجربتي في الصحراء بين الدروز والعرب .....	177
17 - شيخ كرام ورعايا لئام .....	189
18 - عشرة أيام فوق رمال الصحراء .....	209
19 - خطة الزعيم لإرغامي على اعتناق الإسلام .....	217
20 - كارثة كادت تكلفني حياتي .....	233
21 - أوقات مثيرة في الصحراء والمدينة .....	243
22 - ديانة العرب .....	255
23 - عادات قديمة تؤكد أعراف الكتاب المقدس .....	265
24 - جزيرة العرب في علاقتها بالكتاب المقدس .....	283
25 - نظرة استشرافية .....	295

\* \* \*

# مغامرات بين العرب

رحلات في الأردن وفلسطين بين 1891-1899  
ورحلة إلى جوف السرحان عام 1900-1901 م

أرتشيبيولد فوردر مبشر بريطاني سافر عام 1891 بصحبة زوجته إلى القدس، وتوجهها منها إلى الكرك عاصمة مؤاب في شرق الأردن، حيث عيّنا مشرفيين على مدرسة للصبيان، وبقي الرجل هناك حتى عام 1897 حيث انتقل إلى القدس.

كان حلم فوردر أن يزور جزيرة العرب، وهذا ما حاول القيام به نهاية عام 1899 ولكن من دون جدوى، ثم أخيراً واتته الفرصة لتنفيذ حلمه في ختام عام 1900 فانطلق إلى الجوف بطريق جبل العرب، فوصل بعد رحلة شاقة إلى بلدة كاف ثم قرية إثرة، ومنها توجه إلى الجوف التي كان يحكمها آنذاك أحد رجال أمير جبل شمر. وعلى الرغم من أن مهمته التبشيرية مُنِيت بالفشل الذريع، فإنه تبقى لها قيمتها كمهمة استكشافية، وكوثيقة تاريخية تضم رواية حية ممتعة، وصف بها أخبار رحلته وعلاقته الشخصية مع البدو وشيوخهم، والمغامرات الخطيرة التي تعرض لها.

السعر 00 درهم



أبوظبي للثقافة والتراث  
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE